

افانجول عزماشير



Bibliotheca Alexandrina



0121789

مختارات التعاون العالمية

إعترافات جولدا مائير

ترجمة
عزيز عزمى

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر
مركز الدراسات الصحفية

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير العام

ممدوح رضا

رئيس التحرير التنفيذي

عبد القادر السعدنى

سكرتير التحرير

سيد قنديل

المراسلات :

دار التعاون - ٦ شارع عبد القادر حمزة
« جاردن سيتى »



بقلم ممدوح رضا

لا أدري كيف يمكن أن يصدر كتاب هام ، يتصل بقضيتنا الكبرى ، ويظل - لفترة طويلة - بعيدا عن القارئ العربى ، والسياسى العربى ؟
ولا أعرف - على وجه التحديد - من يمكن أن يوجه اليه اللوم ، ازاء تقصير من هذا النوع ؟
هل هى جامعة الدول العربية ، بمكاتبها وأجهزتها المختلفة ؟ أم وزارة الخارجية ، بسفاراتها العديدة ؟ أم هيئة الاستعلامات ، بمكاتبها الاعلامية ؟

أيا كانت الاجابة ، فالامر الذى لا أعتقد بوجود خلاف حوله . هو : أن تهمة التقصير تمس جميع الأجهزة التى ذكرتها ا

● ● ●

هذا الحديث ، يتصل بكتاب « حياتى » الذى كتبه جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل الراحلة ، والذى ظهر في أوروبا قبل شهر ا والذى يقدمه مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر في سلسلته الجديدة (مختارات التعاون العالمية)

الكتاب بالغ الأهمية ، لأنه يكشف الكثير من الاسرار ، ويلقى بالكثير من الاضواء على فكر القيادة العليا في اسرائيل ...

... وهو بالغ الأهمية - أيضا - لأنه يتضمن أول اعترافات مكتوبة لجولدا مائير ، حول حرب أكتوبر المجيدة ..

... وهو بالغ الأهمية - أخيرا - لان المعلومات التى أجبرت مائير - بعد هزيمتها - على الاعتراف بها ، تصفع في قوة ، رواد المقاهى والعائلات من أدعياء التقدمية ، الذين سمحوا لانفسهم - خلال حرب أكتوبر المجيدة ، وفي أعقابها - بأن يصفوا الحرب بأنها كانت تمثيلية ، اتفق على توزيع أدوارها ، وأتقن اخراجها ا

● ● ●

وجولدا مائير - صاحبة الاعترافات - كما نعلم .. لم تكن

مجرد سياسية في اسرائيل ولكنها - كانت من ابرز زعمائها
فقد تولت - في اعقاب حرب عام ١٩٤٨ - وزارة الخارجية ..
وقادت أعنف المعارك الدبلوماسية ضد العرب
ثم ...

انتخبت زعيمة لحزب الاغلبية ، واختيرت رئيسة للوزارة ..
وظلت لسنوات طويلة تجمع بين المنصبين .. ونشبت - في عهدها
- حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ .
ولقد تصورت ماثير - يوما - أنها ستكون اعظم زعماء
اسرائيل ، باعتبارها صاحبة أكبر الانتصارات الاسرائيلية ..
أعنى : نتائج حرب ١٩٦٧ .. ولكنها لم تفكر - للحظة واحدة -
في أنها ستميش لتري أكبر هزائمها - أعنى : انتصاراتنا في حرب
١٩٧٣ - ولتعلن بنفسها أنها ستميش بقية حياتها « بحلم اكتوبر
المفزع » !

● ● ●

وأعود الى كتاب جولدا ماثير ..
الكتاب باللغة الانجليزية ويقع في ٣٩٦ صفحة ، مقسمة
الى ١٥ فصلا ..

وقد جاءت اعترافات ماثير حول حرب اكتوبر ، في الفصل
الرابع عشر .. وقد احتلت ٣٩ صفحة من الكتاب .

وقد بدأت مائير اعترافاتها بقولها : « ليس اشق على نفسى من الكتابة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣ .. حرب « يوم كييبور » !
ثم قالت : « ولن أكتب عن الحرب - من الناحية العسكرية -
فهذا أمر اتركه للآخرين .. ولكنى سأكتب عنها ككارثة ساحقة ،
وكابوس عشته بنفسي .. وسيظل باقيا معى على الدوام » !

● ● ●

وكما هو معروف ، فلقد كانت مائير في رحلة - خارج اسرائيل -
- قبيل اشتعال الحرب بأيام ...

وعادت من رحلتها يوم الثلاثاء ٤ اكتوبر ١٩٧٣ ،
- وهو يوم عرفت ان عتيدت اجتماعا مع « المطبخ السياسى » الذى
يضم مجموعة العناصر البارزة في الوزارة والجيش ، لبحث
الموقف !

وخلال الاجتماع ، جرى استعراض المعلومات التى كانت قد
وصلتها في شهر مايو - أى قبل الحرب بخمسة أشهر - حول
تعزيزات القوات المصرية والسورية على الحدود .. كما استعرضت
نتائج المعركة الجوية العنيفة التى جرت بين سوريا واسرائيل في
سبتمبر - الشهر السابق للحرب .. ثم استعرضت ، أخيرا ، تقارير
المخابرات الاسرائيلية ، التى تؤكد عدم قدرة القوات المحتشدة ،
على القيام بأى هجوم !

وخلال الاجتماع - وكما تقول مائير في اعترافاتها - كان
الرأى الذى التقى حوله الجميع : « أن الموقف العسكرى يتلخص
في أن اسرائيل لا تواجه خطر هجوم مصرى - سورى أما القوات
المصرية المحتشدة في الجنوب ، فلا يتعدى دورها القيام
بالمناورات المعتادة ! »

وتمضى اعترافات مائير :

■ « ولم يجد أحد من المجتمعين ضرورة لاستدعاء
الاحتياطى ! »

● ... « ولم يفكر أحد في أن الحرب وشيكة الوقوع » !

● ● ●

وفي يوم الجمعة ٥ أكتوبر ، عقدت مائير اجتماعا آخر
لمطبخها السياسى ، لاعادة بحث الموقف ...

وخلال الاجتماع ، اقترح « اسرائيل جاليلى » تفويض مائير
وزير الدفاع سلطة استدعاء الاحتياطى ، واعلان التعبئة
العامة ، اذا تطلب الامر ذلك ..

وتقول مائير في اعترافها ، حول هذا الاجتماع : « كان من
واجبى أن استمع الى « انذار » قلبى ، وأستدعى الاحتياطى ،
وامر بالتعبئة »

.. ثم تصف شعورها ازاء هذه الخيبة ، بقولها : « لم يكن منطقيا أن أمر بالتعبئة مع وجود تقارير مخبراتنا العسكرية ، وتقارير قادتنا العسكريين ، التي لا تبررها ! لكنى - في نفس الوقت - أعلم تماما انه كان واجبا على أن أفعل ذلك ! وسوف أحيا بهذا الحلم المزعج بقية حياتى ! ولن أعود ، مرة أخرى ، نفس الانسان الذى كنته قبل حرب يوم كيبور »



وفي الساعة الرابعة من صباح يوم السبت ٦ أكتوبر ، تلقت مائير - كما تقول في اعترافاتها - معلومات « بأن المصريين والسوريين ، سوف يشنون هجوما مشتركا ، في وقت متأخر من بعد ظهر نفس اليوم »

وعلى الفور ...

عقدت مائير اجتماعا ثالثا لمطبخها السياسى ، جرى خلاله - من جديد - استعراض الموقف ...

ولكن - كما تقول مائير - « كان هذا اليوم ، هو اليوم الوحيد الذى خذلنا فيه قدرتنا الاسطورية على التعبئة بسرعة » !
ثم ...

اجتمعت مائير - عقب هذا الاجتماع - بزعيم المعارضة ، منحام بيجين .. واجتمعت بالسفير الامريكى في اسرائيل !

وعند الظهر، عقدت اجتماعاً للحكومة الاسرائيلية، للبحث في تعبئة قوات الاحتياطى ا
وفجأة .. وقبل أن ينتهى الاجتماع، فتح باب قاعة الاجتماعات، واندفع سكرتير مائير العسكرى نحوها، ليبلغها بأن الهجوم قد بدا ...
وتقول مائير: « وفي نفس اللحظة، سمعنا صوت صفارات الانذار في تل أبيب، وبدأت الحرب »

● ● ●

وتقول مائير في اعترافاتها :
« ليت الامر اقتصر على اننا لم نثلق انذارا في الوقت المناسب بل اننا كنا نحارب على جبهتين ، في وقت واحد ونقاتل اعداء ، كانوا يعدون انفسهم للهجوم علينا من سنين »
وتستطرد في اعترافاتها ،
● « كان التفوق علينا ساحقاً من الناحية العددية ، سواء في الاسلحة أو الدبابات أو الطائرات أو الرجال ..
● « ... وكنا نقاسى من انهيار نفسى عميق
● « ... ولم تكن الصدمة في الطريقة التي بدأت بها الحرب فقط ، ولكنها كانت في حقيقة ان معظم تقديراتنا الاساسية ثبت خطأها : فقد كان احتمال الهجوم في اكتوبر ضئيلاً .. وكان

يقيننا بأننا سنحصل على الانذار الكافى قبيل الهجوم .. وكنا
نؤمن بأن في استطاعتنا منع المصريين من عبور قناة السويس «

● ● ●

وتتحدث مائير - في اعترافاتها - عن اليوم الثانى للحرب ...
ماذا تقول ؟

« لا أظننى سوف أنسى ذلك اليوم الذى سمعت فيه اسوأ
التقديرات المتشائمة ! ففى عصر يوم ٧ أكتوبر ، عاد ديان من
احدى جولاته على الجبهة ، وطلب مقابلتى على الفور ، ليبلغنى
بأن رأيه : أن الموقف في سيناء قد وصل الى درجة من السوء ،
تحتّم علينا أن نقوم بانسحاب جذرى ، واقامه خط جديد
للدفاع ! وقد استمعت اليه في فزع !
ثم تقول :

« كان المصريون قد عبروا القناة ، وكانت قواتنا في سيناء قد
تعطبت .. وكان السوريون قد تغلغلوا في عمق مرتفعات الجولان
.. وكانت الخسائر على كلتا الجبهتين مرتفعة جدا .. وثار سؤال
قاتل : هل نبلغ الامة بمدى الحالة السيئة التى وصلنا اليها ؟
وكان تصورى بأننا يجب أن ننتظر قليلا ! ومع ذلك .. فقد كان
من الضرورى اعلان أى بيان !

« ... وهكذا تحدثت في بداية الحرب الى ابناء اسرائيل .. وكان هذا الحديث من أشق المهام في حياتي ، لاننى كنت أعلم بأنه لا يجب أن أقول كل الحقائق !

●●●

ومن بين ما تقوله مائير - في اعترافاتها - أن موسى ديان - وزير الدفاع الاسرائيلى وقتئذ - قد عرض عليها تقديم استقالته ٣ مرات ،

● المرة الاولى - في اليوم الثانى للحرب ، عندما جاءها ديان الى مكتبها ، وأغلق الباب خلفه ، ثم وقف أمامها يسأل : « هل تريدان أن أقدم استقالتي ؟ »

● والمرة الثانية - قبل وقف إطلاق النار الثانى عندما استقال وزير الدولة الاسرائيلى ، احتجاجا على عدم اقالة ديان .. فقد ذهب اليها ديان ، ليقول : « اذا كنت تريدين منى أن استقيل فأنا على استعداد »

● والمرة الثالثة - بعد صدور تقرير « لجنة اجرائات » الذى تضمن تحقيقاتها حول حرب أكتوبر .. وبالتحديد : في ٤ أبريل عام ١٩٧٤ .. عندما أبلغها ديان استعداده للاستقالة !

وتعقب مائير على استقالات ديان الثلاث ، قائلة : « اننى أعرف ماذا كان شعور ديان ! فقد كان متشابها الى حد كبير ،

طوال الايام الاولى للحرب ، وكان يريد أن يهيم الشعب
الاسرائيلي لمواجهة تدهور الموقف .



وتصل جولدا مائير في اعترافاتها الى اليوم الخامس للحرب ..
يوم الاربعاء ١٠ أكتوبر ، وهو اليوم الذى هرعت فيه الى الولايات
المتحدة تستنصرخها النجدة ..

ثم تشير الى حديثها مع السفير الاسرائيلي في واشنطن ، في
الساعة الثالثة صباحا ..

قالت مائير للسفير الاسرائيلي :

— أين الجسر الجوى لانقاذنا ؟ ولماذا لم يبدأ بعد ؟
ورد السفير :

— لا يمكننى يا جولدا أن اتحدث مع أى من المسؤولين ، الان
.. فالوقت ما زال مبكرا للغاية !

وصرحت مائير في غضب :

— لا يهمنى ما هى الساعة الآن ! أطلب كيسنجر حالا ! نحن

في حاجة الى النجدة اليوم .. لانها قد تكون متأخرة جدا غدا !

ثم تتحدث مائير عن الجسر الجوى الامريكى . فتقول :

— « أن هذا الجسر الجوى ، لا يمكن تقدير قيمته ! انه لم
يرفع روحنا المعنوية فقط ولكنه ساهم في توضيح الموقف

الامريكى ، أمام الاتحاد السوفيتى ! وساعدنا كثيرا من الناحية العسكرية ! وقد بكيت - لأول مرة منذ بداية الحرب - عندما علمت أن الطائرات الامريكية وصلت مطار الدد » .

• • •

وتعود مائير - في اعترافاتها - الى وصف حرب اكتوبر المجيدة ، فتقول : « لقد شنت علينا هذه الحرب ، بأسلحة مفزعة ، مثل الصواريخ المضادة للدبابات التى كانت تحيل الدبابات الى لهيب مشتعل » وتعجن « أطقمها داخلها ، الى درجة يستحيل معها التعرف على هوياتهم »

• • •

وبعد ...

فاننى أكتفى بعرض هذه المقتطفات السريعة من اعترافات جولدا مائير ..

وأترك للقارئ قراءة الاعترافات ، كاملة - وكما اعدّها الاستاذ عزيز عزمى خبير الشؤون الاسرائيلية ليعرف كل مصرى .. بل وكل عربى ، حجم النصر الذى تحقق ، ويزداد - مع الأيام - تقديرنا واعزازنا لأول قائد عربى استطاع أن يصنع النصر لامته ، واستطاع أن يعيد لكل عربى كرامته .

ممدوح رضا

تعليق

لمركز الدراسات الصحفية :

بقلم : عبد القادر السعدنى

مقدمة

هذا الكتاب على الرغم من أنه كتب كسيرة ذاتية للسيدة جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل السابقة وأحد المؤسسين النشطين لدولة اسرائيل .. فإنه يعد مرجعا هاما لتاريخ نشأة اسرائيل ، والصراع العربى - الاسرائيلى من وجهة النظر الاسرائيلية .

وقبل ان نناقش الدعاوى والمبررات التى أثارها الكتاب ، ننبه الى أن جولدا مائير راعت وهى تكتب هذا الكتاب أنه موجه - بالدرجة الاولى - الى القارئ الاوروبى والأمريكى ، ولهذا كتبتة وفق النمط الدعائى الاسرائيلى ، الذى يصف دولة اسرائيل بانها هذا الكيان الصغير - الذى لا حول له ولا قوة - المحاط بدول تناصبه العداء دون مبررات مقنعة ، وأن اسرائيل منذ الميلاد بل وقبله تسعى الى العيش في سلام مع جيرانها العرب .. لكنها كانت دائما تصطدم بنياتهم العدوانية التى لا ترضى بغير فناء شعبها بديلا !

ومع أن الاستراتيجية السياسية المصرية في المرحلة الراهنة تقوم على معالجة الصراع العربي-الاسرائيلي سلميا.. فان هذا لا يستقل أن الدعاوى الصهيونية مازالت قائمة ، وانه يجب مناقشتها بالرأى والحجة ووضعها في الاطار العلمى - التاريخى الصحيح .. ليس لاقناع الصهيونيين أو اليهود بفساد دعاويهم وبالتالي اقناعهم بالتخلى عنها انما الهدف هو أن تكون الرؤيا اكثر وضوحا أمام أبناء الشعوب العربية ..

وتتضح أهمية وضوح الرؤيا هذه ، في أنه في مرحلة ما بعد السلام ، وبعد أن تستتب الأمور ، سينشب ان أجلاً او عاجلاً صراع حضارى بين العرب والصهيونيين ، سيحاول فيه كل طرف استيعاب الطرف الآخر وترويضه للوصول الى مصالحه ومخططاته المبيتة .. ولن يقتصر هذا الصراع على الحكومات لكنه سيوجه بالدرجة الاولى الى الشعوب ، وستكون اولى مراحل محاولته قهرها فكرياً ثم غزوها ثقافياً فإقتصادياً ..

لذلك وغيره .. فان من الاهمية القصوى ان تنشط مراكز البحث المتخصصة والمثقفون لدراسة الفكر الصهيونى دراسة دقيقة ، والكشف عن مخططاته في مرحلة ما بعد السلام ، حتى لا نفاجاً بها ، كما فوجئنا باعلان دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ واندفاعنا الى حرب لم نكن مستعدين لها وبالتالي كانت سبباً في كل الويلات المتلاحقة التى عانتها شعوبنا ولا تزال تعاني آثارها .

الدعوى الاولى : اليهود اختاروا الله :

المعروف ان الحركة الصهيونية تقوم على فكرة عودة الشعب اليهودى الى أرض آبائه - الى أرض اسرائيل كما يقال عنها في العبرية - وتقول جولدا مائير : « لكن الجميع حتى الآن ربما لم يدركوا أن هذه الحركة الرائعة (١) انبثقت تلقائياً قرابة نهاية القرن التاسع

عشر ، وفي مختلف ارجاء اوربا في نفس الوقت تقريبا ... فقد كان ما أسموه بالمسألة اليهودية وحقيقتها بالطبع هي المسألة المسيحية ، نتيجة أساسية لكون اليهود بلا وطن ، وأنها لن تحل الا اذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم ، وكان واضحا أن هذا الوطن لا يمكن الا ان يكون أرض صهيون ، الأرض التي نفى منها اليهودية لآل الفى عام ، والتي ظلت مع ذلك مركزا روحيا لليهودية عبر القرون ، وعندما شنت طفلة كانت هذه الأرض وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين .

تقصد جولدا مائير بما أسمته بالمسألة المسيحية ، اعتقاد المسيحيين ان اليهود هم قتلته السيد المسيح ، وبالتالي اضطهاد الاولين للاحيرين .. لكن ألم يكن الأخرى بجولدا مائير أن تتساءل وهي تكتب عن اضطهاد الشعوب وخاصة الاوربية لليهودها ، عن الأسباب الحقيقية لهذا الاضطهاد ؟

لا شك أنها تعلم علم اليقين ان الخلافات الدينية ليست هي السبب الرئيسي لهذا الاضطهاد ، لكن هناك أسباب أخرى لعل أوضحها ما عبرت عنه هي نفسها عندما قالت : « لا أختلط الا باليهود ، ولم يكن لى صداقات مع غير اليهود ، وبقيت على هذا النحو طيلة عمري » -

والمثير للدهشة أن غالبية زعماء الحركة الصهيونية ، نحوا منذ نشأتهم هذا المنحى .

فمثلا « بيرل كاتز نلسون » الذي تعتبره جولدا مائير الزعيم الروحي والقائد الموجه للحركة العمالية الصهيونية بلا منازع ، كان يكره الاختلاط بالآخرين الى حد أنه كان يكره الذهاب الى مكتبه عندما كان يشغل منصب سكرتير عام الهستدروت //

وين جوريون الذي قالت عنه جولدا مائير : « ان كلمتى « اسرائيل » و « بن جوريون » سترتبطان سويا ربما الى الابد في

أذهان الناس .. هذا الرجل وصفته جولدا مائير بأنه « لم يكن من السهر ان يكون الانسان قريبا اليه ، بل لا أعتقد انه كان قريبا لأحد فيما خلا زوجته باولا وابنته ريناتا .. ، فما لم يكن لديك عمل معه فلن تراه ، لم يكن يحتاج الى الناس مثلنا .. كان لديه اكتفاء ذاتي .. لكنه ايضا كان لا يعرف شيئا عن الناس .. » !!



اذن فما أسمته جولدا مائير بالمسألة المسيحية ، هي في الحقيقة المسألة اليهودية ، هي قضية انزواء اليهود على انفسهم وانفصالهم عن شعوبهم وأوطانهم .. ثم تسرب الاحساس بالعزلة الى نفوسهم ، وما يتبع هذا الاحساس من ردود أفعال سلوكية واقتصادية مضادة بحثا عن الحماية والقوة .. فانه من غير المنطقي أن تتفق غالبية الشعوب الاوربية المسيحية على اضطهاد أفرادها اليهود ، لمجرد أنهم يهود او بحجة أنهم المسؤولون عن سفك دم السيد المسيح .. لسبب بسيط هو أن أوروبا ما بعد عصر النهضة قد تجاوزت مرحلة سيطرة الفكر اللاهوتي ، ولم يعد يشغل ساستها وزعماءها الانتقام من اليهود الذين سفكوا دم السيد المسيح .. لكن كان يشغلهم سيطرة اليهود على اقتصاد دولهم والتعامل بما يتنافي مع واجبات المواطنة ..

الأجدر بزعماء الصهيونية العالمية أن يدرسوا لماذا قتل هتلر ما قتل من اليهود ، ولماذا كان يغير القوقاز على مراكز التجمع السكنى لليهود في روسيا القيصرية وغيرها من التجارب أو المحن التي مر بها اليهود في أوطانهم الأصلية بدلا من تركيزهم على مظاهر الاضطهاد ، فقد تفيد تلك الدراسات « شعب » اسرائيل في علاقاته مع جيرانه العرب في مرحلة ما بعد اتفاقية السلام .

أما قول جولدا مائير ان حل المسألة اليهودية لن يكون الا اذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم ، وكان واضحا أن هذا الوطن

لا يمكن الا أن يكون أرض صهيون التى كانت على حد قولها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين .. فان هذا الادعاء مردود عليه بأن فلسطين لم يكن شعبها - في يوم من أيام التاريخ - بالكامل من اليهود او من العبرانيين .

فالثابت تاريخيا ان المنطقة بين شرق الاردن وحتى سوريا كانت تقطنها قبائل عديدة لم يتوافر لأى منها العناصر التى تجعلها قومية واضحة المعالم .. وقد اجمع المؤرخون على أن بنى اسرائيل كانوا من البدو الرعاة البسطاء ، بدأت صلتهم بمصر عندما سمح لهم بدخول شرق الدلتا « ليظلوا أحياء ، وتظل ماشيتهم حية » ، وتشير أحد النصوص الفرعونية القديمة الى انه كانت هناك أيام خاصة يستطيع فيها هؤلاء الاسرائيليون البدو أن يدخلوا بين استحكامات الحدود لترعى ماشيتهم .



ويقول المؤرخ الامريكى جون ويلسون في كتابه « تاريخ مصر القديمة » :

الأفراد الذين تكونت منهم فيما بعد الأمة العبرية وأخذوا يتقاسمون مصيرا واحدا - وكان يهوه يعمل من أجلهم - أتوا من شعوب مختلفة ، ولكن كانت تجمعهم صلات خاصة فقد أتوا الى مصر كأسرى يعملون فيها ..

وكان بعضهم مثل « الخبيرو » قد ذاقوا لذة الانتصار عندما تمكنوا من عبور نهر الأردن واستولوا على أرض كنعان في أيام العمارنة بمصر ، وعند إعادة بناء الامبراطورية في أيام سيسى الأول ورمسيس الثانى عاد اكثرهم فخضعوا للحكم المصرى .. وجيء ببعضهم الى مصر كأسرى

وأخيرا نجح فريق صغير من بينهم في الخروج من مصر ، وذلك بأن خادعوا فرعوناً من الفراعنة ، وهربوا الى صحراء سيناء ، وكان ذلك الفريق هو اكثر العبرانيين تمصرا ، وكانت أسماء بعضهم أسماء مصرية مثل : موسى ، هدهدى ، فنهاس ، يوتى ، ايل ، ومن هؤلاء تكونت قبيلة اللاويين الذين وصلوا الى كنعان فيما بعد ، وقد جاء شعب كنعان يحملون ديانة جديدة لإله واحد للجبل والصحراء ، وقالوا انه هو الذى اتقدهم من العبودية في مصر .

وفي غمرة الحماس الدينى أخذت شعوب كنعان المختلفة تتحد فكونت تلك الوحدة الضرورية لتكوين شعب واحد ، وأصبح هذا الشعب قادرا على جمع تجاربه المختلفة ، فجعل منها تجربة واحدة كبيرة قائمة على حماية « يهوه » لهم ورضاه عنهم .

ومرت عليهم بضعة قرون وهم يعيشون حياة مستقرة في أرض كنعان ، ومرت ديانتهم بتقلبات الحضارة قبل أن يبحثوا عن أساليب في التعبيرات تشابه ما كان يستخدمه المصريون .

وقد عقد العلامة المؤرخ برستيد في كتابه « تاريخ مصر » مقارنة ليوضح الصلة بين ديانة الفرعون المصرى اخناتون وديانة العبرانيين (اليهودية) ولينتهى الى التشابه بين نشيد اخناتون للإله آتون وبين المزمور ١٠٤ ، مع ملاحظة أسبقية ديانة اخناتون على ديانة العبرانيين بعدة قرون .

ونحن نختار ثلاث فقرات لتوضيح هذا التشابه الكبير .

المزمور ١٠٤

عندما تغرب في الافق الغربى
تجعل ظلمة فيصير ليلا
فيه يدب كل حيوان الوعر
الأشبال تزمجر لتخطف
الشمس فتجتمع وفي قوايها تربص

نشيد آتون

وعندما تغرب في الأفق الغربى
تظلم الأرض كالموت
ويخرج كل أسد من عرينه
وكل ما يزحف ، انها تلدغ
وعندما يطلع النهار وتشرق

في الافق .. تسوق الظلام بعيدا	الانسان يخرج الى عمله .
يستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم	والى شغله في المساء
جميع من في الكون يعملون عملهم	ما أعظم أعمالك يارب
ما اكثر أعمالك ..	
انها تخفى عن نظر الانسان	كلها بحكمة صنعت
أيها الاله الأوحده ، الذي لا مثيل له	ملانة الأرض من غناك
لقد خلقت الأرض حسب مشيئتك	

وقد قال بعض الباحثين ان هذه التعبيرات المتشابهة تدل على الاشتقاق ، وأن واضع المزامير العبري كان يعرف نشيد آتون (الشمس) ، وقد قيل انه على الرغم من أن الديانة الاتونية (نسبة الى آتون) تم القضاء عليها قبل كتابة المزامير بستة أو سبعة قرون ، فلا بد أن نشيد آتون قد وجد طريقه الى آسيا عندما كان اخناتون في الحكم ، وانه نجا من القضاء عليه عندما ترجموه الى احدى اللهجات السامية .

اذن فلسطين لم تكن ابداء عبرانية ، وإن العبرانيين كانوا شيئا آخر مختلفا تمام الاختلاف عن الفلسطينيين ، بل ان هؤلاء العبرانيين بعد أن غزوا أرض كنعان وبعد أن استقرت لهم الأمور ، اختلطوا بالكنعانيين وحدث تزاوج بينهم مما ينفي الصفة العبرانية الكاملة عن كل يهودي سواء كان شرقيا أو غير شرقى .. بل ان اللغة اليبديش التي يتكلمها بعض غلاة اليهود الاوربيين هي شيء آخر غير اللغة العبرية التي يتكلمها اليهود الشرقيون. الذين أجبرهم الحاخامات على تعلمها لانها لغة التوراة والصلاة

بعد ذلك هل يمكن أن نتقف وحدة الديانة كعامل حاسم على وجود قومية أو شعب ؟!

ان كان الأمر كذلك لانقسمت شعوب العالم الى قوميات حسب الديانات التي تعتنقها فقط ، ولظل العالم الانساني يعاني ويلات

التعصب المقيت .. اذن لماذا يعجيز زعماء الصهيونية ما هو غير جائز ولا يمكن لأصحاب الديانات الأخرى ١١٩



ومما يدل ايضا على أن الفكرة الصهيونية لا تمت الى وقائع التاريخ أو الدين اليهودى بصلة .. وأنها مجرد فكرة سياسية حشد لها المفكرون الصهيونيون الأسانيد وبعضها مزور منتهزين عدم اهتمام الرأى العام الاوروبى والأمريكى بل وجهله بتاريخ بنى اسرائيل فى الشرق وحقيقة صلتهم بفلسطين .. أن بن جوريون نصح جولدا مائير بعد بزوغ نجمها ان تغير اسمها الروسى « جولدا موسى اسحق مابوفتش » الى جولدا مائير العبرى ، وقد جرى نفس المجرى الكثير من الزعماء الاسرائيليين حتى يتقنوا اللعبة السياسية الصهيونية ! وهذا ما تكشفه الكثير من اليهود واعترفت به جولدا مائير ، فهم تقول : « كنت أعلم ان كلارا (أخت جولدا مائير) لن تأتى الى فلسطين (قبل اعلان اسرائيل) لشعورها أنها تنتمى الى الولايات المتحدة الأمريكية ، أما فريد (زوج كلارا) فقد أوضح لى انه يعارض كل أشكال المقومات (الدينية) وأنه ينظر الى الصهيونية على أنها حركة رجعية الى أقصى الحدود »

بل انها كتبت تقول عن زوجها موريس : « كان بطبعه العاطفى أقل تأكدا من الصهيونية منى ، فكان يحلم بعالم يسوده السلام ، أما الحكم الذاتى القومى فلم يكن يستثيره ، ولم يكن يعتقد أن دولة ذات سيادة يمكن أن تخدم اليهود »

وكعادة كل الفلسفات والافكار العنصرية ، فقد لجأت الصهيونية الى ترويج فكرة ان اليهود هم شعب الله المختار ، ولان الفكر المتحضر يرفض الفكر العنصرى الرجعى ، فان جولدا مائير تفضل أن تصف اليهود بقولها : « اليهود أول شعب اختار الله ، وأنهم أول شعب فى

التاريخ يفعل شيئاً ثورياً ، وكان اختيارهم هذا هو الذى جعلهم شعباً
فريداً في نوعه »

وحتى هذا الوصف الأخير نعتقد أنها أخفقت فيه بعد الاسانيد
التاريخية التى ساقها كل من جون ويلسون - رغم تعاطفه في كتاباته
مع الفكر الصهيونى - وبرستيد

الدعوى الثانية : وعد بلفور واسرائيل

عندما تحدث الرئيس انور السادات في الكنيست الاسرائيلى عن
أهمية وعد بلفور في اقامة دولة اسرائيل .. أبدى مناحم بيجين رئيس
الوزراء وزعيم كتلة ليكود الاسرائيلية .. بعض التحفظات وقال ان
هذا الوعد لم يكن له كل هذه الأهمية .. فهو لا يخرج عن كونه
وعداً .. أما الحقيقة الثابتة فهي ان اسرائيل تم تحريرها بنضال
الاسرائيليين ..

ونرد على ما ساقه مناحم بيجين بما كتبته جوليا مائير نفسها ..
فهي تقول : « وافق مؤرخين » - تعنى خطيبها ثم زوجها - على الذهاب
معى الى فلسطين ، رغم تحفظاته حول فلسطين ، ولا ريب أن قراره قد
تأثر الى حد ما باعلان الحكومة البريطانية في عام ١٩١٧ تأييدها
لاقامة وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين . وأنها سوف تستخدم
مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف . وقد جاء تصريح بلفور - كما
سمى لكونه مهموراً بتوقيع جيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا
انئذ - في شكل رسالة موجهة الى اللورد روتشيلد .

وقد جاء في الوقت الذى كانت قوات الجنرال اللنبي قد بدأت
تغزو فلسطين . وبرغم أن العبارات الغامضة التى جاءت في هذه
الرسالة كانت مسئولة عن اراقة الدماء بلا نهاية في الشرق الاوسط ،
فان الصهيونيين في تلك الأيام رحبوا بها باعتبارها على الاقل ارساء
لقواعد الكومنولث اليهودى في فلسطين . ومن البديهي أن هذا الاعلان

ملانى بالبهجة .. لقد انتهى النفى اليهودى .. ولا شك أننى وموريس سوف نكون من بين ملايين اليهود الذين سيتدفقون على فلسطين "



وعلى الرغم من أن جولدا مائير كتبت فصلا في هذا الكتاب تحت عنوان « الكفاح ضد البريطانيين » فان الصهيونية نجحت في نقل ٧٠ الف يهودى اوروبى الى فلسطين، كما أن الرئيس الأمريكى السابق هارى ترومان طلب من بريطانيا ان تسمح بدخول مائة ألف يهودى اوروبى آخرين الى فلسطين في عام ١٩٤٦، وعندما كانت تحجز بريطانيا سفنا تحمل المهاجرين اليهود الى فلسطين، فانها كانت تفعل ذلك ذرا للرماد في عيون الحكام العرب، اذ سرعان ما كانت تفرج عن تلك السفن وتصل الى فلسطين بحمولاتها ا

الواضح أن حكومات أوروبا وأمريكا كانت تسمح بهجرة الأفراد اليهود من شعوبها، ليس على سبيل الشفقة والرحمة او اقتناعا بالفكر الصهيونى، انما لتتلاقى أهدافها الاستعمارية مع الاهداف الصهيونية ثم لحل « المسألة اليهودية » أو المشاكل التى يسببها تتوقع اليهود على انفسهم داخل بلادهم .

فهل من الشفقة والرحمة فقط ان تجمع جولدا مائير من أمريكا على مدى اسبوعين أو ثلاثة وقبل نشوب حرب ١٩٤٨ خمسين مليون دولارا، لشراء السلاح، بينما كان الهدف جمع ٢٥ او ٣٠ مليونا فقط، وهل من الشفقة والرحمة أيضا ان تجمع ١٥٠ مليون دولار أخرى من أمريكا لحساب التسليح بعد توقيع الهدنة الاولى عام ١٩٤٩ بين العرب واسرائيل بينما كان الهدف جمع ٥٠ مليون دولار فقط ؟!

ان أوروبا والولايات المتحدة حلت المسألة اليهودية بخلق المسألة الفلسطينية التى تلاقى وجودها مع أهدافها في المنطة العربية ..

فالقول بأن أمريكا وأوروبا زرعا اسرائيل زرعا في المنطقة العربية
لا سباب امبريالية قول لا مغالاة فيه .

لكن هل تستطيع اسرائيل ان تنفصل عن تلك الاهداف والاسباب
وتعيش في سلام حقيقى مع العرب ١٩

الدعوى الثالثة : الارهاب العربى

في عبارة غامضة كتبت جولدا مائير عن الياهو جولب (قائد
الهاجاناة منذ ١٩٣١ - ١٩٤٥) تقول : « لعله مما يدعو الى المارة أن
اكتب عن الياهو جولب في عالمه اثر أن بضفى رونقا على الارهاب
العربى ، وأن يدخل الى هيئة الامم المتحدة رجلا مثل ياسر عرفات
الذى لا يملك فكرة بناء واحدة ، او تصرفا يحسب لصالحه ، والذى
بصراحة ووضوح ليس الا مجرما عتيدا ، يرأس حركة كرسست نفسها
فقط لتدمير دولة اسرائيل ، وانه لايمان عميق لدى - بل وعزاء - ان
بنور فشل الارهاب العربى تكمن في مفهوم الارهاب نفسه » .

شتان طبعا بين الارهاب كارهاب الذى ندينه ونرفضه كخطف
الطائرات المدنية وقتل المدنيين الابرياء .. وبين الصاق صفة الارهاب
بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وبالتالي شتان بين الارهابى الياهو
جولب قائد الهاجاناة وبين ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير
الفلسطينية ..

فالهاجاناة وكانت التنظيم العسكرى للحركة الصهيونية ، تاريخها
حافل بالارهاب وقتل الفلسطينيين الابرياء لدفع الآخرين الى الفرار
وترك ديارهم وأملاتهم .. وهى التى دبرت ونفذت قتل الكونت
برنادوت مبعوث الأمم المتحدة الى فلسطين .

أما منظمة التحرير الفلسطينية فهى التى أخذت على عاتقها حل
« المسألة الفلسطينية » سياسيا وعسكريا ، ولا يمكن أن يدين أحد
قيام منظمة جماهيرية تعمل على استرداد حقوق شعبها المغتصبة .

ولعل هذا هو ما يؤرق الزعماء الصهيونيين .. اذ انه يهمهم بالدرجة الأولى ان يتعاملوا مع الشعب الفلسطيني كأفراد ، وليس مع منظمة تتحدث باسم الشعب ككل ..

الدعوى الرابعة : دائما مختلفون :

دائما التاريخ يعيد نفسه بالنسبة للأسلوب الذى تعالجه به الحكومات العربية القضية الفلسطينية . فبعد هزيمة ١٩٦٧ اجتمع الملوك والرؤساء العرب في الخرطوم وانتهوا الى : لا صلح ، لا مفاوضة ، لا اعتراف باسرائيل .

ومعنى ذلك انه لا سبيل الى استرداد الاراضى العربية المحتلة إلا بالحرب ، ومعاملة اسرائيل على أنها كيان غير شرعى ويجب تصفيته .. أما كيف ؟ فطبعاً بالقتال .

لكن عندما اتخذ الملوك والرؤساء العرب قرارهم هذا ، هل استقرأوا فيه الظروف والعلاقات الدولية في ذلك الوقت ، والاكثر من ذلك ، هل كانت العلاقات الشخصية بين غالبيتهم تسمح بوجود تضامن عربى حقيقى يمكن ان يؤدى الى النكسر الافتصادى والسياسى والعسكرى بين دولهم لتنمية القوة الذاتية العربية للقضاء على اسرائيل ؟

الحقيقة التى كان يعلمها الجميع أنه حتى الاتحاد السوفيتى الذى كان الحليف الأول لمصر وسوريا ومنظمة فتح كان تأييده يقف عند حد استرداد الاراضى المحتلة بعد عدوان ١٩٦٧ ، اما اذا تجاوزنا ذلك فلا شك أنه كان سيقف مسانداً اسرائيل .. فما هى المبررات التى جعلت مؤتمر القمة بالخرطوم ينتهى الى اللاءات الثلاثة ؟

تقول جولدا مائير : « وصلت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين الى البلاد في مايو ٤٧ ، وكالعادة رفض العرب التعاون معها باى شكل من الاشكال ، بينما تعاون معها الجميع ، وقضيت وقتاً طويلاً مع

أعضاء اللجنة الأحد عشر ، وأفرغنى جهلهم بحقائق الموقف والتاريخ ، وتحتم علينا أن نشرح لهم بسرعة » .

وطبعا استأثر الاسرائيليون بالشرح لاعضاء لجنة الأمم المتحدة في غيبة الفلسطينيين وممثلى الدول العربية ، وبالتالي حاز اقتراح التقسيم على اغلبيه سبعة أعضاء .. وكعادة الحكومات العربية رفضت هذا الاقتراح ..

وظل الملوك والرؤساء العرب يتوارثون الرفض دون تقديم حلول ولو مرحلية ، حتى تفاقمت الأمور ولم تعد هناك وسيلة للحل سوى الحرب !



وأخيرا - وبعد حرب ١٩٧٣ - انتهى مؤتمر القمة العربى بالرباط الى الاعتراف بالواقع الدولى ووافق على مبدأ التفاوض مع اسرائيل مع تحديد استراتيجية واضحة للعمل العربى .. وعندما اتخذ الرئيس السادات مبادرة السلام لتحريك الجمود الذى طرأ على الاعداد لمؤتمر جنيف .. ارتد الزعماء العرب الى موقف الرفض ، بينما كان الأحرى بهم ان يشجعوا المبادرة طالما وافقوا على مبدأ التفاوض مع اسرائيل ، بدلا من استسلامهم للحلقة المفرغة التى عادت القضية اليها ثم ركونهم الى السلبية .



ان هذا الكتاب على الرغم من أنه - كما قلنا - سيرة ذاتية لجولدا مائير ولنشأة اسرائيل .. فانه يعد فى الوقت نفسه إدانة للأسلوب الذى اتبعته الحكومات العربية فى معالجة القضية الفلسطينية ، ذلك الأسلوب الذى اتسم بالتشدد دون ان توفر المقومات التى تمكنها من

فرض ارادتها ، كما أنه يخبىء في كثير من جوانبه ان بعض الزعامات العربية كانت وهى تفكر في حلول للقضية ، كانت تفكر بمعزل عن التأثيرات الدولية على القضية سلبا وايجابا ، في حين اتخذت زعامات أخرى من القضية شماعة لتبرر استمرارها في حكم شعوبها بالحديد والنار ، او لادانة او كبت الأصوات الحرة التى تطالب بالخروج من حلقة التخلف التى عشناها طويلا باسم : ألا يعلو صوت فوق صوت المعركة .

مرة أخرى اننا لا يجب ان نسلم بكل وجهات النظر التى أثارتها جولدا مائير ، لأن كل ما كتبتة هو تعبير عن الفكر الصهيونى الذى لم يخلج عن ثنى الكثير من الحقائق لخدمة أهدافه .

عبد القادر السعدنى

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

بقلم : عزيز عزمى

هذه قصة حياة جولدا مائير .

المرأة التى وصلت في السلم السياسى في اسرائيل إلى منصب رئيسة الوزراء ... ثم وصلت حياتها السياسية الطويلة إلى خاتمتها أثر انقشاع دخان حرب أكتوبر المجيدة (حرب رمضان) ١٩٧٣ .. بعد أن حطمت أقدام الجندى العربى الشجاع حصون الذل والعار .
ونحن نقدم قصة حياة هذه المرأة ، تماماً كما كتبتها باللغة الانجليزية في ٣٨٨ صفحة تحت عنوان My Life

• • •

ولقد قدم مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر - في العام الماضى - ترجمة لقصة حياة موسى ديان ، وزير خارجية إسرائيل الحالى ، ووزير دفاعها السابق ، وكان عنوانها باللغة العربية « ديان يعترف » .

ونحن نعتقد أن هذا الكتاب الذى نقدمه اليوم تكملة واستكمال لقصة حياة موسى ديان . فهذان الكتابان لا يصوران فقط دقائق حياة رجل وامرأة (هما موسى وجولدا) . وإنما هما في النهاية ، وفي

واقع الأمر ، بمثابة « سيرة » و« تأريخ » للعمل الصهيونى الدعوى ..
على أرض فلسطين ، وفي خارجها .

ولعله مما يزيد في اقتناعنا بأن الكتابين مكملان لبعضهما ، أن
جولدا مائير تحكى عن بعض اليهود الذين جرى اسقاطهم خلف
خطوط النازى في الحرب العالمية الثانية ، فاذا بهم هم نفس الأشخاص
الذين تحدث عنهم موسى ديان في كتابه من قبل . فإذا قيل أن ذلك
قد يكون من قبيل الصدف ، فهل هو من باب الصدفة أيضاً أن كتاب
جولدا مائير صادر عن دار النشر الانجليزية Weiden Feld 2 Nico-Isor
وهى نفس دار الطباعة التى نشرت من قبل كتاب موسى ديان ؟ !!



ولقد كانت هناك أمام ناظرنا عدة منطلقات وعوامل ، وضعناها في
اعتبارنا اعتماداً ترجمة واعداد هذا الكتاب .

● أولها : اهتمامنا بتوسيع آفاق المعرفة والادراك أمام القارئ ،
وخاصة في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية .

● وثانيها : ان الكتاب يضم قصة حياة واحدة من أبرز شخصيات
اسرائيل ، ولأننا عندما خضنا معركة استرداد الكرامة في السادس من
أكتوبر (رمضان) ١٩٧٣ قد حططنا جدار الخوف ... فإن هذا العدو لم
يعد يرهبنا .. وأصبح واجباً علينا أن نفهمه ونعيه في حجمه
الصحيح .. وليس هناك ما يحقق هذا الغرض خيراً من أن ندرس
شخصيات القادة الذين حكموه وسيروا أموره ، وفي مقدمتهم جولدا
مائير .

● وثالثها : ان جولدا مائير هى رئيسة الوزراء التى كانت تتربع
على قمة السلطة في إسرائيل عندما نشبت حرب أكتوبر (رمضان) .
وإذا كانت دراسة ابعاد هذه الحرب واحدة من أهم واجباتنا ، فإن أهم

هذه الأبعاد هي الصورة الحقيقية والفعلية للعدو عندما فوجيء بالمدار
العربي الجبار وهو يدك قلاع وحصونه المنيع في شجاعة مذهلة ..
ونحن نعتقد بإخلاص أن ما كتبتة جولدا مائير عن حرب يوم كييبور
(يوم الغفران) ، واستهلتة بقولها ان تلك الأيام كانت أقسى أيام
عمرها ، أمر جدير بأن ندرسه جيداً .. وبعمق ..

● ورابع هذه العوامل : ان هذا الكتاب يعرض تاريخ حياة واحدة
من أكثر الناس وأشدهم حقداً على العرب ، وانكارا لحقهم في أرض
فلسطين . افليست هي التي قالت « انه لا يوجد شعب اسمه الشعب
الفلسطيني » ؟ .. بل انها في هذا الكتاب تصف صهاينة عتاة أمثال بن
جوريون واسحق بن زقي بأنهم « هم الفلسطينيين » .

● وخامسها : ان الكتاب يرسم صورة للمخطط المنظم
والجهود المتواصلة التي بذلتها الحركة الصهيونية من اجل السيطرة
على أذهان يهود العالم ، ودفعهم للهجرة إلى فلسطين ، ثم احتلالها
وانشاء « الدولة » فيها .

ويكاد المرء لا يستغرب أن يكون « العدوان » والنزعة العدوانية
هي السمة الأساسية في المجتمع الإسرائيلي الذي قاده زعماء أمثال
جولدا مائير ، التي تصف أياها في الفصل الأول من الكتاب بأنه
« طيب » ولذا فهو في نظرها « فاشل » .



غير أن قراءة هذا الكتاب تشبه المشي على الشوك حافياً .. فهي
تحتاج إلى الكثير من الحرص والوعى والادراك المتفتح ..
إذ أن جولدا مائير قد وضعت فيه كل الادعاءات والأباطيل
الصهيونية الكاذبة .

ولو كنا غير امناء لحذفنا كل هذه الادعاءات والأكاذيب ، لكننا نطرحها كما هي ، وبألفاظها وأوصافها التي كتبتها بنفسها ، انطلاقاً من الثقة الهائلة التي استردها لنا الجندي العربي وهو يعبر بأقدامه حصون العدو المنيع في حرب العاشر من رمضان المجيدة .

وحتى يسهل على القارئ العربي عبور بحر الأشواك الذي يضمه هذا الكتاب ، فإننا نستمححه عذراً في أن نقدم له بعض الملاحظات حول ما سوف يقابله في كل فصل من فصول تلك القصة التي كتبت بأسلوب روائي اختلطت فيه السيرة الشخصية ، بتفاصيل العمل الرسمي ، بوقائع الاستيلاء على الأرض والوطن من أصحابها الشرعيين .

ومجموعة الملاحظات هذه راعينا فيها أن نضع يد القارئ على السموم الكثيرة التي حفل بها الكتاب ، وأن « نتصيد » بعض المواقع التي يمكن فيها مهاجمة جولدا مائير وافحامها بنفس كلماتها أو تفنيد ادعاءاتها .. فصلاً فصلاً .



في الفصل الأول :

● المدخل إلى الكتاب رهيب .. فهو يتحدث على لسان جولدا « الطفلة » عن المذابح البشعة وانتظار الموت .. وهو الأسلوب الصهيوني الذي يستدر عطف الناس ويستجدي تعاطفهم مع اليهود في « محنتهم » .

● وجولدا لا تقبل القول بأن اليهود هم شعب الله المختار ، وإنما ترى أن اليهود هم الذين اختاروا الله !!

● وهى تبرر احقية اليهود بفلسطين على أساس انهم قد نفوا منها منذ ٢٠٠٠ عام .. ولو أن هذا المنطق المعوج ساد لكان من حق العرب أن يعوّذوا إلى اسبانيا .. بل ان هذا السبب كفيلا بإعادة الفلسطينيين إلى ارضهم فهؤلاء قد طردوا منها منذ ٢٠ عاما فقط ، لا الفين .

● وتنفى جولدا في حديثها واحداً من الادعاءات الصهيونية التى كانت تحاول ايها العالم بأن المذابح التى جرت في روسيا القيصرية كانت هى السبب في هجرة اليهود الى فلسطين . « وشهد شاهد من أهلها » .

● ● ●

في الفصل الثانى :

● النزعة التجارية لدى اليهود واضحة .. فأما جولدا لا تعرف كلمة انجليزية واحدة ، ولا عملت في دكان من قبل ، ولا تدرى شيئاً عن السوق ، ومع ذلك فإنها بعد اسبوع من وصولها إلى ميلووكى تفتتح دكاناً .

● واذا كانت جولدا تتحدث عن مساعى انشاء اسرائيل ، فإنها تحكى عن الوطن القومى اليهودى الذى يريد الصهاينة (ان يخلقوه) في فلسطين .. أى أنه شيء مزروع .. دخيل .. وغير موجود اساساً . بل انها تقول أن أبرز شاعرة عبرية لم تكن تعرف حرفاً عبرياً واحداً عندما جاءت إلى فلسطين .

● ● ●

في الفصل الثالث :

ان رئيسة وزراء اسرائيل ، التي كانت تصدر القرارات بهدم اى بيت عربى يساعد فدائيا فلسطينياً ، قد نشأت في بيت كانت امها فيه تفتح الأبواب لايواء واعداد اى يهودى يهاجر إلى فلسطين للانضمام للفيلق اليهودى .

● وهى - كعادتها - تلوى الحقائق فتقول ان بن جوريون وبن زقى فلسطينيان .. في حين انهما ولدا من اباء مهاجرين إلى فلسطين ..

● وتتعترف بأنها لم تعرف او تخالط سوى اليهود في ميلووكى ، ولم يكن لها اصدقاء من غير اليهود ، وانها ظلت على هذا النحو طيلة حياتها . وليس بعد ذلك من دليل على العنصرية المتأصلة فيها .

● ثم لماذا لم يقبل طلب جولدا للالتحاق بالفيلق اليهودى ؟ لأن المخطط الصهيونى كان يقضى في البداية بتجنيد الرجال فقط لكى يقاتلوا في فلسطين مع البريطانيين ، وبعدها يقاتلون لتحقيق الوطن القومى .

وتتعترف جولدا بأن وعد بلفور ليس سوى (مجرد خطاب) من وزير خارجية بريطانيا إلى الشرى اليهودى روتشيلد .. أى أنه مجرد ورقة لا تمثل وثيقة ولا تلزم احدا اخر بها ، أو كما وصف « لقد أعطى من لا يملك وعداً لمن لا يستحق » .

● وهى تصف انطباعها عن أول مرة تشاهد فيها (الشرق الأوسط) فترسم صورة جموع الشحاذين بأسمالهم البالية والذباب يغطيهم . الغريب أن يصدر هذا الوصف منها وهى التى جاءت إلى المنطقة لا تملك شروى نقير ومرض السل يفتك بها . ولا يجب أن يغيب عن اذهاننا انها في كتابها تخاطب العالم الغربى ، ومن هنا فهم تريد

تشويه صورة المنطقة ليسهل عليها بعد ذلك وصف « المحضرة
والتمدن » اللذين جاءا للمنطقة مع مجيء اليهود المهاجرين .

في الفصل الرابع :-

● حتى المهاجرين (الرواد) الأوائل ، هاجر بعضهم تاركاً فلسطين
بعد أن قضى فيها عامين .. وذلك دليل على فشل المخطط الصهيوني
منذ بدايته .. ولا ننسى ان الهجرة المضادة من اسرائيل إلى الخارج
حتى الآن لا تزال قائمة وباعداد كبيرة .

● الحديث عن الشجرة الصغيرة التى تنبت وسط الصحراء ،
مقصود ، لانها تحكى بعد ذلك كيف قررت هى وزملاؤها مغادرة
الفندق الذى اقاموا فيه لكى يضربوا جذورهم في الأرض مثل
الشجرة .

● تطالب جولدا باسقاط ما تسميه بالادعاء بأن اليهود سرقوا
أرض فلسطين . لماذا نسقط هذا الادعاء ، وهى نفسها تقول ان اليهود
كانوا يشترون الأرض بالمال منذ ١٩٠٥ ؟

● تتولى جولدا مائير الرد على من يدعون أن الفلسطينيين باعوا
أرضهم لليهود ، فهى تقول ان كل أراضى وادى جزريل قد تم شراؤها
من عائلة واحدة غنية كانت تقيم في بيروت .. اذا فلم يبيع
الفلسطينيون أرض بلادهم ، والدليل على ذلك أن تقرير حكومة
الانتداب البريطانية عام ١٩٤٦ يؤكد أن كل ما اشتراه اليهود من
أرض فلسطين حتى ١٩٤٥ لم يتعد ٥,٦ ٪ من مجموع أراضى فلسطين ،
برغم الاسعار العالية التى كان اليهود يعرضونها لشراء الأراضى .

في الفصل الخامس :

● هذه صورة المجتمع اليهودي في فلسطين : تحصل جولدا على سند قيمته ١٠٠ قرش ، يأخذه منها البقال ويعطيها سندات قيمتها ٨٠ قرشا ، تبيعها بعد ذلك إلى بائعة الدجاج مقابل دجاجة ثمنها ٦٥ قرشا . هذا ليس الا مجتمع المرابين اليهود الذين يستفيدون من بعضهم مادياً .. تلك هى الحقيقة ، اما الرواد والطلائع والمثل الصهيونية .. فكلها غطاء وستار للأهداف المستترة .

● وتحدث عن حائط المبكى بقولها انه بقايا معبد سليمان . طبعاً لا تريد جولدا ان تعترف بتقريب اللجنة الملكية البريطانية الصادر عام ١٩٢٩ والذي اعترف بأن الحائط الغربى (المبكى) هو من املاك المسلمين . لكننا نسألها : ما رأيها في الموسوعة اليهودية التى تقول ان هذا الحائط هو الحائط الخارجى لمدينة القدس وأنه لا يمثل بقايا أى معبد مقدس ؟!

● ما هو معنى النصيحة التى وجهها إلى جولدا ورفاقها زعيمهم بيرل بقوله : لا توافقوا على مشروع تقسيم فلسطين حتى لا تسجل عليكم موافقتكم وتستخدم ضدكم ؟ انها تعنى ان مخطط الاستيلاء على كل فلسطين كان جاهزاً على الدوام ، وكان يحدد كل تصرفاتهم والا لوافقوا على التقسيم .

● ● ●

في الفصل السادس :

● يرى زوج اختها كلاً أن الصهيونية (حركة رجعية إلى أقصى الحدود) . وسبق لزوجها أن أكد لها أنه يرى من السخف تقبل ظروف الحياة الصعبة لمجرد أسباب ومبررات عقائدية فقط .

● ترى جولدا أن هتلر كان سيئاً لأنه حرم يهود المانيا من حقوقهم المدنية والسياسية . ونحن نسألها : لماذا أحلت اسرائيل لنفسها ما تراه حراماً على هتلر ؟ اليس الفلسطينيون الآن ممنوعون من ممارسة أى حق سياسى كالترشيح وتكوين الاحزاب السياسية .. الخ !!

● وهى تدعى أن الحالة الاقتصادية في فلسطين كانت سيئة ، فكيف يستقيم ذلك مع قولها أن مستوى معيشة عرب فلسطين كان أعلى من مستوى العرب ككلهم ، بل وأن عربا كانوا يهاجرون إلى فلسطين ؟

● تقول مائير انها اكتشفت ، وهى في ايشيان أنه (لا يكفى لشعب ضعيف أن يعرض فقط عدالة قضيته) .. وهنا نهمس في اذنها : اليس هذا هو ما يفعله الفلسطينيون اليوم ؟ فلماذا تستبيح لنفسها هذا الحق وتنكره على ابناء فلسطين ؟

● ● ●

في الفصل السابع :

● تستخدم جولدا بمهارة أسلوب الدعاية الصهيونية المضللة .. فهى تقول ان كل ما كانوا يطلبونه من بريطانيا هو أن تسمح بادخال أكبر عدد ممكن انقازه من الناجين من النازى إلى فلسطين ومن الواضح طبعاً أن كل ما كان مطلوباً في هذه الفترة هو ادخال أكبر عدد ممكن من اليهود إلى فلسطين تمهيداً لاحتلالها واعلان الدولة ، ففى الفصل قبل السابق تحدثت جولدا عن الحاجة الملحة إلى إعلان الدولة اليهودية اثناء مؤتمر فيلادلفيا .. وهى تقول ان شاريت كان ينظر إلى نفسه منذ عام ١٩٣٣ على أنه وزير خارجية الدولة اليهودية عند قيامها . باختصار كانت الدولة اليهودية في مخيلتهم امام انظارهم طول الوقت .

• تعمدنا أن نترجم رأى جولدا في ياسر عرفات ترجمة حرفية لكى يعرف القارئ رأياها الحقيقى في الفلسطينيين .

• اما حديثها عن محاكمة ايغمان فإنه يتعدى حدود التبجح والصفاقة .

• يحكم اسرائيل الآن مناحم بيجين الرئيس السابق لمنظمة الارجون زفاى ليومى ، ولعله يجدر بنا هنا أن نلفت النظر إلى الحكم الذى اصدرته جولدا على هذه المنظمة بقولها « ان جماعتى الشتيرن والارجون مخطئتان، وهما بالتالى خطر على الشعب اليهودى من البداية إلى النهاية » .



الفصل الثامن :

• نحن نورد حديثها عن مقابلاتها مع الملك عبد الله ، انطلاقا من مبدأ الامانة في نقل كتاب ماثير كاملاً إلى القارئ العربى ، اما الحكم على صحة حديثها أو عدمه فأمر بعيد عن اختصاصنا .

• وحتى لو سلمنا ، جدلاً بصحة حديثها هذا ، فعلينا أن ننظر بتمعن إلى المدخل الذى استخدمه اليهود للتقرب اليه ، إذ تقول له ماثير : نحن اليهود حلفاؤك الوحيدون .. ثم يفصلون بينه وبين شعبه ، فتنصحه بالا يصى فى الجامع ولا يسمح لرعيته بتقبيل طرف رداؤه .

• الغريب أن إعلان قيام الدولة اليهودية ، التى استغلت الدين اليهودى ذريعة لقيامها ، قد رفض بعض القادة التوقيع عليه لانه يذكر كلمة (الرب) الذى لا يؤمنون هم بوجوده .

● عندما يقول العرب ان هناك (مخططا صهيونيا مرسوما) فذلك عين الحق ، وإلا فليقل لنا احد كيف يمكن ان يكون قيام (دولة محسوبا إلى هذه الدرجة ؟ فلقد قامت الدولة بعد خمسين عاما من المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، وقد قال هرتزل من قبل ان من يعيش خمسين عاما يرى الدولة اليهودية !!

● هنا تعترف جولدا بأن معسكرات اليهود الناجين من النازي كانت تجري فيها تدريبات عسكرية على حمل السلاح .. اذا فهذا هو سر الحاح القادة على تهجير هؤلاء اليهود إلى فلسطين للاشتراك في تنفيذ المخطط المرسوم -

● ● ●

في الفصل التاسع :

● لا نعتقد ان احدا سيصدق ما تقوله مائير من ان زوجة مولوتوف (وزير خارجية ستالين) قد القى القبض عليها لانها تحدثت اليها في حفل عام .

● حديث جولدا عن أول انتخابات تجري في اسرائيل. يؤكد أن هذه (الدولة) عنصرية منذ مولدها ، بدليل قيام حزب خاص باليهود الشرقيين (السفارديم) أى أن العنصرية ليست ضد العرب فحسب بل ضد اليهود انفسهم .

● تتحدث مائير عن مهاجرة عام ١٩٤٨ بازدراء فتصفهم بأنهم مرضى .. جهلة .. معدمون .. وهنا نسألها ، ألم يقل إعلان قيام الدولة ان اسرائيل (ملجأ لكل يهود العالم) ؟ أم انها تريد فقط ان تكون الدولة ملجأ لليهود الاغنياء فقط ؟

● كم كان سهلاً على قادة اسرائيل - وما زال - ان يواجهوا مشاكل قيام الدولة ، والمثال على ذلك ما تقوله جولدا من انها لم تجد مأوى

لا سكان ٦٨٠٠ مهاجر جديد، فقررت التوجه إلى امريكا لجمع التبرعات والأموال اللازمة لمثل هذه المهمة .

• تدعى مائير ان قادة العرب نصحوا الأهل بمغادرة أراضيهم، وأن عربات تحمل مكبرات الصوت يقودها يهود كانت تقول للعرب لا تخافوا ولا تغادروا أراضيكم ومما هو جدير بالذكر أن أرسكين تشايلدرز عكف على تسجيل جميع اذاعات العالم في تلك الفترة فلم يعثر فيها على نداء واحد وجهه قائد عربى للأهل بالهجرة . بل انه يشهد بأن عربات اليهود كانت تطوف بالاحياء العربية ، حاملة مكبرات الصوت ، وهى تحذر العرب من أنهم ان لم يهاجروا فسوف يلاقون نفس مصير دير ياسين .



في الفصل العاشر :

• ها هي نصيحة بن جوربون لدولة اسرائيل: « الرأى العام العالمى بل والرأى العام أمور غير مهمة ، وسوف يحكم التاريخ على اسرائيل بسجل اعمالها لا بعدد المقالات المؤيدة لها في الصحافة العالمية » . وواضح أن اسرائيل تتبع هذه النصيحة حتى الآن بكل اخلاص .

• لا تذكر مائير اسم جمال عبد الناصر الا في الثلث الأخير من كتابها ، وبالتحديد في صفحة ٢٤٣ ، ولا تنسى طبعاً أن تسبق اسمه بلقب « البكباشى » .

• تمر جولدا على معركة سيناء عام ١٩٥٦ مرور الكرام ، بل وفي فقرتين فقط ، في حين أن موشي ديان يحكى عنها في كتابه في ثلاثة فصول .

● مرة أخرى تشير جولدا الادعاءات الصهيونية فتقول انها وجدت احوال اللاجئين الفلسطينيين مهينة وانه كان من الواجب اعادة توطينهم في أى بلد في الشرق الأوسط . هكذا تفترض الدعاية الصهيونية الساذجة والغباء في المستمعين اليها .. ونقول لها انه كان من السهل على اية دولة عربية ان تعيد توطين اللاجئين الفلسطينيين فيها ، لكن الم يكن ذلك كفيلاً بتفصية المشكلة الفلسطينية ؟

● ● ●

في الفصل الحادى عشر :

● تشتكى جولدا من المعاملة السيئة التى تلقاها اسرائيل من الأمم المتحدة (برغم أننا أول مولود للأمم المتحدة) . ونحن نقول لها الم تعلن اسرائيل العصيان على الأمم المتحدة منذ اللحظة الأولى ؟ الم يربط قرار الأمم المتحدة قيام دولة اسرائيل بشرط تنفيذ القرارات الصادرة بشأن فلسطين من قبل ؟ وهل نفذت اسرائيل حتى الآن قرارا واحداً للمنظمة التى أنشأتها ؟

● بكل الخجل تحاول مائير تبرير قيام الدول الافريقية بقطع علاقاتها باسرائيل .

● مازالت معالم المخطط الصهيونى تتضح ، وتتأكد دقة تنفيذ خطواته .. فمحاوله التسلل الاسرائيلى لافريقيا تبدو في حقيقتها تنفيذاً للامنية التى عبر عنها هرتزل عندما تمنى ان يساعد على خلاص الافريقيين وتحررهم !!

● ● ●

في الفصل الثاني عشر :

● في هذا الفصل تتضح مشاعر جولدا تجاه ديان ، والتي تتلخص في كراهيتها له ، وان كان تعبيرها عن هذه المشاعر مهذبا . فهي تقول مثلا ان اشكول ، عندما كان وزيرا للدفاع عام ١٩٦٧ ، قد (أعد الجيش للمهمة المطلوبة دون دعاية أو ضجيج ودون أن يلفت اليه الأنظار) .. وواضح هنا انها تنفى الفضل عن ديان فيما حققه الجيش الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ، وتنسبه الى اشكول ، دون أنتنسى التلميح الى حب ديان للدعاية والظهور .

● تدعى مائير أن القدس تحت الحكم الاسرائيلي أفضل حالا مما كانت عليه تحت الحكم العربى . ولعل القدس تشهد الآن أن ما تفعله اسرائيل فيها لم يسبق حدوثه من قبل .. فالحفائر الاسرائيلية قد وصلت الى قاع القدس القديمة .. والمسجد الأقصى تعرض للحرق .. وتاج السيدة العذراء سرق .. والآثار والأوقاف تم هدمها لتوسيع ساحة حائط المبكى فأصبح امامه ميدان فسيح بدلا من شارع ضيق عرضه أربعة أمتار ..

● تدعى ان اسرائيل حافظت بعد ١٩٦٧ على القوانين المحلية والقادة المحليين .. ترى هل نسيت جولدا ان اسرائيل اعلنت ضم القدس اليها في نفس شهر يونيو (حزيران) ٦٧ ؟ وانها بادرت الى تغيير الادارة المحلية وطردت عمدة القدس العربى بل وغالبية الشخصيات القيادية فيها ؟

● تسهب مائير في الحديث عن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ مستندة الى النص الانجليزى الذى دار الخلاف حول ما جاء فيه عن انسحاب اسرائيل من أرض محتلة «Teyritovies» أو الأرضى المحتلة «The tyritories» هذا في حين أن النص الفرنسى للقرار يذكر بصراحة كلمة « ال » أرضى المحتلة !!

● ● ●

في الفصل الثالث عشر :

● تكذب جولدا عندما تقول ان اسرائيل لم تكن لها مصلحة في اسقاط حكم جمال عبد الناصر .. بل ان موسى ديان يكذبها في كتابه عن قصة حياته عندما يقول ان واحدا من اهداف اشتراك اسرائيل في عدوان ١٩٥٦ كان اسقاط عبد الناصر .

● وعندما نتحدث عن رحيل جمال عبد الناصر ، فانها تكتفى بقولها : (توفي عبد الناصر في سبتمبر) .. هكذا فقط !! ان فترة حكم عبد الناصر بكل انعكاساتها على اسرائيل ، قد دفعت حتى موسى ديان الى الاطالة قليلاً عن ذلك في الحديث عن وفاته .

● تحاول مائير أن تبين أن عملية الاستيطان اليهودي في الأرض المحتلة ، عملية بريئة طاهرة . فاذا كان الامر كذلك - علماً بأن ذلك غير صحيح - فلماذا هذه الحمى في الاستيطان وزرع المستعمرات في الأرض المحتلة ، بل لماذا يتم تغيير الاسماء العربية للاماكن التي تقام فيها المستوطنات ، وتطلق عليها أسماء عبرية بل والاسماء التي كانت تسمى بها ايام داود وسليمان ؟

● أما منطلقها في الحديث مع البابا في الشاتيكان ، فأقل ما يوصف به أنه (صفيق) .

● ● ●

في الفصل الرابع عشر :

● لعل هذا الفصل الذي نتحدث فيه مائير عن حرب يوم الغفران يعتبر واحداً من أصدق الشهادات التي صدرت حتى الآن عن فداحة الضربة التي هزت اسرائيل ومدى تأثير تلك الحرب العربية عليها .

● تقول مائير ان عائلات المستشارين الروس غادرت المنطقة قبل الحرب ، وتصحيحاً لمعلوماتها نقول لها أن الروس أبعدوا ، لأن العرب قرروا أن يخوضوا معركتهم بأنفسهم غير معتمدين على أحد .

● تقدر جولدا بكل صراحة انها قررت اخفاء حقيقة ما حدث في الأيام الأولى للحرب عن شعبها !!

● أولئك الذين ينتقدون قبول مصر لوقف إطلاق النار عندما بدأ واضحاً انها لا تحارب اسرائيل وانما تحارب امريكا ، ننصحهم بأن يقرأوا في هذا الفصل ما قالته مائير في وصف الجسر الجوي الامريكى وكيف ادى الى انقاذ اسرائيل .

● في هذا الفصل تكشف مائير بصراحة عن مشاعر الكراهية المتأصلة لديها ضد ديان* .

● ● ●

في الفصل الخامس عشر :

● تعترف مائير بما كان يسمى « حكومة المطبخ » ، حيث كانت تجمع ثلاثة أو اربعة من رفاقها المقربين في الحكومة ، ويتم في مطبخ بيتها اتخاذ القرارات الهامة والمصيرية .

● واضح في هذا الفصل انها تقف ضد موسى ديان على طول الخط ، وانها تناصر رئيس الأركان .

* ● مازالت جولدا تفكر في اسرائيل المستقبل بعد ألف عام ، على انها دولة يهودية صرفه !!

● كأنها في ختام كتابها تأبى إلا أن تحتقر العالم كله ، فتقول ، « لا يهمننا العالم والدول الكبرى ، وما يهم فقط هو رؤيتنا نحن الاسرائيليين » . وعندما تتحدث عن السلام ، فانها تقرنه بضرورة توفر عنصر القوة لدى اسرائيل .. حتى السلام بالقوة !!

● ● ●

وبعد :

فها هو الكتاب الذى خطته جولدا مائير بيدها بين يدي القارئ ،
بكل ما حواه من سموم ، وبكل ما ضم بين دفتيه من ادعاءات
واباطيل ..

وهو - كما قلنا - ليس فقط مجرد قصة حياة امرأة يهودية
وصلت الى قمة السلطة في اسرائيل الدولة ، انما هو ايضا - وفي
الاساس - قصة قيام هذه الدولة .. وحقيقة افكارها وسياساتها ..
نقدمه للقارئ بكل شجاعة وجسارة حرب رمضان .. نقدمه له
لكى يعرف عدوه على حقيقته ..

انه ليس مجرد كتاب ، وليس مجرد قصة ..
انه درس وعبرة لابد لكل عربى ان ينحصها بامعان وتؤدة ..
وليس عيبا ان نعلم عن اسرائيل ، وأن نتعلم عنها .. لكن العيب
أن نعطيها أكثر مما تستحق .. صحيح اننا لا نستعين بها ، لكننا
لا نهابها ، بل ولم نعد نخشاها .. بعد أن حططنا كبريائها وغرورها ،
وعبرنا حصونها ، وهدمنا قلاعها ..

الفصل الاول

طفولتى

لم يبق في ذاكرتى الا القليل عن سنوات طفولتى المبكرة . خلال السنين الثمانية الاولى من عمري . وهى السنين التى يسمونها الان بالسنين التى تتشكل فيها الشخصية . ومادام الامر كذلك . فان من المؤسف اننى لا احتفظ باية ذكريات سعيدة او سارة عن تلك الفترة . وعلقت في ذهنى - خلال الاعوام السبعين التى عشتها - ذكريات تتصل بالمصاعب التى عانت منها عائلتى . بالفقر . بالبرودة . بالجوع . بالخوف . ولعل ابرز ما علق بذاكرتى هو اننى خائفة .

كنت في الثالثة والنصف او الرابعة من عمري . وكنا نعيش في الطابق الاول في منزل صغير في كيبف . ومازالت ترن في اسماعى موضوع تلك الاحاديث عن مذبحه سوف تحل بنا . ولم اكن اعى بالطبع ما هى المذبحه . لكننى كنت اعرف انها تتصل بكوننا يهودا . وبالرعاع الذين يجتاحون المدينة . ملوحين بالسكاكين والعصى وهم يصيحون « قتلة المسيح » خلال بحثهم عن اليهود . وبهؤلاء الذين سيقتربون ضدى وضد عائلتى اشياء رهيبه .

واذكر الان كيف وقفت على السلاله المؤدية الى الطابق الثانى . حيث كانت تسكن عائلة يهودية اخرى . ممسكة ببدى ابنتهم الصعرة . وبحس برقب والدينا وهما يحاولان سد المدخل بالالواح الخشبة . صحيح ان هذه المذبحه لم تتم . لكننى مازلت حتى بومنا

هذا اذكر مدي الرعب الذي احناحي ومدى الغضب الذي استند بي
 لان والدي لم يجد شئنا يفعل له لماننى سوى دق الالواح الحشبية
 بالمسامير في انظار وصول الاعداد . ومازلت اذكر - فوق ذلك كله -
 ادراكي بان ذلك يحدث لالسبب الا لكونى يهودية . وهو
 ما جعلنى اختلف عن افرانى من الاطفال الاخرين . ولقد مر بى
 هذا الشعور كثيرا خلال حياتى .. الخوف . الاحباط . الوعى
 بالاحكام . والايمان الغريزى العميق بان الفرد اذا اراد البقاء على
 قيد الحياة . فلا بد له من ان يتخذ تحركا فعالا نفسه لتحقيق ذلك .
 كذلك فاسى اذكر بوضوح شديد كم كسا فقراء . لم يكن هناك
 الخلفاء الحسابية من اى شئ . لا الطعام ولا الدفء ولا الملابس .
 واذكر بدون اى مجهود - صورتي وانا اجلس في المطبخ اراقب امى
 وهى تطعم أختى الصغرى - زبيكا - العصبدة الى تخصصى . والتى
 كسب امره ان يشاركى فيها احد حنى ولو كان طفلا . ثم مرت
 الاعوام لامر بمس التجربة مع اطمالى في محاولة لتحديد ايهم يأكل
 اكثر من الاخرين .

لكننى في هذا المطبخ في كيبك . عرفت - بالطبع - ان الحياة
 فاسيه وانه لا يوجد عدل في اى مكان .

كان والداى قد حلا في كيبك مؤجرا فقد التفتيا وتزوجا في
 بينسك . حيث كانت عائلة امى تعيش . وفي عام ١٩٠٣ عدنا جميعا الى
 بينسك عندما كنت في الخامسة من عمري . ولد ابى في اوكرانيا لكنه
 ادى الخدمة العسكرية في بينسك . حيث رآته امى في الطريق واجته
 من اول نظره . وكان ذلك كافيا لكى تقنع ابويها بالموافقة على
 رواحهما رغم ان ابى يتيم الابوين ولم يكن بملك شروى نقيير . لكنه
 لم يكن جاهلا . فقد درس في صباه في يشفيا (وهى دورة يهودية

دييه . وكان يعرف النوراد . وملك امور لاف هوى في نفس
حدى .

كان ابواى يختلفان عن بعضهما الى حد كبير . فأبى - موسى
اسحاق ما بوفتس - كان رجلا دقيق الملامح .. مماثلا .. يؤمن بالثياس
الا اذا اخطأوا في حقه . وتلك سمات نعى ان حياته لاتتحف بالمثل
اما امى - بلوم - فكانت سفراء .. جميلة . مليئة بالطاقة والحيوية ..
وكانت مثل ابى متفائلة .. اجتماعية . وكان منزلنا يمتلىء في امسبات
كل يوم جمعة بالاقارب والاصدقاء . ومازالت امام ناظرى جموع
العمات والخالات واولاد العمومة والخالة الذين لم ينج منهم احد من
المذابح . وهم يجلسون حول مائدة المطبخ يحسنون الشاى في امام
الست والعطلات وهم يغنون ساعات طويلة ..

ولم يكن بيتنا مندينا . لكن ابواى كانا يؤدبان الطقوس
اليهودية التقليدية . فكان الطبخ بنم بطريقة (الكوتير) وكما نحنمل
بالاعباد اليهودية . ولم يلعب الدس - بهذا الشكل - اى دور في
حياتنا . ولا اذكر اننى كطملة فكرت كتبوا في الله او الصلاة له . رغم
اننى عندما كبرت - وكنا قد انتقلنا الى امريكا - كنت اناقش امور
الدين مع امى . واذكر انها ارادت في احدى المرات ان تثبت لى وجود
الله فقالت لى « لماذا تمطر السماء او تهطل منها اللوج مثلا ؟ »
فنشرت لها ما تعلمته في المدرسة عن المطر . فقالت لى « حسنا
يا حولديلا . مادمت حذقة الى هذا الحد . فانزلى المطر » ولم احر
حوانا . اما فيما يتعلق بكون اليهود شعب الله المختار . فاننى لم اقبل
ذلك قط . وبدا لى - ومازال يبدو لى - اكر معموله الا نؤمن بان الله
احار اليهود . وانما ان اليهود هم اول شعب احاروا الله . وانهم اول

شعب في التاريخ يفعل شيئاً ثوريا بحق . وكان اختيارهم هذا هو الذى جعلهم شعبا فريدا في نوعه .

وعشنا على هذا النحو بنفس الاسلوب الذى عاش به اليهود في مدن وقرى اوربا الشرقية . فكنا نذهب الى الشول (المعابد) في الاعياد وايام الصوم ، وكنا نتبارك بيوم السبت ، ونحتفظ بتقويمين احدهما روسى والاخر يتعلق بالارض البعيدة التى نفينا منها قبل المى عام . والتى بقينا نحافظ على عاداتها القديمة ونحن في كييف او ينسك .

وقد انتقل والداى الى كييف عندما كانت اختى شينا (التى تكبرنى بتسعة اعوام لا تزال صغيرة . ورغم ان كييف تقع في المناطق الروسية التى كان ممنوعا على اليهود ان يعيشوا فيها ، فان ابى لكونه نجارا جيدا كان بمقدوره الحصول على تصريح بالعيش فيها فيما لو اجتاز اختبارات هذه المهنة . فصنع مائدة للشطرنج ، اجتاز الاختبارات ، وانتقلنا الى كييف يحدونا الامل . والتحق والدى بعمل في الحكومة ، يصنع الاتاث لمكتبات المدارس ، بل وحصل على منحة مالية ، استطاع بها - وبقروض اخرى - ان يبنى ورشة للنجارة . ثم تبخرت الامال - كما يقول ابى - لكونه يهوديا ، ولان معاداة السامية تركزت في كييف . وضاع العمل ، ونفذت النقود ، وتحتم دفع القروض . وهكذا وقعت الازمة ابان طفولتى .

وبدا ابى يبحث عن عمل ، فكان طوال اليوم خارج البيت ، ولا يعود الا ليلا فلا يجد طعاما ، فيكتفى بالخبز والسمك المملح . اما امى فكانت لديها همومها هى الاخرى ، اذ مرض ابناؤها الاربعة وبناتها . ومات اثنان منهم قبل ان يبلغا العام من عمرهما ومات اثنان اخران خلال شهر واحد . وكغيرها من الامهات اليهوديات في ذلك الجيل ، فانها تقبلت مشيئة الله . وما ان توفى اخر اطفالها حتى

عرست عليها احدى الاسر الغنية العمل كمرية لطفلها . واشترطت هذه الاسرة ان ينتقل ابواى واختى شينا الى غرفة انظف واوسع وان تتلقى امى مبادئ تربية الطفل على يد ممرضة خاصة . وهكذا . وبفضل هذا « الابن بالتبنى » تحسنت حياة شينا وولدت انا في جو صحى نظيف . وحرص اهل الطفل على ان يتوفر الطعام لدى امى . وسرعان ما اصبح لدى أبوى ثلاثة اطفال . شينا وزيكى وانا .

وفي عام ١٩٠٣ . وعندما أصبحت فى الخامسة . عدنا الى بينسك . وصرف والدى النظر عن الفشل الذى حاق به فى كيهف . وأصبح حلمه الجديد أن يذهب الى امريكا . أو « المدينة الذهبية » كما كان اليهود يسمونها . ليحرب حظه فيها . وكان علينا أن ننتظره فى بينسك . وهكذا حمل امتهته القليلة وتوجه الى القارة المحبولة . وانتقلنا نحن الى منزل اجدادى

ولست ادرى ايا من اجدادى قد اثر فى حياتى . كان جدى قد توفى قبل ان يلتقى ابواى . وكانت هناك حدة امى التى لم ارها . والتي سميت باسمها .. كانت معروفة بارادتها الحديدية وبرئاستها . للجميع . كانوا يقولون لنا ان احدا فى العائلة لم يكن يجزؤ على اتخاذ اية خطوة دون استشارتها . بل ان والدى تزوجا بفضل موافقتها هى بعد ان كان جدى يعارض فى الزواج . وقد عاشت جولدا الكبيرة حتى الرابعة والسبعين . ومن الامور المثيرة ان والدى كانا يقولان لى اننى اشبهها الى حد كبير .

ولقد مات هؤلاء الناس . ومات اولادهم واحمادهم . لكننى لا انسى مدى الالم والمأسى التى صبغت حياتهم . وكنت اقص على اولادى . واحمادى مؤخرا . حكايات عن الحياة فى تلك الايام .

والسعادة نملؤنى لان هذه المصص لم تعد سوى درس في التاريخ . على الرغم من ان هذه الفترة هى التى اثرت في حياتى الى حد كبير . والغريب اسى لم اكن اشعر في اى وقت بالحنين الى هذا الماضى رغم تأثيره على معتقداتى . كان هذا الدرس هاما عن جزء هام من تراثهم لدى بدون ان يتعلقوا به او تكون لهم به صلة .

وقضى والدى ثلثه اعوام وحيدا في امريكا . كان . كغيرة من الالف اليهود الروس . قد جمع النقود لكى يسافر الى امريكا باعتبارها الامل الوحيد في تكوين الثروة والعودة بها الى روسيا من اجل حياة جديدة . وبالطبع لم يفلح لاهو ولا الالف . غير ان فكرة رجوعه هى التى جعلتنا نحتمل غيابها .

عابت كسف التى ولدت فيها عن ذاكرتى ، لكننى بقيت احتفظ لها في داخلى بصورة خاصة لكثرة ما سمعت وقرأت عنها . بل ان خبيرين ممن قابلتهم في حبانى كانوا من كيشف او المدن الصغيرة المحيطة بها . ومن هؤلاء عائلتا حايم وايزمان وموشى شاريت . وقد عدت الى بينسك مرتين بعد ذلك . اولاهما في عام ١٩٣٩ عندما كنت في بولندا في مهمة لحركة العمل . ومرضت في يوم الزيارة فالغيت الرحلة . ثم في صيف عام ١٩٤٨ عندما عبت سفيرة لاسرائيل في الاتحاد السوفيتى . وتملكتنى رغبة العودة الى بينسك بحثا عن اقارب نجوا من البازين . غير ان الحكومة السوفيتية رفضت ان احقق رغبتى . وفي اوائل عام ١٩٤٩ عدت الى اسرائيل فتأجلت زيارتى لبينسك نهائيا . ثم علمت فيما بعد ان واحدا فقط من اقاربنى ظل على قيد الحياة .

كانت بينسك التى اذكرها مليئة باليهود . وكانت واحدة من اشهر مراكز الحياة اليهودية الروسية . بل ان اليهود كانوا اغلبية فيها

في وقت من الاوقات . وكان اليهود يتعيشون من النهرين اللذين تقع عليهما بينسك . فيصيدون الاسماك ويقلون البضائع ويخزنون الثلوج في الشتاء لاستخدامها في التبريد صيفا . وكان اليهود الموسرون يعملون في صناعة الاخشاب وتجارة الملح . وكانت هناك عدة مصانع للكبريت والمسامر والخشب يملكها اليهود . ويعمل فيها بالطبع عشرات من العمال اليهود .

وهناك العديد من الذكريات المفزعة في بينسك . فهناك مستنقعات الطين التي كان فرسان القوقاز يهجمون علينا عندها بحيادهم ونحن نلعب . وهناك الشحاذون المقعدون طوال التعر حاحطو العيون . وكانت امي تكتفى بذكر هؤلاء الشحاذين لكي اقلع على المور من الخطأ الذي ارتكبه . لكن الامور لم تكن كلها مفرعة على هذا النحو . فقد كنت العب واضحك واعى . بل وتعلمت من احتى شيئا من الرياضيات رغم اني لم التحق بالمدرسة . وعلى اية حال فقد كنت تعلم الحياة . ايضا على يدى شيئا .

كانت تيبا في الرابعة عشرة من عمرها عندما سافر ابي الى امريكا . وكانت فتاة ذكية اصحت - وظلت - واحدا من اكبر المؤثرات في حياتي . بل انها كانت اكبر هذه المؤثرات اذا ما استثنينا الرجل الذي تروحتة . كانت شخصا غير عادى اعتبرتها نموذجا براقا لى . وكانت صديقتى ومعلمتى . بل اننا عندما تقدم بنا العمر . واصحنا حداث . ظل تناؤها وتقديرها لاعمالى يعنى الشيء الكثير لى . كانت تيبا جزءا لا يتجزأ من حياتى . وقد توفيت عام ١٩٧٢ .

برغم الفقر في بينسك فان شيئا رفضت ان تعمل . كانت العودة الى بسك قاسية عليها . اد كانت قد التحقت بمدرسة في كسف .

معتزلة ان تتلقى العلم والمعرفة . وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها . اصبحت عضوا نوريا ومخلصا في الحركة الصهيونية الاجتماعية . الامر الذى جعلها من الاشخاص الخطرين في نظر الشرطة وعرضها للعقاب . ولم تكن هى واصداؤها « يتآمرون » فقط على قلب القيصر . بل انهم اعلنوا ايضا عن حلمهم وهو ان ينقلوا الى خير الوجود دولة اشتراكية يهودية في فلسطين . ولم يكن صغر سنها ليحول دون احتمال ان تلقى الشرطة القبض عليها بتهمة النشاط المعادى .

كانت امى تلج عليها لتقطع صلاتها بالحركة . حتى لا تعرض نفسها . وعرضنا بل ونعرض ابى في امريكا . للخطر . وبقيت سينا على عنادها . تحذر الاجتماعات السرية في الخارج وعندما نعود نجد القلق يعتصر امى وفي ايام السبت . عندما كانت امى تذهب الى المسجد . كانت سينا سظم الاجتماعات في المنزل . وعندما كانت امى تكشف هذه الاجتماعات لم يكن امامها ما تفعله سوى ان تزرع الطريم امام المنرا . لى تحذر المتأمرين الصغار اذا ما اقترب شرطى . وكان قلب امى يسر . خوفا من ان يكون احد اصدقاء سينا من العملاء المدسوسين .

ولمصر سمى فلم ادى افهم تماما ما يحرى . لكننى كنت اقضى الساعات الطوال امام السن جالسة اسمع الى سينا واصداؤها في محاولة لفهم الامور . وكنت انبج ما تقوله شيئا لامى شارحة لها ما تفعله وكان دلى ما فهمته هو انها تستترك في نضال معين لا يتعلق فقط بالنسب الروسى . وانما ايضا . وبشكل خاص . باليهود .

لقد كنت الابر وسوء بكتب بالقطع ما هو اكثر . عن الحركة الصهيونية . والى انى . من الناس فكرت بما يعبد الحركة

الصهيونية ، وعن ارتباطها بعودة الشعب اليهودى الى ارض ابائه - الى ارض اسرائيل كما يقال عنها في العرية - لكن الجميع حتى الآن ربما لم يدركوا ان هذه الحركة الرائعة (!) انشئت لتقائيا قرابة نهاية القرن التاسع عشر . وفي مختلف ارجاء اوروبا في نفس الوقت تقريبا . كان الامر كأنه دراما يجرى تمثيلها بطرق مختلفة وعلى مساح مختلفة بلغات مختلفة . لكنها تعالج نفس الفكرة في كل مكان . فقد كان ما اسموه بالمسألة اليهودية وحقيقتها بالطبع هى المسألة المسيحية نتيجة اساسية لكون اليهود بلا وطن . وأنها لن تحل إلا إذا حصل اليهود مرة ثانية على وطن لهم وكان واصحا أن هذا الوطن لا يمكن الا أن يكون أرض صهيون . الأرض التى نفى منها اليهود قبل الفى عام . والتى ظلت مع ذلك مركزا روحيا لليهودية عبر القرون وعندما كنت طفلة كانت هذه الأرض . وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى . مقاطعة مهجورة ومهملة في الامبراطورية العثمانية تدعى فلسطين .

وفي عام ١٨٧٨ عاد اوائل اليهود الى صهيون لؤسسوا قرية رائدة اسموها بتاح تكفاه (بوابة الامل) وفي عام ١٨٨٢ وصلت الى البلاد مجموعات صغيرة من الصهاية من روسيا كانوا يسمون انفسهم (حويبي زيون) (محبو صهيون) . وقد عقدوا العزم على استصلاح الارض وزراعتها وحمايتها . اما تيودور هرتزل - مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية . وبالتالي . الاب الروحى لدولة اسرائيل - فانه في عام ١٨٨٣ كان لا يزال غير مدرك لما يحدث لليهود في اوروبا الشرقية ولا بوجود محبى صهيون . الى ان كان عام ١٨٩٤ . حين اصبح هرتزل مراسلا في باريس للصحيفة المساوية « نيو فراى بريس » . عندما بدأ يهتم بمصير اليهود . وذلك عندما كلف بتغطية وقائع محاكمة الكابتن درايفوس . وازاء الصدمة التى سببها الظلم الفادح الواقع على

هذا الضابط اليهودى والمعاداة الواضحة للسامية من جانب الجيش الفرنسى ، وصل هرتزل ايضا الى قناعة بان هناك حلا واحدا ممكنا ودائما لموقف اليهود . واصبحت اعماله سواء ما انجزه او ما فشل فيه وهو القصة المذهلة لخلق الدولة اليهودية - جزءا من التاريخ الذى يتعلمه الاطفال الاسرائيليون بل ومن يريد ان يفهم حقيقة الصهيونية .

وكانت امى وشينا تعلمان عن هرتزل ، لكننى اذكر المرة الاولى التى سمعت فيها اسمه ، عندما جاءت احدى عماتى لتبلغنا ان هرتزل قد مات ، ولا انسى ذلك الصمت الذى ران علينا اثر سماع هذا الخبر . اما شينا فقد قررت ان ترتدى ثيابا سوداء اللون حدادا عليه منذ يوم وفاته ولدة عامين ، الى ان انتقلنا الى ميلووكى .

وعلى الرغم من ان حنين اليهود الى ارضهم لم يكن نتيجة مباشرة للمذابح (اذ كانت فكرة اعادة استيطان اليهود لفلسطين قائمة بواسطة اليهود بل وبغير اليهود قبل وقت طويل من ظهور كلمة مذبحه في قاموس اليهود الاوروبيين) فان المذابح الروسية التى شهدتها طفولتى عجلت بهذه العملية ، خاصة بعد ان ادرك اليهود ان الحكومة الروسية نفسها تستخدمهم ككبش فداء في صراعها من اجل اخماد الحركة الثورية .

وبرغم اتحاد غالبية الشباب الثورى اليهودى في بينسك في تصميمهم على انهاء النظام التقصيرى وحماهم البالغ لتلقى العلم كوسيلة لتحرير الجماهير الروسية المكبوتة والمستغلة ، فقد انقسموا الى جماعتين رئيسيتين ،

اعضاء البوند (الاتحاد) الذين يؤمنون بان الحل لمحنة اليهود في روسيا وغيرها يكمن في تحقيق سيطرة الاشتراكية ، فاذا ما تغير البنيان الاقتصادى والاجتماعى اختفت معاداة السامية كلية . ويستطيع اليهود في هذا العالم الاشتراكى ان يحافظوا على هويتهم الثقافية وان يتحدثوا الييديش وان يرعوا ما يشاءون من التقاليد والعادات ، لكنه لا يوجد سبب واحد للتعلم بتلك الفكرة العتيقة القائلة بالوطن اليهودى .

اما بوعالى زيون (العمال الصهاينة) فقد اختلفت نظرتهم الى الامر كلية . فكانوا يؤمنون بان هناك جذورا اخرى لما يسمى بالمسألة اليهودية ولذلك فان حلها لابد ان يكون ابعد من اصلاح الاخطاء الاقتصادية والظلم الاجتماعى .

وكان تعلقهم بمثال قومى اعلى قائم على اساس مفهوم الشعب اليهودى واعادة تأسيس الاستقلال اليهودى .

وبرغم ان هاتين الجماعتين كانتا سريتين وغير قانونيتين ، فانه لما يدعو للسخرية ان اعضاء البوند كانوا الد اعداء البوعالى زيون .

ولقد تعلمت في تلك الايام درسا هاما غير سياسى ، هو ان الامور لا تحدث فجأة ، وانه لا يكفى ان يؤمن المرء بشىء ما وانما يجب ان يكون لديه الجلد على مواجهة العقبات والكفاح من اجل قهرها . ولا بد اننى عندما بلغت السادسة او السابعة قد ادركت الفلسفة التى تقوم عليها كل افعال شيئا . وانه ليس هناك الا طريق واحد لعمل اى شىء ، هو الطريق الصحيح .

وحتى عندما عدنا الى ما كان من قبل فلسطين ، ثم امسح اسرائيل ، فان شيئا حرمت نفسها من متع الجباة ورفاهيتها ، وفي

السيات فقط كانت الثلاثة الكهربائية (البراد) هى وسيلة الرفاهية الوحيدة لديها . وكانت تستعمل موقد الكيروسين فى المطبخ . كانت صارمة ، قاسية . على نفسها وعلى الآخرين . والا لكانت على الاقل قد استجابت لمحاوفا امى من الاجتماعات المتكررة داخل منزلنا فى بينسك .

والتقت شينا بشاماي كورنچولد . الذى تزوجها فيما بعد . وكان قد ترك دراسته لينضم للحركة الثورية . ونما بينهما حب صامت . واصبح شاماي واحدا من قادة الشباب الصهيونى الاشتراكى . وعلمت من خلال محادثاته الهامة مع شينا ان يهود بينسك يعدون انفسهم للدفاع ضد هجمات القوزاق المرتقبة . وطورت شينا وشاماي نشاطهما الى ضم اعضاء جدد . واستبد الفزع بامى فاخذت رسائلها الى ابنى تتسم بالحواف الشديد مؤكدة انه لا حل سوى ان ننضم اليه جميعا فى امريكا .

وكتب الى امى يبلغها انه قد انتقل من نيويورك الى ميلووكى وانه سيلحق بعمل فى السكك الحديدية وسيجمع تكاليف سفرنا . وفى عام ١٩٠٥ جاءنا الرسالة من ابنى لانخاذ استعدادنا للرحيل . وكانت ترتيبات السفر مرهقة لسيدة وثلاثة اطفال مازال اثنان منهما ضغارا . وبالنسبة لشينا فان ترك روسيا كان يعنى ترك شاماي وترك كل ما خاطرا من اجله كثيرا . وكان السفر من بينسك الى ميلووكى فى تلك الابام كأنه سفر الى القمر . ولاشك ان الخوف الذى كان يعترينا كان ممكنا ان يكون اقل حجما لو اننا عرفنا عندئذ ان هناك آلافا آخرين من العائلات كانت ايامها تقوم بنفس الرحلة متجهة نحو العالم الجديد . ولو ان اهلى علموا اننى سوف اعود الى روسيا كسفيرة او كرئيسة للوزراء لكان وداعهم لنا اخف ولكانت دموعهم اقل .

ولم يبق في ذاكرتى عن الرحلة في عام ١٩٠٦ الا ما حكته لى امى وشينا . لكننى اذكر اننا اضطررنا الى عبور الحدود عند جالبسيا سرا . اذ ان والدى عندما عبر هذه المنطقة قبل ثلاثة اعوام اصطحب معه زوجة رجل اخر واطفالها على انهم زوجته واطفاله . وهكذا تحتم علينا أيضا أن ندعى أننا أناس اخرون .. ومع أننا حفظنا أسماءنا الجديدة عن ظهر قلب فإن عبورنا تم بعد رشوة الشرطة وضاعت معظم امتعتنا اثناء الزحام . ثم ركبنا الفطار عبر فيينا وانتورب حيث ركبنا باخرة توجهت بناء الى امريكا وإلى ابنى .

واستمرت الرحلة الشاقة على ظهر الباخرة اربعة عشر يوما . واصيبت امى واخواتى بدوار البحر . لكنى لم اتأثر به . وكان السفينة مملأ بالمهاجرين . وكنت الهو مع الاطفال الاخرين وبحكى فصصا عن الثروات التى تنتظرنا فى الارض الذهبية . لكننا جميعا كنا ندرك اننا نتجه الى بلد لا يعرف عنه شيئا وإلى اماكن غريبة عنا بالمرة .

الفصل الثانى

مراهقة سياسية

استقبلنا أبى فى ملووكى ، وبدا غريبا بعد أن خلق لحيته واتخذ مظهر الامريكيين . ولانه لم يوفق فى ايجاد شقة لنا فقد نزلنا فى غرفته فى منزل يملكه يهود بولنديون مهاجرون . وقد سحرتنى ملووكى خلال الايام الاولى .. فالطعام جديد ، واللغة مختلفة ، وكنت قد نسيت أبى .. ونقلنى ذلك كله إلى عالم بعيد عن الواقع إلى حد أنى اذكر وقوفى فى الشوارع وأنا أتساءل من أنا وأين أنا ؟

بل اننى اعتقد انه لم يكن من السهل على أبى ايضا ان يعتاد علينا بعد هذه الغربة . وفى صباح اليوم التالى لوصولنا اصر على ان يشتري لنا ثيابا جديدة وكأنه يتصور ان ذلك فى حد ذاته كفيل بتحويلنا فى مدى اربع وعشرين ساعة الى فتيات امريكيات المظهر ، بعد ان جئنا من « العالم القديم » . واشترى اولا لشينا ثيابا وقبعه جميلة قائلا هكذا اصبحت تشبهين البشر . لكن شينا رفضت اطلاقا ان ترتدى شيئا مما اشتراه لها . واعتقد ان هذه الجولة فى الاسواق كانت هى البداية الفعلية لسنوات من التوتر بين شينا وأبى .

لم تكن هاتان الشخصيتان مختلفتين فحسب ، بل ان والدى ظل يتلقى طوال ثلاثة اعوام رسائل من أمى تشكو له فيها من سلوك شينا الانانى الامر الذى لا شك انه اسر لها فى قلبه لوما لانها ضيقت عليه

فرصة العودة الى روسيا واضطرت العائلة إلى الهجرة لأمريكا . ولم يكن أبى تعيسا في ميلووكى . بل كان على العكس جزءا من حياة المهاجرين هناك .. فكان يعمل في ورش السكك الحديدية وانضم إلى احد المعابد واستطاع ان يجمع بعض المال . وكان في سبيله إلى ان يصبح يهوديا امريكيا كاملا . وكان ذلك يلقي هوى في نفسه . وكان آخر ما يرجوه هو أن تأتيه ابنة غير مطيعة تريد ان ترندى في ميلووكى نفس الثياب التى كانت ترتديها في بينسك . وانقلب النقاش الذى دار في محل الملابس الى صراع خطير .

اما أنا فقد كنت سعيدة بملابسى الجديدة . وبالصودا والايس كريم وناطحات السحاب . اذ كان هذا البيت هو اول بيت اراه من خسة طوابق . وكانت ميلووكى بالنسبة لى رائعة بشكل عام . فقد كان كل شىء يبدو مرحا وكأنه قد خلق لتوه . وكنت اقضى الساعات وأنا اشاهد السيارات والناس . وكانت أول مرة اركب فيها سيارة عندما استقبلنا أبى . وكنت احدى خلال سبرى في دكاكين الحلاقة والصيدليات . وانظر في حسد إلى البنات الصغيرات في ثيابهن الجميلة وأحذيتهن العالية والعرائس في ايديهن . وفي النساء وهن يرتدين جونلاتهن الطويلة . وفي الرجال وهم يرتدون القمصان البيضاء وربطات العنق . كان الامر كله غريبا .. يختلف كلية عن اى شىء عرفته .. وقضيت الأيام الاولى في ميلووكى في غيبوبة .

وسرعان ما انتقلنا إلى شقة في الجزء اليهودى الفقير من المدينة . وهذا الجزء من المدينة يسكنه الآن السود الذين يسودهم الفقر مثلما كنا . ومع أن شقتنا لم تكن فيها كهرباء ولا حمام . فقد كنت اراها قمة في الرفاهية . وكانت تتكون من غرفتين ومطبخ صغير ورددة تؤدى في النهاية إلى دكان خال . صممت أمى على استغلاله . لكن أبى

نمض يديه من أية مسئولية بالنسبة لهذا الدكان الذى اصبح منغصا في حياتى . واستخدمناه كمغسله ثم كمحل للبقالة ، لكنه لم يزدهر ابدا . ولا يسعنى إلا ان اعجب بأمى وإرادتها كلما عدت بالذاكرة إلى قرارها هذا . فلم تكن قد انتقضت أيام على وصولنا ، ولم تكن تعرف كلمة واحدة بالانجليزية ولا دراية بالسلع الرائجة في السوق . بل ولم يسبق لها ان اشتغلت في دكان قبل ذلك . ولان نساء الحى كن من المهاجرات الجدد مثلنا ، فقد التفمن حول أمى وعلمنها بعض الجمل وكيفية البيع واستعمال الموازين .

وجاء قرار أمى ، الذى يماثل قرار أبى بشراء الملابس ، من رد فعلها لحقيقة وجودهما في مجتمع اجنبى . لكن كلا القرارين كان لهما آثار خطيرة على أنا وعلى شينا . كان ذهاب أمى صباحا إلى السوق لجمع البضائع يعنى ضرورة وجود من يرفعى الدكان . ورفضت شينا ذلك الدور نهائيا ، تماما مثل والدى ، وكانت تقول اننى لم أت إلى أمريكا لاصبح صاحبة دكان ، أى ان اصبح من الطفيليات على المجتمع . وقد آثار موقفها غضب أبوى لكنها لم تأبه وعملت لدى احدى الخياطين حيث كانت تصنع عراوى الزرائر . وكانت تكره هذا العمل الشاق ، على الرغم من انها اصبحت على هذا النحو واحدا من البروليتاريا وبعد ان جمعت ثلاثين سنتا في ثلاثة أيام اجبرها أبى على ترك العمل ومساعدة أمى . لكنها كانت تتحين الفرصة لترك الدكان . وكنت أنا اضطر للوقوف فيه خلال غياب أمى . ولم يكن ذلك بالعمل السهل لطفلة في الثامنة أو التاسعة .

ودخلت المدرسة واجبتها . ولا ادرى كم من الوقت مر لكى اتعلم اللغة الانجليزية فلم نكن نتكلم في المنزل سوى اليبديش . بل وفي شارعنا كله ، لكننى لا اذكر ان ذلك مثل مشكلة أمامى فلا بد أنى

تعلمتها بسرعة . وبسرعة ايضا كونت عددا من الصداقات ، بقيت اثنتان منهما اصدقاء لى طوال عمرى وكنتهما تعيشان في اسرائيل الان ؛ اولاهما ريجينا هامبورجر والأخرى ساره فيدر التى أصبحت من قادة الصهيونية العمالية في الولايات المتحدة . وكنت في اغلب الأحيان أذهب إلى المدرسة متأخرة عن موعدها . واحيانا لا اذهب بالمرّة لاضطرارى للوقوف في الدكان مع أمى . وقد تعلمت الكثير في هذه المدرسة

بعد ذلك بأكثر من خمسين عاما ، عندما كنت في الحادية والسبعين رئيسة لوزراء اسرائيل ، عدت إلى المدرسة فوجدتها على نفس حالها لم تتغير فينا عدا ان غالبية تلاميذها كانوا من السود لا اليهود كما كان الحال في عام ١٩٠٦ . وكان استقبالي حافلا كأننى ملكة ، ومن بين الهدايا تسلمت نسخة من شهادتى في إحدى السنوات ، وكانت درجأتى فيها كما يلى ، ٩٥ في القراءة - ٩٠ في التهجية - ٩٥ في الرياضيات - ٨٥ في الموسيقى - و ٩٠ درجة في مادة لا اذكرها لعلها الاشغال اليدوية .

وتعترينى سعادة بالغة كلما تذكرت السنين الخمس التى قضيتها في ميلووكى ، بالطبع اذا ما استثنيت التعاسة التى لفت شينا لأنها فارقت شامى الذى بقى في روسيا ، وكانت تفتقده كثيرا . وكادت ذكرى بينسك تمنحى ازاء كثرة ما رأيته وتعلمته .

وفي شهر سبتمبر (ايلول) . وكنا قد قضينا ثلاثة اشهر في امريكا ، 'المب الينا والدى ان نهتم بمشاهدة استعراض يوم العمل الذى تُترك فيه . وارتديت أنا وأمى وزيبكا ملابسنا وانتحينا ناحية في ع نشاهد منها الاستعراض . وما أن شاهدت زيبكا رجال الشرطة الخيول في المقدمة حتى اعترأها خوف رهيب ، وصاحت

« القوقاز قادمون ! » واضطربنا لارجاعها الى المنزل . وتمثلت امام ناظرى الحرية الامريكية . فرجال الشرطة بخيولهم يحرسون المشتركين في العرض . لكنهم لا يفرقونهم ويدوسونهم بخيولهم كما كانوا يفعلون في روسيا ، وشعرت بتأثير الحياة الجديدة في نفسى . وتميزت ميلووكى بادارتها الليبرالية . وكانت تسيطر عليها التقاليد الإشتراكية . وعمدتها اشتراكى . وخرج منها أول نائب اشتراكى في الكونجرس هو فيكتور برجر . وكانت المدينة مليئة بالمهاجرين . وقد فر اليها كثير من الليبراليين والمثقفين الألمان اثر الثورة الفاشلة في عام ١٨٤٨ . واشتهرت باتحاداتها التجارية القوية . على اية حال . كانت مشاهدتى لأبى في هذا العرض في يوم العمل بمثابة الخروج من الظلام الى الضوء .

ولا شك أن الأمور كانت ستصبح افضل لو لم تعمل أمدى كثيرا . او لو سائرت شيئا أسوى ومع ذلك فإن السنوات المبكرة التى قضيتها في ميلووكى كانت جيدة بالنسبة لى . لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لشيئا . فقد كان كل شىء خاطئا .. فلا هى تعلمت الانجليزية . ولا هى كونت صداقات . وصعب عليها أن تتواءم مع الحياة الجديدة . وكانت بلا أسباب تبدو دائما متعبة فائرة الهمة . خاصة ازاء المحاولات الغبية من جانب أبوى لتزويجها وكأن شاماي غير موجود . ووصلت حياتها في سن الثامنة عشرة إلى العدم . وبعد عدة أعمال . اشتغلت في حياكة ملابس النساء في شيكاغو . لكنها عادت بإصبع مصاب اضطرها إلى البقاء في المنزل عدة أسابيع . وخلال هذه الفترة كنت امشط شعرها وأساعدها في إرتداء ملابسها . وهكذا توثقت العلاقة بيننا .

وذات بود ابلغتنى شيئا انها تلقت رسالة من إحدى عماتى في بينسك تدور حول شاماي . كان قد القى القبض عليه ثم فر من سجنه

، وهو الآن في طريقه إلى نيويورك ، وبعثت عمى بعنوانه ، فكتبت إليه شينا ، وعندما وصلها رده كان اصبعها قد شفى وتسلمت عملا جديدا وبدأت تعد العدة لوصوله إلى ميلووكى .

ولا أحسب أنى في حاجة للإعراب عن إبتهاجى بارتفاع معنويات شينا اخيرا ، فبدأت تشعر بالسعادة وتغير جو المنزل ، وكنت اترقب وصوله رغم اننى لم اكن اتذكره ومن سوء الحظ أن والدى وخاصة أمى ، استقبلا هذه الأنباء بشكل مختلف وكانت حجتهما في عدم الموافقة على زواجهما ان شامى معوز والفرص المتاحة امام مستقبله ضيقة ، والغريب أن شامى كان من عائلة موسرة لا يمكن ان توافق على زواجه من اختى الفقيرة .

وكالعادة مضت شينا فيما اعتزمته ، واستاجرت لشامى غرفة في ميلووكى ، ووصل غير واثق من نفسه لكنها كانت على يقين من انها سيتمكنان سويا من قهر كل العقبات ، وعمل في مصنع للسجائر ، وبدأ يتعلمان الانجليزية ليلا لكن شينا سقطت فريسة لمرض السل ، فتركت الغرفة وعادت إلى المنزل وسط توبيخ أبوى وتأنيبهما ، وخلال أسابيع تغيرت الأحوال ثانية ، فسافرت شينا إلى دنفر لدخول مستشفى الصدورين اليهودى ، وسافر شامى إلى شيكاغو بحثا عن عمل ، وكنت ادخر مصروفى ، وأحيانا « أستعير » النقود من حافظة أمى ، لكى ابعث إلى شينا بالطوايع كى تراسلنى ، وهكذا أصبحت أنا الصلة الوحيدة بينها وبين العائلة ، وكان ذلك كافيا لتبرير الجريمة .

كانت فرصة العمل أمام أبى في ميلووكى قليلة وكان يتقاضى ٢٥ سنتا عن كل ساعة يعملها ، وساهم في تدهور الموقف أن أمى رقدت في فراشها عدة أسابيع اثر اجهاضها ، وهكذا تعين على أن اطبخ وأغسل في المنزل وإن اعتنى بالديكان واديره والدموع تخنقنى لاضطرارى للتغيب

عن المدرسة . وقد اخفيت عن شينا هذه الأمور المزعجة . لكننى كنت احيطها دائما بحقيقة الموقف .

ومرت الأعوام سريعة واستغرقتنى المدرسة في الاوقات التى كنت اترك فيها الدكان ، ورغم اننى كنت في المنزل اساعد أمى واختى زيبكا التى اعاد ناظر المدرسة تسميتها بكلارا . وقليل ما كنت اذهب أنا وريچينا هامبورجر إلى المسرح أو السينما حيث كنت احكى قصة ما اشاهده على أمى وكلارا .

ووقع حادث هام في حياتى عندما كنت في الصف الرابع . اذ قمت بأول « عمل عام » لى عندما انشأت صندوقا لجمع الأموال اللازمة لشراء الكتب المدرسية لغير القادرين . وكانت تلك هى أول تجربة لى كجامعة تبرعات . لكنها لم تكن الأخيرة . وقمت باستئجار قاعة ووجهت الدعوات باسم جمعية الاخوات الامريكيات الصغار . والقيت كلمة حول اهمية توافر الكتب للتلاميذ والقت اختى كلارا مقطوعة من الشعر الاشتراكى بلغة اليبديش . وقد امطروالداى وكلارا وأنا بالمديح والثناء على ما قمنا به . لكنى تمنيت أن تكون شينا موجودة . ثم ارسلت اليها صورتى التى نشرتها احدى صحف ميلووكى

وكانت أمى قد الحت على أن اكتب كلمتى . لكنها كانت نابعة مما اشعر به في قلبى . وقد بقيت على هذا النمط طيلة نصف قرن . ففيما عدا البيانات الحكومية الرسمية في الأمم المتحدة أو الكنيست (البرلمانى) فقد كنت افضل دائما ان « القى كلمتى من دماغى » كما وصفتها في رسالتى لشينا في صيف عام ١٩٠٩ .

وخلال فترة عطلة الصيف ، عملت أنا وريچينا لأول مرة في أحد المحال الكبرى . حيث كنا نلف الطرود أو نلبى بعض طلبات الزبائن واستطعنا جمع عدة دولارات كل اسبوع واعفيت من الوقوف في دكاننا

طيلة اليوم . وحل والدى محلى على مضض . وكنت اشعر بالاستقلالية عندما اقوم بكى ملابسى كل مساء واستيقظ في الفجر لأسير مسافة طويلة الى عملى . واشترت اول شىء من نقود اكسبها وكان معطفا شتويا .

وانهيت دراستى الابتدائية في الرابعة عشرة من عمري . وبدا المستقبل مشرقا امامى فيها انذا سوف التحق بالمدرسة العليا . بل ربما اصبحت مدرسة وهو ما كنت اتمناه . كنت ارى ومازلت - ان التدريس هو أنبل المهن . فالمدرس يفتح آفاق الدنيا أمام تلاميذه . وكنت اعلم اننى قادرة على التدريس . وكنت أنا وريجينا وساره نقضى الامسيات ونحن نتحدث حول مستقبلنا وما نريد ان نكون . اما الزواج فكنا نراه امرا بعيدا لا يستحق الحديث .

أما أمى فقد كانت ترى أننى وقد نلت هذا القسط من التعليم واجدت اللغة الانجليزية بعد أن نما قوامى . ان بإمكانى ان اعمل في الدكان طيلة اليوم . وأن اسرع بالتفكير جديا في الزواج خاصة وان قوانين الولاية كانت تحرم زواج المدرسات . اما اذا اعتزمت مواصلة الدراسة فكانت ترى ان اتعلم السكرتارية والاختزال . على الاقل حتى لا اغدو عانساً . ووافقها أبى على ذلك قائلا ان الرجال « لا يحبون الفتيات الأذكياء » . وكما حدث مع شينا . فإنى حاولت افناعهما بكل الوسائل اننى لا اريد الزواج في الوقت الحاضر . وان التعليم امر هام حتى للسيدة المتزوجة واننى افضل الموت على العمل كسكرتيرة .

لكن توسلاتى ودموعى ذهبت سدى اذ كان والداى يريان في ذهابى إلى المدرسة نوعا من الرفاهية غير مطلوب ونجعتنى شينا في رسائلها من دثتر هى وشاماي حيث لحق بها هناك بعد ان شفت من مرضها . وابلغانى انهما برغم تحذيرات الطبيب المعالج . قد فررا

الزواج . وكانت تلك اسعد الزيجات التي مرت في حياتي . والتي استمرت - برعم تحذيرات الطبيب - ثلاثة واربعين عاما وانمرت ثلاثة أظمال . واستاء والداي . وخاصة أمي . من هذه الالباء . أما بالنسبة لى فكان الامر يعنى انه قد اصبح لى أخ اخيرا .

وبرغم استمرار الخلاف فقد التحقت في خريف عام ١٩١٢ بالمدرسة العليا . وكتب اقوم خلال عطلات نهاية الأسبوع بأعمال مختلفة كما لا اطلب من والدى اموالا . ورغم ذلك فقد استمر الخلاف . وكانت القصة النى فصمت ظهر البعير هى محاولة أمي ايجاد زوج لى . كانت لا تريد لى الزواج فورا . ولكنها كانت تريد لى زوجا قادرا (لا غنيا بالطبع فذلك امر بعيد عن الذهن) . ثم قبين لى انها تتفاوض مع رجل طب و ميسور الحال من جيراننا هو المستر جودستين لكن عمر هذا الرجل كان ضعف عمري !! وسارعت بكتابه رسالة ملتهبة إلى شبنو . بلفب ردا عليها برجوع البريد . وفي هذا الرد وجهت شينا وشامان الدعوى لى للحاق بهما في دنقر حيث بمكننى - كما قال لى - ان اواصل دراسنى وان احصل على كل ما احتاجه من طعام وملبس

مست هذه الرسالة الرفيفة شغاف قابى . وكانت بمثابة نقطة تحول في حياتى : ففى دنقر بدأت دراسنى الحقيقية ونموى الفعلى صحيح اننى لم اكى سأزوج المستر جوردون وكنت سأستمر في نوع من الدراسة : لكن هذه الرسالة التى جاءتنى في شهر نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٢ كانت بمثابة جبل انقاذ . وقد تمسكت به . اما اخر رساله من شبنو قبل لحاقى بها في دنقر . فقد تضمنت نصيحة منها ان « أهم شىء هو الا أنور » وان اهدأ واتصرف ببرود . فبه هى الوسيلة الكفيلة بتحقيق افضل النتائج « وكوسى شجاعة » . - ظلت هذه النصيحة رائدة لى حتى عمري كله .

لم يكن الاعداد للسفر سهلا فلم نكن نتوقع ان يوافق والدائ . ولذا كان القرار هو السفر ببساطة دون ابلاغهما وقدمت لى ريچينا كل المساعدات اللازمة سواء فى جمع نفقات السفر أو الاعداد له (ولعلها كانت تظن انى سوف اهرب مع عتيق . أو بتهريب (صرة) ملابسى ليلا .

وفى ليله السفر كتبت رسالة لوالدى ابلاغهما اننى قررت العيش مع شينا لكى اتمكن من الدراسة واننى سوف اكتب لهما من دنفر ولم اختر الكلمات بعناية . فقد كنت فى الخامسة عشرة والمتاعر المختلفة تجتاحنى ودخلت إلى الغرفة التى تنام فيها احنى كلارا وفيلنها وأنا أوقن أن سفرى سيجعل حياتها وحدها فى المنزل مع والدى اكثر يسرا وسهولة .

وفى الصباح المبكر توجهت إلى المحطة فى انطار الفطار . وقد سهى على أن أحسب حساب مواعيد فيام الفطار .. اد كان والدائ قد قرأ رسالتى لهما . لكننى - كما يقول المنزل بالبديس - كان حطى أكبر من عقلى . فلم بفكر احد فى البحث عنى فى المحطة مسح اننى اذيت مشاعر والدى بهذا السفر لكنه كان امرا ضروريا بالنسبة لى . وخلال العامين اللذين قضيتهما فى دنفر كنت اكتب الرسائل لوالدى . وبلغت من والدى ردا . واحدا وعدة ردود من امى .

وتلقيت رسالتين من كلارا وريچينا بصفان لى رد الفعل الذى حدث فى منزلنا . كانت رسالة كلارا مليئة بالانهامات . ووصفت لى كيف بكت امى كثيرا ثم جفت دموعها وتوجهت إلى منزل أم ريچينا ليتحدثا عن المساعدة المشينة التى قدمتها لى استها اما رسالة ريچينا فكانت مليئة بالاعتذارات وحكت لى فيها كيف تصوروا اننى هربت سرا مع شخص إيطالى .

وانتمتحت الدنيا أمامى بالفعل في دثقر . رغم ان شينا وشامای تشددا معى في بمعاملتهمما مثل أبوى وكان شامای يعمل نصف الوقت حارسا لشركة التليفونات ويبقى في المغسلة التى يمتلكها بقية الوقت وهكذا تقرر ان اذهب إلى المدرسة بعد الظهر . على ان احل محل شامای في المغسلة صباحا وهناك يمكنى تأدية واجباتى المدرسية فإذا أراد أحد الزبائن كى ملابسه قممت بذلك أيضا .

وكانت شينا . خلال الامسيات . تلح على في انتهاء واجباتى المدرسية . لكننى كنت افضل على ذلك الجلوس مع الأصدقاء الذين تستمر مناقشاتهم السياسية إلى ساعة متأخرة من الليل . وكان المنزل قد تحول إلى مركز لليهود الروس المهاجرين إلى الغرب الذين يتلقون العلاج من السل في دثقر . كانت الغالبية العظمى منهم من العزاب . وكان بعضهم من الفوضويين والبعض الآخر من الإشتراكيين والبعض من الصهاينة الإشتراكيين . كما انهم جميعا كانوا اما مرضى تم شفاؤهم أو مازالوا يعالجون . وكانوا يتناقشون بل ويتشاجرون . حول ما يجرى في العالم من احداث وما يجب أن يكون كانوا يتحدثون عن الفلسفة الفوضوية لإيما جولدمان وبيتر كروبتكين . وعن الرئيس ولسون والموقف الأوروبي . وعن الحلول السلمية . ودور المرأة في المجتمع ومستقبل الشعب اليهودى . وكانوا يحتسون أكواب الشاى بالليمون الواحد وراء الآخر وكنت اتطوع بتطهير الاكواب من العدوى بعد مغادرتهم المنزل .

وكنت بطبيعة الحال اصغر الموجودين في هذه الاجتماعات . ولم تكن معلوماتى في لغة اليديدش تسمح لى بمتابعة كل ما يقولون ولم أكن اعرف ما هى الجدلية . بالضبط . ولا من هو هيجل او كانت او شوبنهاور . لكننى عرفت أن الاشتراكية تعنى الديمقراطية وحق

العمال في حياة افضل وفي ان يعمدوا ثيابا ساعدا ، والا يدفعوا نحت نير الاستغلال . وفهمت ان الطعام ينبغي الإنماء بهم لكنى لم اتقبل على الاطلاق فكرة الديكتاتورية . حتى وان كانت للبروليتاريا . وكنت اولى اهتمامى للاسماع إلى من سجدون بالذات عن الصهيونية الاشتراكية ، وكانت فلسفتهم ذات مغزى كبيرا لدى فقد فهمت وتجاوبت كلبة مع فكرة الوطن القومي لليهود - في مكان على وجه الأرض يمكن لليهود فيه ان يكونوا احرارا مستقلين - وكانت اؤمن كقضية مسلم بها انه في مثل هذا المكان لن يوجد محتاج ولا من يقع ضحية للاستغلال او للخوف من الاخرين . وكنت اولى اهتماما بنوع الوطن القومي اليهودى الذى يريد الصهيونيون خلقه في فلسطين . اكثر من اهتمامى بالموقف السياسى في دنقر او حتى وما يحدث في روسيا .

وهكذا كنت اهتم بكل الموضوعات التى تدور حولها النقاش في منزل شينا . لكنهم يخادون بنحدرتون من اناس مثل أعارون دافيد جوردون الذى ذهب إلى فلسطين عام ١٩٠٥ وساهم في تأسيس مستعمرة دجانيا (التى افيم بعد ذلك بثلاثه اعوام . حتى كنت احلق في سماءات ساحرة مطلقة . واجد نفسى احلم باللاحاق بالرواد في فلسطين ولا اذكر أول من حدثنا عن جوردون . لكننى اذكر جيدا انه حدثنا عن هذا الرجل ذى اللحية البيضاء الذى وصل الى فلسطين وهو في الخمسين من عمره لكى يملح الارض ويزرعها . رعم انه لم يزاول عملا يدويا من قبل . تم يكتب عن " ديس العمل " كما اصبح مريدوه يعرفون مبادئه بهذا الاسم . وكان ايمان جوردون بأن بناء فلسطين هو اكبر مساهمة تقدمها اليهودية للانسانية وسجد اليهود في أرض إسرائيل الفرصة لصنع مجتمع عادل من خلال سماهم الجسماني .

وتوفى جوردون عام ١٩٢٢ . بعد عام من وصولي الى فلسطين . ولم
أره . مطلقا لكنني اعتقد ان هذا الرجل فقط . من بين كل المفكرين
والتوربين الذين سمعت عنهم هو الذي كنت اتمني ان اعرفه شخصا
وان يذبله احناذي .

كذلك فتتلى القصة العاطمية لراشيل بلوستاين . وهي . فتاة
روسية جاءت إلى فلسطين في نفس الوقت تقريبا مع جوردون وبأثر
به إلى حد كبير . وكانت شاعرة موهوبة . عملت في الزراعة في
مبعمرة جديدة قرب بحر الجليل وهناك كتبت اجمل اشعارها .
ورغم انها لم تكن تعرف كلمه واحدة باللغة العبرية قبل محيها إلى
فلسطين . فابها اصيحت واحدة من أول الشعراء المحدثين المعبرية . وتم
تلحين معظم اشعارها ومازالوا يغنونها في اسرائيل . ثم سقطت فريسة
للسل (وماتت في الاربعين) وكنت قد سمعت عنها في دنشر من اناس
كانوا بعرفونها في روسيا .

وكلما اتتدت السخرية من جيلنا وحماسه وولائه . كلما اتجه
تفكيرى نحو المثقفين الثوريين امثال جوردون وراشيل وغيرهما من
الرواد في مطلع هذا القرن . لقد كانوا ابناء تجار ومثقفين بل وعائلات
موسرة اندمجت مع غيرها من غير اليهود . ولو كانت الصهيوتية فقط
هى حافزهم الوحيد لكانوا قد جاءوا إلى فلسطين واشتروا بيارات
البرنتال واستأجروا العرب للقيام بالعمل فيها . واذا كان الامر اسهل .
لكمهم كانوا تقدميين حتى اعماقهم آمنوا بأن العمل اليدوى قادر على
نحرير اليهود من عقلية الجيتو (الحى اليهودى المغلق) وتيسير اصلاح
الارض وكسب الحق المعنوى فيها . بالاضافة إلى الحق التاريخى وقد
جمع فيما بينهم حبهم للتجربة وبناء مجتمع مختلف عن العالم كله .
واسى لعلى يقين من ان المجتمعات التى بنوها وهى كيبوتزات اسرائيل

- قد استمرت فقط بسبب المل الاجتماعي الثورى الأصيل الكامن وراءها .

على أية حال ، لعبت هذه الليالى من النقاش في دنشر دورا هاما في تشكيل معتقداتى في المستقبل وفي رفض أو قبول الافكار . لكن اقامتى في دنشر كانت لها نتائج اخرى ايضا . كان هناك واحد من الزوار ، رقيق الحاشية ، عذب الحديث هو موريس مايرسون ، الذى كانت اخته قد التقت بشينا في المصحة وكانت عائلته قد هاجرت من لتوانيا مثلنا إلى امريكا ، وكانوا فقراء ، وكان ابوه قد توفى وهو صغير فاضطر إلى العمل كى يعول امه وثلاث اخوات . وعندما التقينا كان يعمل خطاطا .

ولم يكن صوته يعلو حتى في اعصف الجلسات ، لكنه جذب انتباهى باختلافه عنى وعن كل اصدقاء شينا في انه كان يعرف شينا لا نعرفه جميعا اذ كان يحب الشعر والفن والموسيقى وبفهم الكثير عنها ، وكان على استعداد لان يتحدث طويلا عن هذه الامور لاي انسان مهتم (او جاهل بها) منلى وعندما بوتقت المعرفة بيننا ، كان يصطحبنى الى الحفلات الموسيمية في الحدائق ويشرح لى دقائق الموسيقى الكلاسيكية ، او يقرأ لى لبايرون وشيللى او رباعيات الخيام . او يأخذنى لسماع محاضرات في التاريخ والأدب والفلسفة وكان ذلك ابان ربيع وصيف عام ١٩١٣ .

وقد تملكنى اعجاب هائل بموريس - اكثر من اى شخص اخر فيما عدا شينا - لا بسبب معلوماته الواسعة فحسب بل ايضا لرفته وذكائه وروحه المرحه كان يكبرنى بستة اعوام ، لكنه كان يبدو اكبر منى رزانة وثباتا ودون ان ادري وقعت في حبه ، واحببى هو الاخر لكننا لم نبج لبعضنا بمشاعرنا .

ومن حسن الحظ ان شينا كانت مغرمة بموريس فسمحت لى برؤيته مرارا ، لكنها اصرت بشدة على ضرورة الاهتمام بما جئت من اجله من ميلووكى وهو الدراسة ، واستمرت تراقبنى كالصقر وازدادت الرقابة حتى شعرت بالقلق والضيق واثرتعنيف شديد من شينا قررت ان الوقت قد حان لكى اعيش بمفردى وغادرت المنزل بملابسى التى كنت ارتديها طوال اليوم دون ان احمل حتى لباسا لليل .

وبحثت عن مأوى إلى ان دعانى اثنان من اصدقاء شينا للبقاء معهما وكان الاثنان في مراحل متقدمة من مرض السل ولا اجد سوى ما كانت أمى تسميه « حظ الحمقى » سببا لعدم اصابتى بالعدوى وكان سكنهما في غرفة بها كوة ومطبخ وكانا ينامان مبكرا لمرضهما فلم اكن استطيع استعمال الضوء للقراءة . وهكذا لم اكن اجد امامى سوى الحمام حيث كنت الف نفسى ببطانية واستغرق في قراءة اكوام الكتب التى يعطيها لى موريس .

وعندما بلغت السادسة عشرة وكنت قد عثرت على مكان اقيم فيه وصلت إلى قرار بأن المدرسة العليا لا مجال لها في حياتى الآن ووجدت ان التلاؤم مع الحياة بمفردى اكثراهمية من التعليم والتحقّت بعمل في قياس الجونلات الجاهزة وما زلت حتى يومنا هذا امسك بحافّة اية جونلة واخيط مثلها بكل ثقة .

وكنت أشعر بالوحدة والوحشة خاصة في الاوقات التى لم يكن موريس فيها معى . وكنت أتمنى لو عدت إلى شينا وشاماي وطفلتهم جوديث ، لكننا بنعاندا لم نكن على استعداد للاعتراف بالخطأ وكان لى أنا وموريس صديق جاء من شيكاغو هو يوسيل كابلوف الذى اصر على العمل كحلاق لكى يجد وقتا للقراءة .

وبعد ان بفيت وحدى عاما كاملا . نلقيت رسالة من أبى هى
الوحدة التى كتبها لى خلال هذه الفترة وكانت الرسالة مختصرة
وواضحة ، اذا كانت لحياة أمى قيمة فيجب أن احضر فوراً . وفهمت
على الفور أن القيام بالكتابة إلى وابتلعه لكرامته يعنى ان البيت في
حاجة إلى وجودى وتناقشت مع موريس في الأمر واستقر رأينا على أن
اعود إلى ميلووكى وإلى عائلتى والمدرسة العليا . رغم أن ذلك كان
يعنى أن انرك موريس في دنشر إلى أن تبرأ اخته من مرضها . وفي
الليلة السابقة لسفرى ، ابلغنى موريس - على استحياء - انه يحبى
ويريد أن يتزوجنى - وبسعادة - وباستحياء مماثل - ابلغته اننى احبه
ايضا . لكننى مازلت صغيرة على الزواج واتفقنا على أن ننتظر على أن
نستمر علاقتنا طى الكتمان وان نواصل الكتابة لبعضنا وسافرت إلى
ميلووكى والبهجة تغمرنى .

الفصل الثالث

اننى أختار فلسطين !

وجدت المنزل قد تغير . فقد تحسن المستوى الاقتصادى لوالدى واصبحت كلارا في سن المراهقة . وكانت العائلة قد انتقلت الى شقة جديدة في شارع يموج بالناس والحركة . وكان والدائ يسلمان بأننى سوف ادخل المدرسة العليا . بل انهما لم يحتجا بالمرّة عندما تخرجت منها والتحقّت في أكتوبر (تشرين الأول) بكلية تدريب المعلمين . ولا أظن انهما كانا يعتقدان أننى في حاجة الى مزيد من التعليم لكنهما تركانى افعل ما اريد . وتحسنت علاقتى بهما وان تشاجرت اامى معى احيانا . وكانت احدى هذه المشاجرات حول رسائل موريس لى . اذ كانت ترى ان من واجبها أن تعرف كل شىء . بل انها دفعت اختى كلارا الى قراءة مجموعة من هذه الرسائل وترجمتها لها الى اليبديش اذ كنا نتبادل الرسائل بالانجليزية . وبعدئذ افشت لى كلارا هذا السر واقسمت انها لم تخبر ابى بما حوته الرسائل من امور شخصية . واصبحت رسائل موريس ترد لى بعدئذ على عنوان ريچينيا .

لم تحاول اامى تنمية شخصيتها . وبقيت على حبها لبينسك . وتعلّمت منها فنون الطبخ اليهودى الذى مازلت اطهوّه حتى الآن . وان كان انى واحد احفادى لا يحبانه . ولم يكن منزلنا يخلو من الحشوف .

وخلال الحرب العالمية الاولى حولت امى منزلنا الى مقر للشباب المتطوعين في الفيلق اليهودى وهم في طريقهم للحرب تحت العلم اليهودى في اطار الجيش البريطانى لتحرير فلسطين من الاتراك . وهكذا فان معظم من انضموا من ميلووكى الى هذا الفيلق (وكانوا معافين من التجنيد لانهم مهاجرون) قد غادروا منزلنا حاملين اوشحة الصلاة التى طرزتها امى في حقائب صغيرة مع حقائب كبيرة مملأى بالطعمة المطبوخة في فرنها . وبهذا ادارت منزلا مفتوحا بقلب مفتوح .

وارتبط ابى ايضا بالحياة اليهودية في المدينة . وكان معظم الذين مروا بمنزلنا في تلك السنين من الاشتراكيين (الصهيونيون العماليون) في الشرق ومن ال « بنائ بريث » (وهى التآلف الاخوى اليهودى الذى انضم اليه أبى) . باختصار اصبح والدائ منغمسين كلية . واصبح منزلهما نوعا من المؤسسة ، بالنسبة لما يتعلق بالمجتمع اليهودى في ميلووكى أو زائربه . وكان من بين الذين قابلتهم اناس اثروا الى حد كبير لا في حياتى فحسب بل في الحركة الصهيونية ، وخاصة الصهيونية العالمية ، ومنهم من اصبح من الابهاء المؤسسين للدولة اليهودية .

من بين الأناس الاولين اذكر مثلا نعمان سيركين وهو يهودى روسى هاجر الى الولايات المتحدة بعد عام ١٩٠٥ وأصبح زعيما للبوعالى زيون (الصهيونيون العالميون) في أمريكا . وكان سيركين يؤمن بأن الامل الوحيد لليهود (الذين اسماهم « عبيد العبيد » أو « بروتيتاريا البروليتاريا ») يكمن في الهجرة الجماعية لليهود الى فلسطين ، وكان يدعو الى احياء اللغة العبرية في حين كان امثال الدكتور حايم زيتلوفسكى يدعون الى التمسك باليديش كلغة قومية لليهود .

وهناك ايضا شماريا ليثن اعظم خطباء اليهود في هذا العصر ، الذى سحر آلاف اليهود في كل انحاء العالم والذى كنا انا وصديقتى نعبده . وكان يتميز بالمرح . ويقول لنا مثلا ان فلسطين بلاد رائئة يمكن فيها قضاء الشتاء في مصر والصيف في جبال لبنان . وقد انتقل الى فلسطين في عام ١٩٢٤ وكثيرا ما كنت القاه .

اما اوائل الفلسطينيين الذين قابلتهم فكانوا اسحق بن زقى (الذى سيصبح الرئيس في دولة اسرائيل) ودافيد بن جوريون . وكانا قد جاا الى ميلووكى لتجنيد اليهود في الفيلق اليهودى عام ١٩١٦ . وذلك اثر نفيهما من فلسطين بواسطة الاتراك والتنبيه عليهما بعدم العودة مطلقا . وكانت تلك هى اول مرة اسمع فيها قصصا عن هؤلاء القوم او اراهم . وعرفت مدى ما يعانون تحت حكم الاتراك . وكانا على قناعة بأن من الممكن طرح المطالبة اليهودية بأرض اسرائيل بعد الحرب . شريطة ان يلعب الشعب اليهودى دورا عسكريا ملموسا في الحرب بوصفهم يهودا . وبلغ من حماسى لما سمعته ان قررت التطوع في الفيلق اليهودى . لكنى تحطمت عندما علمت انهم لا يقبلون الفتيات .

اصبحت لدى معلومات بالطبع عن فلسطين . لكنها كانت نظرية .. اما هؤلاء الفلسطينيون فلم يحدثونا عن الرؤية او النظرية الصهيونية ، وانما حدثونا عن واقعها .. عن الخمسين مستوطنة يهودية التى تم انشاؤها .. عن مستوطنة جوردون .. عن تل ابيب التى تم وضع اساساتها على ابواب يافا .. وعن الهاشومير (وهى المنظمة التى انشاها اليهود للدفاع عن انفسهم) ... وحدثنا بن زقى عن امرأة تدعى راثيل بانيت (ستصبح زوجته فيما بعد) كنموذج للمرأة اليسوف (المجتمع اليهودى في فلسطين) التى اثبتت ان المرأة تستطيع ان

تشارك كزوجة وكأم وكرفيقة للسلاح دون ان تشكو وباخلاص كبير .
وبدا لى ان هذه المرأة وامثالها يدفعون قضية جنس المرأة قدما - دون
اية رعاية - اكثر مما فعلته اشد المدافعات عن حقوق المرأة .

وكنت انتهاز كل فرصة لكى استمع الى هؤلاء الفلسطينيين ، وهم
يجتمعون حول المائدة يغنون بالبيديش ويجيبون على اسئلتنا عن
فلسطين بكل صبر . ولم يكن من السهل التحدث مع بن جوريون
بعكس بن زفى الذى كان رقيقا في سلوكه وحديثه . اما بن جوريون
فإننى لم اقبله اذ كان مقررا ان يلقي كلمة في ميلووكى . في نفس
الليلة التى كان موريس (الذى كان في ميلووكى عندئذ) قد دعانى
الى حفل موسيقى . وعابا على عدم استماعى للكلمة التى القاها ، فقد
تقرر الغاء غداء له في منزلنا . وقد التقيت بين جوريون فيما بعد ،
لكننى اذكر اننى بقيت اخشاه فترة طويلة . وكان من الشخصيات
التي لا يمكن التقرب منها بسهولة او السعى لمعرفتها .

وببطء بدأت الصهيونية تملأ عقلى وحياتى . وتعاضم ايمانى
بأننى كيهودية انتمى الى فلسطين واننى كصهيونية عمالية استطيع اداء
واجبى في تحقيق اهداف المساواة الاجتماعية والاقتصادية . ولم يكن
الوقت قد حان بعد لكى أقرر العيش هناك . ورفضت ان انضم الى
الحزب الصهيونى العمالى الى ان اتخذ قرارا ملزما .

وفي نفس الوقت كانت هناك المدرسة وموريس . وكان تراسلنا
مستمرا . واذا ما قرأت رسالة بعد كل هذه السنين فاننى اجد فيها
الماسى والمخاوف التى تمر في حياة كل فتاة . لماذا لم يكن لى شعر
اسود وعيون كبيرة براقة ؟ لماذا لم اخلق اكثر جاذبية ؟ كيف احبنى
موريس ؟ هل هو يحبني حقا ؟ ولا ريب اننى كنت اعد رسائل لى له
بههدف خفى هوان اتلقى منه التأكيدات ، وكان دائما يوافيني بهذه

التأكيدات برغم انه لم يكن يراعى «س» صياغتها . فمثلا يقول لى
« لقد طلبت منك مرارا الا تعارضينى في مسألة جمالك » او « انك
تقفزين لى بين الحين والحين بنفس الملاحظات الخجولة والناقدة التى
لا استطيع احتمالها » .

وحاولنا في بعض الرسائل ان نرسم خططا مشتركة للمستقبل كانت
تنتهى دائما بفلسطين . لكنه بطبعه العاطفى كان اقل تأكدا من
الصهيونية منى .. فكان يحلم بعالم يسوده السلام . اما الحكم الذاتى
القومى فلم يكن يستثيره . ولم يكن يعتقد ان دولة ذات سيادة يمكن
ان تخدم اليهود حقا ، فتلك لن تخرج عن كونها دولة اخرى بكل
ما في الدولة من مشاكل . وفي احدى رسائله في عام ١٩١٥ قال لى انه
لا يدرى ان كان سعيدا او أسفا بحماسى القومى . وانه لم يشارك في
احد الاجتماعات اليهودية لانه لا يهتم كثيرا بقضية ان يعانى اليهود
في روسيا او في الارض المقدسة .

وفي عام ١٩١٥ كان ابى قد شرع في مجموعة من اعمال الاغاثة
لل يهود . عملت فيها معه . فتوثف علاقاتنا بعض . وخلال
الحربين العالميتين قامت « لجنة التوزيع المشتركة » بدور هام لاغاثة
اليهود . وكان مقر اللجنة في نيويورك يتعرض لانتقادات واسعة .
فقررت الجماعات العمالية اليهودية تأسيس منظمة خاصة بها هى
« لجنة الشعب للاغاثة » وانضمت اليها انا وابى . وكان ابى يمثل
اتحاد التجارة بينما كنت انا امثل جماعة ادبية صهيونية عمالية
صغيرة . وكانت هذه الجمعية - التى لا اذكر اسمها - تدعو محاضرين
من شيكاغو لعقد ندوات حول الادب اليبديش .

وولدت قرب نهاية الحرب حركة يهودية كبيرة هى المؤتمر
الامريكى . التى لعبت دورا كبيرا في تشكيل المؤتمر اليهودى العالمى في

الثلاثينيات . ورغم ان البوند (التى انتقلت الى امريكا) لم تعارض
أنئذ في تشكيل المؤتمر ، فانها عارضت بشدة توجيهه نحو فلسطين .
وفي عام ١٩١٨ جرت في كل انحاء امريكا الانتخابات للمؤتمر ، وكانت
تلك هى اول مرة يجرى فيها اليهود انتخابات خاصة بهم . وانضمت
أنا وابى الى المؤتمر مؤيدين وقوفه مع الصهيونية في مواجهة البوند .
وقررت ان اخوض الحملة الانتخابية في انسب الاماكن وهى
المعابد اليهودية . فكنت اقف فوق صندوق خارج المعبد لاطلب في
الناس . واثارت ثورة ابى الذى رفض ان تقف ابنته في الشوارع
لتتحدث للناس . ووقفت اوى بيننا كحكم في مباراة . واقسم ابى ان
يشدنى من ضفيري امام الناس اذا ما عدت لذلك . ولم آبه لذلك
لكننى طلبت من صديقاتى الوقوف عند ناحية الشارع لتحذيرى اذا
ما رأينه . والقيت كلمة . وبعض من الخوف يعتربنى . ثم عدت الى
المنزل لكى اجد اوى نائما ولتخبرنى اوى انه جاء وسمع كلامى كله
لدرجة انه نسى وعيده . وكانت تلك هى انجح الخطب التى القايتها
في حياتى .

وكنت قد بدأت العمل بالتدريس في مدرسة يهودية في المركز
اليهودى في ميلووكى . حيث كنت اقوم ايام السبت والاحاد بتعليم
اللغة اليديش والادب والتاريخ . وتلك هى اللغة الدافئة . الطبيعية .
التى وحدت شعبا مشتقا . لكننى الان اجدنى في تلك الايام متعصبة
لليديش .. اذ كنت لا اقرا ابدا خلط اليديش بالانجليزية . وانه
لا بد لليهود في فلسطين ان يتحدثوا بلغتين . العبرية والييديش ..
فلا يمكن ان تزول الييديش في فلسطين . بالذات . بل ان كل من
يريد الانضمام للبوغالى زيون لا بد ان يعرف الييديش . لكننى
لو كنت اعلم ما يخبئه القدر لتعلمت العبرية . صحيح اننى تعلمتها

عندما ذهبت الى فلسطين . لكنى لم أتفوق فيها ابدا مثل تفوقى في
اليديش .

وقررت تنظيم مسيرة احتجاج في المدينة اثر المذابح المعادية للسامية
في اوكرانيا وبولندا . وعندما دعانى أحد اصحاب المتاجر الكبرى في
المدينة . وهو يهودى . وابلغنى انه سيفادر المدينة لوقمت بهذه
المسيرة . لم اعره أى اهتمام وبيئت له ان تعاطفنا مع اليهود وراء البحار
كفيل بكسب تعاطف المدينة معنا . وقد نجحت المسيرة وساهم فيها
المئات من اليهود . وهنا لا بد من ان اشير الى ان ميلووكى هى المكان
الوحيد الذى لم اشهد فيه اى معاداة للسامية . على الرغم من أننى كنت
اعيش في حى يهودى ولا اختلط الا باليهود ولم تكن لى صداقات مع
غير اليهود . وبقيت على هذا النحو طيلة عمرى .

واعتقد اننى خلال سيرى في المسيرة في هذا اليوم اكتشفت اننى
لا يجب أن اؤجل قرارى بالسفر الى فلسطين . مهما كان ذلك قاسيا
على اعز الناس لى . وشعرت ان فلسطين . وليس السيارات في
ميلووكى . هى الاجابة الوحيدة على مذابح اوكرانيا . وان اليهود يجب
ان تكون لهم ارضهم الخاصة بهم مرة ثانية . واننى يجب ان اساعد في
ذلك . لا بالخطب ولا بجمع التبرعات . بل بالعيش والعمل هناك .
وكأول خطوة لى نحو فلسطين . انضمت الى حزب الصهيونيين
العماليين (بوعالى زيون) . ومع ان العضوية كانت لمن بلغ الثامنة
عشرة . فقد قبلت عضويتى وانا في السابعة عشرة . واصبح على الآن ان
اقنع موريس بالذهاب معى الى فلسطين .

كنت اعلم ضرورة بقاءنا عاما أو اثنين الى أن نجتمع أجر السفر .
لكننى أردت أن يعلم موريس اننى قد صممت على ان اعيش هناك
كنت اتوق الى الزواج منه وكنت مصرة على الذهاب الى فلسطين :

وقلت له « اتوسل اليك ان تأتى معى » فأجابنى بأنه يحببنى لكنه يحتاج الى وقت لاتخاذ قرار بشأن الذهاب لفلسطين . ولعله - كما استتف الان من قراءة رسائله - كان يفكر مليا فيما اذا كانت حياتنا سويا سوف تنجح مع وجود هذه الاختلافات بين شخصيتينا .

وترك المدرسة . وسافرت الى شيكاغو حيث عملت في المكتبة العامة . والى شيكاغو ايضا جاءت شينا وشامى وطفلاهما . وكذلك ريچينا . وكنت اراهم كثيرا لكننى كنت تعيسة . اذ كان الخيار دائما امامى بين موريس وفلسطين . وكنت اقوم بنشاط حزبى واسع خلال وقت فراغى . الامر الذى انتزعنى دائما من الاهتمام بأمورى الخاصة . وهو ذات الموقف الذى سارت عليه حياتى في الستين عاما التالية .

لكن موريس . لحسن الحظ . وافق على الذهاب الى فلسطين معى . رغم تحفظاته حول فلسطين . ولا ريب ان قراره قد تأثر الى حد ما باعلان الحكومة البريطانية في عام ١٩١٧ تأييدها « لاقامة وطن قومى للشعب اليهودى في فلسطين » وانها سوف تستخدم « مساعدتها لتسهيل تحقيق هذا الهدف » . وقد جاء تصريح بلفور - كما سمى - (لكونه ممهورا بتوقيع جيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا انئذ) في شكل رسالة موجهة الى اللورد روتشيلد . وقد جاء في الوقت الذى كانت قوات الجنرال اللنبي قد بدأت تغزو فلسطين . وبرغم ان العبارات الغامضة التى جاءت في هذه الرسالة كانت مسئولة عن اراقة الدماء بلا نهاية في الشرق الاوسط . فان الصهيونيين في تلك الايام رحبوا بها باعتبارها على الاقل ارساء لقواعد الكومنولث اليهودى في فلسطين . ومن البديهي ان هذا الاعلان ملأنى بالبهجة .. لقد انتهى النفى اليهودى .. ولا شك اننى وموريس سوف نكون من بين ملايين اليهود الذين سيتدفقون على فلسطين .

في خضم هذا الحدث التاريخي تزوجنا في ٢٤ ديسمبر (كانون الأول / ١٩١٧ في منزل والدي . وكنا نريد زواجا مدنيا ، غير أن امي اصرت على أن يكون زواجنا تقليديا . رغم ان مبادئ الاشتراكية لا تؤمن به . واء الحاحها تم القران التقليدي على يدى الحاحام شونفيلد . وبقيت امي الى ان ماتت وهى تتحدث بفخر عن هذه الزيجة التى اجراها الحاحام شونفيلد .

بذلك بدأت حياتى الجديدة . كنت في العشرين . واستأجرنا غرفه اقمنا فيها سنين . ولان الحرب لم نكن قد انتهت فقد كان علينا ان نمظّر . واصبحت اقضى نصف وقتى تقريبا في السفر خارج ميلووكى لالقاء الخطب الحربية كصهونية عمالية . نظرا لاجادتي اللغنين الانجليزى والييديش .

وقرر الحزب اصدار صحيفة . وعهد إلى مهمة بيع الأسهم . ومارشنى امي لكن موريس فهم اننى لا استطيع معارضة الحركة . واستمرت مهمتى عدة اسابيع . كنت اتقاضى فيها ١٥ دولارا في الاسبوع . بالاضافة الى ثمن الوجبات دون حساب ثمن الحلوى والاييس كرم فكنت ادفعه انا . وكست ابيت في بيوت اعضاء الحزب بل في اسرتهم احيانا . وعندما وصلت الى كندا اكتشفت اننى لا املك جواز سفر لعبور الحدود . فلم يكن موريس قد اكتسب المواطنة . ولم يكن ممكنا استخدام جوار سفر ابى الذى بقى عاضبا منى . وتسلمت الى كندا . وما ان ترجلت من القطار حتى بدأت سلطات الهجرة في اسجوابى . اذ لم أت فقط من ميلووكى - وهى مدينة اشتراكية - وانما ايضا من روسيا . وبدا وكأنهم قد القوا القبض على عميل من البلاشفة لكن عضوا بارزا في الحزب الصهيونى العمالى هرع لاقادى .

واستطعت ترويج اسهم هذه الصحيفة (واسمها دىزايت ... اى التايمز) لكنها مع ذلك لم نعش طويلا .

كان موريس متسامحا ازاء غيابى الطويل عنه ، واعتقد الان اننى كنت استغل طبيته . ولم تكن رسائل الى تتناول علاقتنا بقدر تناولها للاجتماعات والخطب او للموقف في فلسطين . وكان يعزى نفسه بترتيب المنزل واعداه لاستقبالى عند عودتى ، او بالعناية بأختى كلارا واصطحابها الى حفلات الموسيقى والمسرح . وكان اكثر من في العائلة مصاحبة لكلارا ، فكانت تعبه وتخبه بكل اسرارها .

في شتاء عام ١٩١٨ عقد المؤتمر اليهودى الامريكى اول اجتماع له في فيلادلفيا . وكان هدفه الرئيسى صياغة برنامج (لتقديمه الى مؤتمر السلام في فرساي) بشأن ضمان الحقوق المدنية لليهود في اوروبا . وكان من دواعى دهشى واغتباطى ان اخترت من بين مندوبى ميلووكى . وكما احسست بالزهو وانا بين الوفد الذى يمثل مجتمعى ومدينتى . وعندما يسألنى الصحفيون عن البداية الحقيقية لحياتى السياسية ، فإنه سرعان ما تقفز الى مخيلتى وقائع هذا الاجتماع بمناقشاته الحارة التى كنت اجلس الساعات مستغرقة في سماعها . وكتبت الى موريس خطابا تملأه النشوة اصف له ما حدث بأن « هناك بعض الدقائق التى نصل فيها الذروة ونموت بعدها سعداء » .

لكن خطابات شينا لى لم تكن تملؤها النشوة . اذ كانت نحذرني من اننى انغمس في امور عامة اكثر من اهتمامى بشئونى الخاصة التى يجب ان اتمسك بها واحافظ عليها . وقد اكدت لموريس اننا عندما نصل الى فلسطين سوف اكف عن التحرك .

بحلول شتاء عام ١٩٢٠ بدأنا نعد عدتنا للسفر . فانتقلنا انا وموريس الى شقة في نيويورك شاركنا فيها ريجينا ويوسل كوبلوف . وتخلصنا من كل ما لدينا من امتعة واثاث . على اعتبار اننا سوف نقيم في الخيام في فلسطين . ولم نبق الا على الجراموفون والاسطوانات . وابتعنا بطاقات السفر على احدى البواخر . وبدأنا جولة لتوديع الاقارب .

وتوقعنا في شيكاغو لتوديع شينا وشاماي وابنتهما جوديث (١٠ سنوات) وابنتهما حاييم (٣ سنوات) وبعد ان حكينا لهما كل استعداداتنا فوجئنا بشينا تقول انها ايضا تريد ان تذهب الى فلسطين . ولم تكن المفاجأة شديدة الوقع . فشينا صهيونية منذ حداثتها . ومرتبطة بالقضية نفسها بشكل عميق . ويهمنى ان أؤكد انه لا شينا ولا موريس قد ذهبا معى الى فلسطين لحراستى . لكنهما فعلا ذلك لانهما وجدا ان فلسطين هى المكان الذى ينبغى ان يكونا فيه .

وكم كان شاماي رقيقا عندما وافق على سفر شينا مصطحبة اولادها ، لكنه طلب اليها فقط الانتظار الى ان تهدأ الامور في فلسطين . وكانت الاضطرابات الواسعة النطاق قد عمت فلسطين اثر الهجمات العربية على المستوطنات اليهودية في اول مايو (ايار) ١٩٢١ ومقتل اربعين من المهاجرين اليهود من بينهم واحد من ميلووكى . ولم تستطع السلطات البريطانية المدنية (التى تسلمت الامور من العسكريين) السيطرة على الموقف . لكن شينا اصرت على حزم امتعتها .

كان وداع عائلتى مؤثرا . اذ انهمرت الدموع من عيني ابى بينما بدت امى وكأنها تذكر رحلتها عبر المحيط . لكننا كنا على ثقة من

انهماء ، ومعهم ، من كلارا بعد ان تنهى دراستها في جامعة ويسكونسن
سوف يلحفون بنا في فلسطين .

وهكذا كانت صفحة حياتي في امريكا في سبيلها لأن تطوى . وقد
عدت اليها كثيرا في اوقات طيبة واخرى سيئة ، لكنني خرجت منها
ولدى الشيء الكثير . الفهم لمعنى الحرية - معرفة الفرص التي تتيحها
الديمقراطية الحقيقية للفرد - وحنينا دائما لجمال الريف الامريكى .
لكنني . لا أنا ولا شيئا . ندمنا على تركها والذهاب الى فلسطين .

ويمكنني ان اكتب كتابا كاملا عن رحلتى الى فلسطين على متن
هذه البخرة التعيسة . فلم تكن البخرة صالحة للسفر . وقد اضرب
البخرة حتى قل ان نطلع . وبدأنا الرحلة يوم ٢٣ مايو (ايار)
١٩٣١ . تم اعلان البحارة العصيان احتجاجا على الشركة الملاحية . ومضى
اسبوع الى ان وصلنا من نيويورك الى بوسطن . وهناك بقينا تسعة
ايام . وبعاءا وفد من الصحابة العماليين لزيارتنا والسرية عنا
ووصفوا بنا (وكما ٢٢ فردا في البداية) رفاقهم الاطال . ونزل من
البخرة ثلاثة من رملنا في بوسطن . وتلفت سينا برفية من شامى
يرحوها فيها النزول ايضا . لكنها رفضت .

وعندما وصلت البخرة الى جرر الازور تين القطان انها في حاجة
الى اصلاح يستمر اسبوعا . وتم القاء القص على اربعة من البحارة .
الذين لم تكن تورتهم قد انتهت . لانهم كانوا يعترمون اعرافى البخرة .
وعندما اقلعنا ثانية كان قد مضى علينا شهر من السفر . ثم انفجر براد
(تلاجة) البخرة فاضطررنا الى الاكفاء بالازور والشاى . ومات احد
الركاب فآلقوا بجثته من البخرة . ثم اصيب شقيق القطان بصلب في

جسده وهذيان فحبسوه في غرفته . واخيرا . وقبل ان نصل الى نابولي . اطلق القبطان الرصاص على نفسه . وان كان البعض يقولون انه قتل .

كانت الشائعات قد وصلت الى ذوينا اسنا غرقنا مع الباخرة . فما ان وصلنا الى نابولي حتى كنبنا اليهم بسلامتنا . ثم ركبا القطار - بعد خمسة ايام - الى برديزي . وهناك التقينا بمجموعة من الصهيونيين العماليين من لتوانيا . كانوا قد ذهبوا الى فلسطين مرتين لكنهم طردوا منها . وكانت تلك اول مرة اشاهد فيها « روادا » في نفس عمري . فشاهدت فيهم صورة الاخلاص والعزم الذي كنت احلم بأن اكونه . وظل هؤلاء متباعدين عنا متعالين علينا اذ كانوا ينظرون الينا على اننا مهاجرون « باعمون » من البورجوازية الامريكية ولن نحتمل البقاء في فلسطين لكثر من ثلاثة أسابيع .

وعلى متن الباخرة التي كانت ستقلنا الى الاسكندرية . اقترحت على رفقاني ان نترك غرفنا ونشارك المجموعة الليتوانية على السطح . والحجت عليهم اننا يجب ان نثبت اخلاصنا لاهدافنا بأن نحيا معهم نفس الظروف القاسية . خاصة وان راكبي السطح لاحق لهم في وجبات ساخنة . واخيرا وبعد تردد وافقوا . وزالت الحواجز بيننا وبين جماعة لتوانيا . وانطلقنا جميعا نغنى بالعبرية واليديدش .

وفي الاسكندرية صعد رجال الشرطة المصريون الى سطح الباخرة بحثا عن اثنين من « الشيوعيين » يدعيان رابابور . وتصادف وجود اثنين من زملائنا يحملان هذا الاسم . فأخذوهما وأعادوهما بعد ساعات طويلة مرهقة من التحقيق . وقد القى هذا الحادث علينا جميعا ظلالا من الخوف والقهر . الامر الذي جعلنا نقرر السفر بالقطار وتوجهنا الى المحطة لنسافر الى القنطرة واثناء الطريق الى المحطة ذقنا اول طعم

للشرق الأوسط بكل مرارته ، اذ شاهدنا جموع الشحاذين وهم يرتدون
الاسمال البالية والذباب يغطيهم . وعلى الفور قفزت الى ذهني صورة
شحاذي بينسك . وتصورت اننى سوف اصرخ لو ان احدا منهم لمسنى .
لكننا كنا قد تعودنا على المأسى ، فشققنا طريقنا وسط قدارة لا يمكن
وصفها . وكانت الحرارة شديدة ولم يكن هناك اى مصدر للماء .
واخيرا ركبنا القطار ، منهكين ، لكننا مع ذلك كنا نغنى فرحا
« بعودتنا الى صهيون » .

وفي القنطرة وجدنا المسؤولين عن الهجرة يعملون في ببطء لانهاء
اوراقنا . وقبيل الفجر تحرك القطار مخترقا صحراء جزيرة سيناء
متجها نحو فلسطين . وجلست على المقعد المترب ، افكر لأول مرة منذ
غادرت ميلووكى . هل سنصل حقيقة الى تل ابيب ؟!

الفصل الرابع

بداية حياة جديدة

لم أكن أتوقع أن تكون تل أبيب بهذا الشكل الذى رأيته من نوافذ
القطار صباح ذلك اليوم الحار من شهر يوليو (تموز) ، اذ بدت لى
كقرية كبيرة غير جذابة . ولم نكن نعرف عنها سوى أن ستين عائلة
من اليهود المتفائلين هى التى استتها فى عام ١٩٠٩ ، دون ان يحلموا
بأنها ستصبح عاصمة كبيرة يقطنها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة ، او انها ستصبح فى
عام ١٩٤٨ العاصمة المؤقتة لدولة اسرائيل .

وكان الاتراك قد طردوا كل سكان تل أبيب خلال الحرب ، لكننا
عند وصولنا اليها كان فيها ما يقرب من ١٥٠٠ نسمة . وكانت بعض
اجزائها جميلة تصطف فيها المنازل الانيتة بحداثتها وتخرقها شوارع
مرصوفة . غير أن اجزاء اخرى منها لم تكن المنازل فيها مبنية وفق اى
خطة أو تنسيق أو جمال . وكانت احداث واضطرابات يوم العمال فى
عام ١٩٢١ - قبل وصولنا بقليل - قد دفعت الى تل أبيب بمئات من
اليهود اللاجئين من يافا الذين ظلوا يعيشون فى اكواخ او خيام .

وكان جل سكان تل أبيب من المهاجرين الذين جاء معظمهم من
لتوانيا وبولندا وروسيا فيما سى بالموجة الثالثة للهجرة الصهيونية .
وكانت الغالبية العظمى منهم من العمال ، فى حين لم يخل الأمر من
بعض « الرأسماليين » الذين اقاموا مصانع صغيرة ودكاكين . وكان

الاتحاد العام للعمال اليهود (الهستدروث) قد قام قبل ذلك بعام .
وخلال اثني عشر شهرا ضم في عضويته اربعة آلاف عامل .

وعلى الرغم من أن عمر تل أبيب لم يكن قد تعدى الاثني عشر
عاما ، فإنها كانت تحت حكم ذاتي ، اذ سمحت لها حكومة الانتداب
البريطاني بأن تفرض ضرائبها على المباني وان تدير مرفق الماء فيها .
بل كانت فيها قوة شرطة خاصة تتكون من خمسة وعشرين رجلا .
وكان الشارع الرئيسي فيها (وهو شارع ثيودور هرتزل) يضم مدرسة
هرزليا العليا ، كما كان هناك حى تجارى وخزان للمياه يتجمع عنده
الشباب . وكانت وسائل المواصلات فيها اما سيارات اوتوبيس صغيرة او
عربات تجرها الجياد . وكان العمدة ، ماير ديرنجوف ، يمتطى خلال
جولاته حصانا رائعا أبيض اللون

وكانت الحياة الثقافية فيها مزدهرة . وقد استقر فيها عدد من
الكتاب من بينهم الفيلسوف اليهودى الكبير آحاد هاعام . والشاعر
حاييم نحمان بياليك . وكانت فيها مجموعة مسرحية من العمال ،
وعدد من المقاهى التى تجرى فيها مناقشات ساخنة حول الامور
السياسية والثقافية . لكن ذلك لم يكن واضحا امام اعيننا ونحن نقف
على محطة القطار دون ان نجد احدا في استقبالنا رغم اننا كنا قد
كتبنا بوصولنا الى من هاجروا الى فلسطين قبل ذلك بعامين . وعلمنا
فيما بعد ان هؤلاء كانوا في نفس هذا اليوم قد توجهوا الى القدس لانهاء
ترتيبات مغادرتهم فلسطين .

المهم ان حلمنا تحقق أخيرا ، وها نحن في تل أبيب ، في جزء من
الوطن القومى اليهودى . واثناء حيرتنا ونحن لانعرف ما هى وجهتنا
التفت واحد من الرفاق نحوى قائلا « حسنا يا جولدى لقد اردت
الجيء الى ارتزيسرائيل (ارض اسرائيل) وها انت فيها الان . وبمكننا

ان نعود - فهذا يكفى » . اننى لا اذكر من الذى قال ذلك ، لكنى اذكر اننى حتى لم ابتسم .

وفجأة جاءنا رجل ، يدعى باراش ، يملك فندقا ، طلب لنا عربة حملت امتعتنا وسرنا وراءها (منهكين) . وشاهدت خارج المحطة شجرة صغيرة ، وكانت أول شجرة أراها في هذا اليوم ، لكنها كانت رمزا يشبه المدينة من حيث نموها المعجز في قلب الرمال .

قضينا سحابة النهار في الفندق بعد أن اغتسلنا واكلنا واسترحنا . ولم يزعجنا الا وجود حشرة البق في الأسرة وفي صباح اليوم التالى طوعت شينا لشراء بعض الفاكهة للأطفال ، لكنها عادت مبتئسة تشكو من كثرة الذباب وعدم وجود حقائب او اكياس ورقية ، ولا اذكر اننى سمعت شينا تشكو ابدا من قبل من شيء . لكنى شرعت افكر في مقدرتنا على احتمال هذه المضايقات او أننا « ناعمون » كما وصفنا اصداقنا اللتواويون . واستمر احساسنا بالتعب والقلق والحرارة .

عاد اصداقنا من القدس ليضيفوا الى همومنا ، ما قصوه علينا من متاعب ستقابلنا . وقدموا لنا في العشاء (هامبورجر) يحمل طعم الصابون . اتضح فيما بعد أن قطعة من الصابون وقعت داخله . وعدنا الى الفندق نشعر بالغثيان والاكتئاب . وتبين لنا بعد ذلك أنه لا فائدة من بقائنا في الفندق اذ كان لابد لنا أن نضرب جذورنا في الارض كتلك الشجرة خارج المحطة .

وبدأت نقودنا تنفذ ، وان لم يكن احد يصدق ذلك باعتبار اننا جئنا من امريكا بل اننى قابلت سيدة في تل ابيب ما ان رأتنى حتى احتضنتنى وامطرتنى بالقبلات وهى تقول ، « شكرا لله انكم وصلتكم البيا من امريكا ايها المليونيرات » .

وكانت خطتنا في ميلووكي ان نتقدم لعضوية واحد من الكيبوترات . بل كنا قد اخترناها بالفعل . لكنهم ابلغونا ان علينا ان نتظر الى أن ينتهى الصيف . وعوضا عن ان نغزو الارض . بدأنا نغزو اصحاب الاملاك . كنا نريد سبعة اسرة على الاقل . واخيرا وقفنا الى شقة من غرفتين ومطبخ . اما الحمام فكان مشتركا مع نحو اربعين شخصا . واقترضا لوازم البيت وكنا نطبخ بموقد يعمل بالكيروسين . ووجد كل منا عملا التحقق به .

بدأنا نعتنى بمنزلنا بالاسلوب الامريكى الذى لم يتقبله الجيران . فقد وضعنا مثلا ستائر لمنع الذباب . فكانوا يستغربون ذلك . اذ كانوا يفهمون ان نحمى منازلنا من القحط المتوحشة مثلا . اما من الذباب ؟! وكانت اغلى مقتنياتنا بالطبع هى الجراموفون والاسطوانات . وبالتدريج بدأ الجيران يفدون الينا في الامسيات لتناول الشاى وسماع الموسيقى .

وكثيرا ما كنت اقص على المهاجرين الجدد حكايات عما قابلته من مصاعب عندما جئت . لكننى كنت افهم من خلال تجربتى المريعة ان هذه الاحاديث كانت تؤخذ باعتبارها نوعا من الدعاية ينصرفون عن سماعها . ومع ذلك فقد كان علينا ان نشق طريقنا في الارض التى اخترناها . فلم تكن هناك انثى لا دولة اسرائيل ولا وزارة الاستيطان ولا الوكالة اليهودية . ولم يكن هناك احد يساعدنا . وتحتم علينا أن نعتد على أنفسنا . كذلك فنحن لسنا في درجة اعلى من اولئك الذين يهاجرون الى اسرائيل اليوم . لكنه يبق . في المقابل . ان تصميمنا على ما جئنا من اجله دون ان يطلب منا ذلك احد او يعدنا بشئ . هو الذى اسرع بتأقلمنا مع الحياة الجديدة . وادركنا انه ليس امامنا الا ان نستوطن هذه الارض ونستقر فيها ونجعلها اجمل وأيسر .

وبرغم استمرار المضايفات ، ومن بينها مرض ابني شينا . فإننا بدأنا نتعود على فلسطين . ولم نفكر إطلاقا في تركها . وكانت رسائلنا الى والدينا تتخطى هذه المصاعب . واذكر احدى رسائلي لشاماي قلت له فيها : انه قد لا يجد العمل الذى يريد ارضه . ويريدها من كل قلبه .

يجب ان يكون مستعدا لذلك كله . كنت في مطلع العشرينات من عمرى . مليئة بالقوة والحيوية . لا مشاغل عندى ولا أطفال ، ومعى احب الناس لى ، زوجى واختى واعز صديقاتى . ولم ابتهج في حياتى قدر سعادتى في اول ليلة جمعة نقضيتها في تل أبيب في الشوارع .. فها أنذا في المدينة اليهودية الصرفة الوحيدة في العالم . التى يشترك الجميع فيها - بأعمق معنى - لا في الماضى المشترك فحسب بل أيضا في الاهداف المشتركة للمستقبل . ان جميع هؤلاء الناس اخوة لى . فنحن وان كنا قد جئنا من مناطق مختلفة وتحدث لغات مختلفة فإننا نتشابه سويا في ايماننا بأن اليهود هنا يستطيعون ان يكونوا سادة مصيرهم لاضحاياه .

وكم كنت فخورة ومعجبة بشينا وموريس اللذين تحملا كل المصاعب . وكان بالطبع هناك من غادر فلسطين تماما كما يغادر البعض اسرائيل الآن . لكننى على يقين من انهم هم الخاسرون .

في شهر سبتمبر (ايلول) تقدمنا بطلب للالتحاق بكيبوتز مرحاقيا في بحر جزريل (ايمك) بسبب بسيط هو وجود واحد من اصدقائى انا وموريس فيه وكان قد التحق بالفيلق اليهودى من قبل . ولم نكن نعرف شيئا عن الكيبوتزات فيما عدا انها مستوطنات زراعية جماعية لا توجد فيها ملكية خاصة ولا تجارة خاصة ولا ايد عاملة مأجورة . وبهذا كانت المجموعة مسئولة عن تلبية كافة حاجات افرادها

لكننا كما نؤمن - وان كان ايمان موريس اقل منى - بان الكمبيوتر
هى طريقة الحياة الوحيدة التى يمكننا فيها التعبير عن انفسنا
كصهاينة وكيهود وكبشر .

ولا بد ان نحكى شيئا عن تنمية وتطوير ايمك (بحر جزريل)
ففيه تكمن قصة المجهود الصهيونى .

فعندما انتهت الحرب العالمية الاولى منحت عصبة الامم لبريطانيا
العظمى الانتداب على فلسطين ، وانتعشت الآمال بتنفيذ وعد بلفور
بإقامة الوطن القومى اليهودى . وقبل ذلك بسنوات ، فى عام ١٩٠١ ،
كانت الحركة الصهيونية قد أنشأت الصندوق القومى اليهودى بغرض
واحد محدد هو شراء الارض فى فلسطين باسم الشعب اليهودى .
ولا انسى ذلك الصندوق الأزرق الذى كان فى منزلا ، وفى كل منازل
اليهود ، حيث يضع فيه كل الناس أية عملات . وابتداء من عام ١٩٠٤
بدأ الشعب اليهودى - بهذه العملات - يشتري مساحات شاسعة من
فلسطين .

وتعالوا نفكر فى ذلك الذى مللت من سماعه ، وهو ان اليهود
« سرقوا » الارض من العرب فى فلسطين . فالوقائع تختلف عن ذلك .
فلقد اثرى الكثير من العرب بعد ان دفعت الاموال الطائلة لشراء
الارض . وكانت هناك منظمات وافراد آخرون اشتروا اراض ايضا .
لكنه بحلول عام ١٩٤٧ كان الصندوق القومى اليهودى - او ملايين
الصناديق الزرقاء - تملك اكثر من نصف الاملاك اليهودية فى البلد .
فلنسقط - على الاقل - هذا الادعاء .

فى الوقت الذى وصلت فيه الى فلسطين كانت قد جرت عمليات
لشراء ارض الـ (ايمك) برغم انها كانت فى غالبيتها من المستنقعات
التي تحمل امراض الملاريا والحمى . المهم ان هذه الارض المليئة

بالأوبئة امكن شراؤها وبشمن غال . وتصادف ان الصندوق القومي اليهودى اشتراها من عائلة واحدة عربية موسرة تعيش في بيروت . وكانت الخطوة التالية هى جعل هذه الارض صالحة للزراعة ، ومن طبائع الاشياء ان الفلاحين العاديين لا يكونون على استعداد لقسم ظهورهم في مشاريع خطيرة تحتاج الى سنين عديدة قبل ان تؤتى ثمارها . لكن الاناس الوحيديين الذين كان بإمكانهم ان يحملوا على كواهلهم عبء تجفيف هذه المستنقعات ، هم رواد حركة الصهيونية العمالية الذين دفعتهم مبادئهم الى العمل في هذه الارض بصرف النظر عن قسوة الظروف او الخسائر البشرية . والاهم من ذلك هو استعدادهم للعمل بأنفسهم دون استئجار ايد عربية عاملة تحت اشراف مديرين يهود . وكان معظم المستوطنين الاول في مرحاقياً من هذا النوع . وعاشوا حتى رأوا الايمك واحدا من أخصب وديان اسرائيل واكثرها ازدهارا .

وقد تأسست مرحاقياً في وادى الايمك عام ١٩١١ على يد مجموعة من الشباب الاوروبى . الذين اضطروا الى هجرها في عام ١٩١٤ اثر اندلاع الحرب العالمية الاولى وازاء الهجمات العربية والمضايقات التركية وبعد ان وضعت الحرب اوزارها ، عادت مجموعة اخرى من الرواد . من بينهم من حاربوا في الفيلق اليهودى وانا وموريس . الى انشاء المستوطنة في نفس المكان . ثم غادروها ثانية . وفي ١٩٢٩ عادت مجموعة من المستوطنين الى المكان نفسه ونجحوا في البقاء فيها .

صدمنا عندما رفضوا طلباتنا للانضمام الى المستعمرة . وقيل لنا ، في تبرير ذلك الرفض ، ان المستعمرة لا تحتمل وجود اطفال فيها في هذه المرحلة . كما اننى بوصفى فتاة امريكية - قد لا أستطيع القيام بالأعمال الشاقة المطلوبة . وجادلت بضراوة واصرار على انه ليس من

حق احد ان يطلق هذه الافتراضات ، واننا يجب ان نأخذ فرصتنا
لاثبات مقدرتنا . واذكر ان احدى النقاط التى احتسبت ضدى هى
اننى عملت في تل ابيب كمدرسة للغة الإنجليزية ، وذلك يشبث اننى
مدللة .

احيرا سمح لنا بالذهاب الى مرحافيا لعدة ايام حتى يحكم علينا
ساكنوها بأنفسهم ويقبلونا بين ظهرانهم ، وذلك ما حدث فعلا .
وتفرقت مجموعة تل ابيب فرحلت رجينا ويوسل بحثا عن عمل .
واصرت شينا على البقاء في الشقة بمفردها علي ان تؤجر احدى
الغرفتين وتبحث لها عن عمل في مستشفى هداسا التى افتتحت حديثا
في تل ابيب .

ومرحافيا الآن مستوطنة أهلة بالسكان وفيها مدرسة عليا يلتحق
بها الاولاد من كل انحاء الايمك . وكغيرها من الكيبوتزات الكبيرة
فقد مزجت الزراعة بالصناعة . وفيها الان مصنع للأنابيب البلاستيك
ومطبعة . وتتميز الغرف هناك بالراحة . وقاعة الطعام المشتركة مكيفة
الهواء . ولكن دون ان تتغير المبادئ التى قامت عليها الكيبوتز في عام
١٩٢١ . ومازال جميع الاعضاء يؤدون اى عمل تعهد اليهم به لجنة
العمل . مع فارق واحد هو انهم قد تلقوا تدريبا على هذه الاعمال .
ويشارك كل واحد منهم في اتخاذ القرارات الهامة التى تجرى مناقشتها
والتصويت عليها في الاجتماع الاسبوعى العام . لكن الاطفال ، كما هى
الحال منذ البداية ، ينامون سوبا ويتعلمون سوبا .

أمنت على الدوام بأن الكيبوتز هى أفضل مكان يزاول الانسان فيه
كيانه كبشر ، وليس معنى ذلك انه لا يوجد فيها حسد او غش او
كسل . فأهلها ليسوا ملائكة . لكنهم في النهاية خدموا اسرائيل خدمات
جليلة . وهناك اليوم في اسرائيل ٢٣٠ كيبوتزا ، لكنى لا أتصور كيف

كان يمكن ان تكون عليه حال البلد لو لم توجد هذه الكيبوتزات وقد بقيت طويلة حياتى - بسبب ارتباطى بالحياة العامة والتزاماتى فيها - اندم على انى لم اقض حياتى في كيبوتز ولم تواتنى الشجاعة لكى اتخذ القرار بالبقاء فيها طول العمر .. فالرضا الذى يحصل عليه من يعيش فيها يقل ضخامة عن العمل في الحياة العامة .

اما المستعمرة التى ذهبنا اليها فقد ضمت عدة منازل وبقايا اشجار .. لكن لا بيارات ولا ازهار .. لاشئ على الاطلاق سوى الرياح والصخور والشمس الحارقة تغمر الحقول اما في الربيع فكانت المنطقة تنقلب الى اجمل مكان في الدنيا اذ تزهر قمم الجبال بل وحتى المستنقعات تغطيها الزهور : وكانت المشكلة الاولى امامى هى ان اثبت لهم اننى استطيع تأدية اية مهمة يعهد بها الى . ولا أذكر كل الاعمال التى قمت بها ، لكننى اذكر عودتى ليلا منهوكة القوى الى حد اننى لم اكن استطيع تحريك اصبعى ، واضطارى مع ذلك الى تناول العشاء مع المجموعة حتى لا اتعرض للسخرية . وعندما أمر الآن بالغباء الرائعة في مرحاقيا فإن الذاكرة تعود الى الايام التى كنا نحفر فيها بين الصخور كما نزرع شتلات الاشجار ونحن تتساءل هل ستزهر ؟! واخيرا فبلت عضويتنا انا وموريس في الكيبوتز .

وكانت الحياة في الكيبوتز في العشرينات ابعد ما تكون عن الرفاهية . فالطعام قليل ومذاقه فظيع . وكنت اسعد بالعمل في المطبخ في حين لم تكن النساء يحببن ذلك ، اذ كن يردن القيام بنفس الاعمال التى يقوم بها الرجال . وهكذا فإن نساء الكيبوتز سبقن اى حركة تحرر للمرأة بنصف قرن من الزمان . وكنت اقول لهن لماذا تفضلن العمل في الحظائر واطعام الحيوانات على العمل في المطبخ

واطعام رفاقك ؟ وبقيت اكثر اهتماما بنوعية طعامنا مامي
بتحرر الانثى .

وأخذت اعيد تنظيم المطبخ . باستبعاد الزيت الرهيء كنا
نجلبه من العرب في قرب من الجلد تجعل طعمه كريه .
والغيت اسماك الرنجة في الافطار واستبدلتها بالشعير ال بل
اننى احضرت اكوابا زجاجية لشرب الشاي بدلا من الاكونية .
كنت أقدم الرنجة في الغداء . لكن المشكلة ان كل فرد لديه
الاداة واحدة اما معلقة او سكين او شوكة .. ولم تكء في
المطبخ ينزعن قشور الرنجة . فقررت ان انزعها عند تقديمها
اعترضن على ذلك كنت أقول لهن ، كيف تقدمن الرنجة تكن
لعائلاتكن ؟ وهذا هو بيتنا وتلك عائلاتنا . اما اسوأ ما فوظل
حديث الوادى كله شهورا طويلة . فهو قيامى بوضع « » على
المائدة !

كان هناك زى موحد للنساء من قماش خشن يصنب .
نجعل فيه فتحة للرأس وفتحتين للذراعين ثم نربطه من ا وفي
ليلة الجمعة فقط كنا نغير هذا الزى فيرتدى الرجال قمليفة
وتلبس النساء بلوزات وجونلات . لكننى كنت اصر على كبرى
كل ليلة . برغم النظرات والتعليقات . بل اننى احضرت فوز
من عند شينا في تل ابيب .

في الشتاء عهد الى برعاية حظيرة الدواجن بعد ان تلقيت على
هذا العمل في احدى المدارس لعدة اسابيع . وكم سر والداى ذلك
بسنيين . عندما عرفا بهذه القصة اذ كنت معروفة طائى
بكراهيتى لكل الحيوانات وحتى الطيور . وازدهرت احليرة
الدواجن حتى أصبح الناس من كل ارجاء وادى الايمونون

لمشاهدتها . وبالطبع انتقلت الطيور والبيض الى مائدة الطعام في
مرحافيا .

كان سكان الكيوتز ، وانا منهم ، يتعرضون للملاريا
والدوسنتاريا ، الامر الذى جعل اليد العاملة دائما قليلة . وكان
الصيف قاسيا في حرارته وحشرات ، اما الشتاء فيغرقنا في الطين . وقد
تفهمت هذه الظروف وتقلباتها . اما موريس فبدأت الامور تفقد معناها
ومذاقها لديه بالتدريج . وكان يرى من السخف ان تقبل جماعة
ظروفا صعبة لحياة صعبة لمجرد اسباب عقائدية . لم يكن هناك احد
في الكيوتز يهتم حتى بالحديث عما يهتم به موريس ، الموسيقى
والكتب والفن صحيح انهم لم يكونوا غير متعلمين ، لكن الاولويات
لديهم اختلفت عنه . وكان موريس يرى ان عقول الناس هنا تتخذ
مجرى واحدا ، وضيقا . وكان يفتقد الاحساس بالخصوصية .

الواقع انه لم يكن مخطئا كلية . فلو أن الكيوتز في بدايته قدم
الحمامات والمراحيض الخاصة ، وتسهيلات لصنع الشاى في الغرف ، لما
كان الالاف من امثال موريس قد غادروا البلاد . لكن الكيوتز في
العشرينات لم يكن قادرا على تقديم هذه الاشياء . وانا شخصا لم اكن
اشعر بالضيق لعدم توفرها . ولم يمر وقت طويل حتى شعرت بأننى
في منزلى واننى لم اعش من قبل في اى مكان اخر . وكانت مختلف
جوانب الحياة الجماعية ، التى كان موريس يراها حائلا دون السعادة
هى نفسها ذات الجوانب التى تبعث السعادة في نفسى . وبالطبع
كانت هناك امور لم اتأقلم معها مثل هؤلاء النسوة قدامى المهدي في
الكيوتز اللائى كن يتصورن ان من حقهن وضع القوانين لمسار كل
الامور .

نظرا لتقلب الطقس . بين الريح والشمس ، ولعدم وجود مساحيق

التجميل . كانت نساء الكيبوتز يهرمن بسرعة عن نساء المدن . ومع وجود التجاعيد ، فقد بقين على انوثتهن . وكما هو الحال في كل مكان في الدنيا ، فقد كانت هناك زيجات وقصص حب ، لكن الناس كانوا كئوسين ، بل كانت الدنيا عموما اكثر نقاء وصفاء في تلك الايام

احببت الكيبوتز ، واحبنى الكيبوتز وعبر عن حبه ، في البداية انتخبت عضوا في اللجنة التنفيذية المسؤولة عن وضع السياسة العامة للكيبوتز . وفي عام ١٩٢٢ اخترت مندوبة عن الكيبوتز الى مؤتمر للكيبوتزات ، واشعر الان ، وانا اكتب هذا ، بالفخر لان الكيبوتز اولانى هذه الثقة وخولنى حق ابداء ملاحظاتى باليديدش لانى لم اكن اتقن العربية . وقد عقد المؤتمر في دجاليا « المستعمرة الام » ، واستمرت الجلسات اسبوعا في نقاش مرهق وطويل حول مشاكل غير هامة تتعلق بالكيبوتز . لكن المشاركين في هذا المؤتمر لم يكن يساورهم الشك في انهم يرسون حجر الاساس لمجتمع مثالى في مطلع التجربة الكبيرة في التاريخ اليهودى . وكانوا في ذلك - بالطبع - محقين .

والتقيت خلال ذلك الاسبوع في دحانيا بالعديد من الشخصيات المرموقة والتي اصبحت بعضها اصدقاء لى فيما بعد ، من بينهم بن جوريون وبن زفى اللذين قابلتهما في ميلووكى . وابراهيم هارزفيلد وليشى اشكول وزلمان شازار وغيرهم . وكنت اكتمى بالطبع بالاستماع اليهم واسنعباب ما يقولون . وعدت الى مرحافيا اتحرق شوقا الى ابلاغ موريس بما حدث .

واتيحت لى الفرصة لزيارة ارجاء البلد اذ جاءت زوجة فيليب سنودون ، الذي كان واحدا من اشهر الشخصيات البريطانية في حزب العمال . واضطرنى الحزب الى مراققتها نظرا لاجادتى اللغة الانجليزية

واتيحت لى خلال الجولة رؤية أول مجيم بدوى دعانا فيه العرب الى وليمة من اللحم والارز والخبز البتاو . واعطونى ملعقة لاكل بها بعد ان فغرت فاهى امام امكانية تناول الطعام بيدي . وقد تكرر ذلك عدة مرات . كلما زار البلد شخصيات هامة .

لكن صفاء الدنيا لم يدم . فقد تفاقم ضيق موريس من كل شىء . الى ان سقط مريضا بالفعل . وكنا قد بقينا في مرحافيا عامين ونصفا عندما ابلغنى الاطباء ضرورة مغادرتنا للكيوتز الا اذا كنت لا ابه بأن يصبح مرض موريس مزمن . ولست ادرى هل كانت حالة موريس قد تغيرت لو اننى اوليته مزيدا من الاهتمام ولم انصرف بهذا القدر الى الشؤون العامة . لكننى اؤمن بان استغراقى في شؤون الجماعة لم يكن يحرم موريس من اى شىء . ومع ذلك فانه مما لا شك فيه ان موريس كان يجاهد بمفرده طويلا لكى يعتاد على ظروف بالغة القسوة بالنسبة له .

كذلك فقد كانت هناك نقطة خلاف مستمرة بيننا . اذ كنت ارجب في ولادة طفل بينما كان موريس يعارض كلية في طريقة التربية الجماعية للاطفال في الكيوتز . كان يريد لطفلا ان يشب بنفس الاسلوب الذي عشناه انا وهو . لا أن تخضع تربيته للجنة وبالتالى للكيوتز كله . وهكذا رفض ان يكون لنا طفل الا اذا تركنا مرحافيا .

وهكذا حزمنا امتعتنا وودعنا الجميع . وكنت امل ان اعود ثانية بعد أن تتحسن صحة موريس . وبعد أن ننجب طفلا وبعد أن تكون علاقتنا - التى ندهورت - قد عادت الى طبيعتها . لكن الامور لم تسر على نحو ما اشتبهت .. بقينا في تل اييب عدة اسابيع عند شينا وشاماي الذى كان قد وصل الى فلسطين . وكانا قد انتقلا الى شقة

جديدة (فيها حمام) . والتحققت بعمل في مكتب البناء التابع
 للهستدروث (والذي سمي فيما بعد سوليل بونيه) . وفيما كنت افتقد
 الكمبيوتر الى حد كبير ، كانت الرسائل تنهمر على موريس من امه
 واخته تدعوانه للعودة للولايات المتحدة مع استعدادهما لدفع النفقات .
 بدت تل ايبب بزحامها وضجتها ، صغيرة بالمقارنة الى مرحاقبا .
 وبدأ موريس يستعيد صحته ، لكننا لم نستعد علاقتنا ابدا . وبدأت
 افتقد صداقاتى واعمالى في الكمبيوتر . ومع اننا لم نكن نتشاجر ، فقد
 كنا في قرارة انفسنا نلقى اللوم على بعضنا على ما وصلت اليه امورنا .
 وربما لو تحدثنا بصراحة لتغيرت الامور ، لكننا شعرنا بأن كلامنا
 يقف على طرفى نقيض . ثم تلقيت عرضا سخيا بأن أعمل انا
 وموريس في مكتب سوليل بونيه في القدس . فخامرني الامل في ان
 يساهم جو الجبل في اعادة الامور الى نصابها . وكان من حسن الحال
 ان علمت ليلة سفرنا الى القدس ، اننى حامل

في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثانى) ولد ابننا مناحم في القدس .
 وغمرنا الاحساس بالابوة ، فكنا نقضى الساعات ننظر في وجهه ونحن
 نتحدث حول مستقبله . لكننى لم استطع التخلص من تأثير مرحاقبا .
 وزرتها لفترة عندما كان مناحم في شهره السادس . ولكن موريس لم
 يكن مستعدا للعودة الى الكمبيوتر . وهكذا تحتم على انا ان اتخذ القرار
 الحاسم .. او بصراحة اكثر ان احدد الاولوية لمن . الواجب نحو زوجى
 وبينى وابنى ام للحياة التى احببتها . وادركت - كما حدث كثيرا
 بعدئذ - ان الواجب يأتى في المقام الاول . وهكذا اتخذت قرارى
 وعدت الى القدس . مصرة على بداية جديدة . صحيح ان روجى لم
 يكن ملائما للحياة الجماعية والشاقة . لكنه الرجل الذى احبته .
 والذي اشترك معه الان في ابننا .

الفصل الخامس

رواد .. ومشاكل

كانت السنوات الاربع التى قضيتها في القدس من اتعس التجارب التى مررت بها خلال حياتى الطويلة . كان كل شىء يسير على النحو الخاطىء . وكثيرا ما شعرت اننى اعيش من جديد اسوأ سنوات عمر امى . وما كانت تحكيه لنا عن مدى الفقر المدقع الذى كانت تعيشه في روسيا . ولم تكن النقود او الصحة هى المهمة ، وان كنت لم احصل منهما على الكثير . وكنت انا وموريس معتادين على الفقر وعلى مستوى متواضع من الحياة . ولم نكن نهتم الا بشىء نأكله ومكان نظيف ننام فيه وكتاب جديد أو اسطوانة ..

ولم يكن بإمكاننا الاعتماد على مرتب موريس فحسب . خاصة وان لدينا اطفالا يجب ان يأكلوا ويعيشوا . واعتقد ان انحرر من الخوف هو أن تستطيع ان تقدم لاطفالك الضروريات وهو حق الانسان الأول على الوالدين . ولقد عرفت ذلك نظريا من قبل ، لكننى جربته بنفسى حتى لم تعد ذاكرتى تنساه . وهنا يبرز الخلاف بين الكيبوتز والعالم كله . فهناك لا يقلق الوالدان ، ولا بد للاطفال ان يأكلوا كفايتهم حتى لو اضطر الكبار الى شد الاحزمة على البطون . وعندما اشتدت ظروف الطوارئ في الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بعشرين عاما ، اقترحت ان يدير الشعب اليهودى في فلسطين شبكة تعاونية من المطابخ خفيفة هذه الظروف . وذلك من

أجل ان يجد الاطفال كفايتهم من الطعام . ورغم ان هذا الاقتراح سقط ، فإننى مازلت اعتقد وأؤمن بصحته .

وكان من اسباب نعاستى في القدس ، بالاضافة إلى ما سبق ، ذلك الشعور الثقيل بالوحدة ، وبأننى ابيع في شقة صغيرة مستغرقة في تدبير امورى وفقا لمرتب موريس . بدلا من ان افعل الاشياء التى جئت من أجلها إلى فلسطين في المقام الاول . وكنت اذهب إلى البقال فاعطيه ايصالا بمائة قرش في مقابل ٨٠ قرشا فقط ، وحتى هذه القروش لا استعملها نقدا وانما اخذها في شكل فواتير مشتريات مقدما . ثم أخذ هذه الفواتير إلى بائعة الدجاج لكى اشترى قطعة من الدجاج في مقابلها بعد ان تخصم هى من قيمتها ١٠ أو ١٥ ٪ . وكثيرا ما كان شاماي بأنى إلى القدس وقد اعطته شينا جبنا او قفصا من الفاكهة والخضروات . فكنا نقيم عندئذ وليلة حقه .

وقبل ان تولد سارة ، كنا نؤجر احدى غرفتيها لنحصل على مزيد من المال ، لكننا صرفنا النظر عن ذلك بعد ولادتها حتى يمكن من تخصيص غرفة للاطفال . ووجدت ان افضل شئ هو ان اجد عملا يؤديه في المنزل حتى لا اترك الطفلة وحدها فاتفقت مع مدرسة مناحم على أن افوم بغسل كل ادوات الحضانة في منزلى مقابل مصاريف المدرسة . وكنت اقضى الساعات الطوال امام الموقد والمياه الساخنة اغسل اكواما من الموط (المناشف) والمرابل .

ولم أكن اتأفف من هذا العمل ، فقد قمت بما هو أقسى منه في مرحافيا . لكننى كنت هناك جزءا من مجتمع ديناميكي متكامل ، أما هنا في القدس فلم أكن اعدو كونى واحدة من ملايين النساء الأسرى الذين حكمت عليهم الظروف بالاهتمام بالأطفال ، وسعالمهم .

واحذيتهم التى قد تتشقق . وصحتهم التى قد تضرها التدفئة المستمرة
شناء .

وكان القلق يستبد بنا خشية أن تغلق سوليل بونيه أبوابها بعد
ان ساءت احوالها . وكانت مرتباتها تدفع للعمال في صورة كمبيالات
عيمتها ١٠٠ أو ٢٠٠ قرش مكفولة بكمبيالات وتعهدهات أكبر حصلت عليها
السوليل بونيه مقابل مشروعات بناء المنازل والطرق . وشاعت آنئذ
القصة عن اليهودى الذى قال ان لدى وسادة (مخدة) من الريش
استطيع بها بناء منزل .

وعندما سئل عن كيفية تحقيق ذلك قال ، اننى أستطيع بيع
الوسادة بجنيه . ثم أشرت بالجنيه في عضوية جمعية للقروض ، وذلك
يعطينى الحق في اقتراض عشرة جنيهات . وما عليك إلا أن تختار
قطعة أرض تعطى صاحبها هذه الجنيهات العشرة نقدا ، والبقية على
هيئة كمبيالات . الان أصبح لديك الأرض ، وما عليك إلا أن تجد
مقاولا يبني المنزل في مقابل أن يعطيك شقة فيه .

وحرصت على أن تكون صورة حياتى في رسائلى إلى والدى مختلفة
اللون . كما حرصت على ابعاد شينا عن حقيقة الموقف السيئ الذى
أعيشه . أما ريچينا فكانت تزورنى في البيت محاولة التسرية عنى ،
وكانت تعمل آنئذ في مكتب اللجنة التنفيذية الصهيونية في القدس .

وتعودنى الآن ذكرى أيامى في القدس التى لم أكن أهتم فيها إلا
بالبيئة المحيطة بى مباشرة . وكانت القدس مقرا لحكومة الانتداب
آنئذ . والمكان الذى يدير منه المدينة ويحكمها المفوض البريطانى
السامى السير هربرت صمويل الذى خلفه لورد بلومر في عام ١٩٢٥ .
وكانت القدس على عهدها . حتى اليوم . مدينة ساحرة يتشابك فيها
سبيج من المقدسات والأماكن المقدسة . لكنها فوق ذلك كله كانت

الرمز الحى على استمرارية التاريخ اليهودى . والرابطة التى ربطت - ومازالت تربط - بين الشعب اليهودى وهذه الأرض . وعلى حدودها - فى ميا شعاري - كانت . ومازالت حتى يومنا هذا . تعيش جماعات من اليهود المتطرفين فى نديهم . الذين ترجع أصولهم إلى القرن السادس عشر فى أوروبا الشرقية . والذين كانوا يرون أن يهودا مثلى ومثل موريس ليسوا سوى ملحدين وثنيين .

وذات مرة زرت الحائط الغربى (المبكى) . ولم تكن تلك أول مرة . ولقد تربيت فى بيت يهودى طيب . لكنى لم أكن شخصيا ورعة . وإنما ذهبت لأنى كنت أعلم أن هذا شيء يجب أن أفعله . كان الحائط أصغر مما هو عليه الآن بعد كل أعمال التنقيب حوله . لكننى رأيت لأول مرة اليهود . رجالا ونساء . وهم سيكون أمامه أثناء وضعهم الالتماسات داخل شقوقه . إذا فهذا هو ما تبقى من المجد التليد . أو ما بقى من معبد سليمان . لكنه على الأقل مازال موجودا . ورأيت فيه رفضا من جانب أمة لقبول أن تكون هذه الأحجار هى التعبير عن الثقة فى المستقبل . وعندما غادرت الحائط كانت روحى المعنوية مرتفعة .

وفى عام ١٩٧١ . أى بعد خمسين عاما أقيم لى احتفال فى القدس حكيت لهم فيه عن الزيارة التاريخية التى قمت بها للحائط فى عام ١٩٦٧ بعد حرب الأيام الستة . فقد حرمننا العرب تسعة عشر عاما - من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ - من زيارة المدينة المقدسة والصلاة عند الحائط . لكنه فى اليوم الثالث من حرب الأيام الستة . وهو الأربعاء ٧ يونيو (حزيران) - أصابت الصاعقة كل اسرائيل عندما أعلن عن قيام حنودنا بتحرير المدينة القديمة واعادتها إلينا ثانية . وأضطرت

لتأجيل زيارة تقرر أن أقوم بها إلى الولايات المتحدة ، إلى أن حصلت على تصريح بزيارة الحائط في يوم الجمعة .

وعند الحائط وجدت الجنود الذين خاضوا المارك الشرسة لتحرير الحائط . يقفون أمامه وهم ييكون . وكانت واحدة من أزحم لحظات عمري بالعواطف المؤثرة عندما جاءني جندي واحتضنني وألقى برأسه على كتفي . وانفجرنا نبكى سويا . وكتبت كلمة (شالوم) على ورقة ودستها في أحد الشقوق . لكن هذه القصة تتصل بعصر بعيد عما نحن فيه الآن .

وكانت أواخر العشرينيات أعواما سيئة ليهود فلسطين ، وليس لي فحسب . ففي عام ١٩٢٧ كان هناك ٧٠٠٠ رجل وأمرأة بدون عمل . واغرق المهاجرون البلاد فوق طاقتها . فقد وصل إلى فلسطين عام ١٩٢٦ حوالى ١٣٠٠٠ مهاجر ، هاجر نصفهم عام ١٩٢٧ مرة أخرى إلى أمريكا أو ارجاء الامبراطورية البريطانية . ولأول مرة أصبح عدد المهاجرين من اسرائيل أكبر من عدد المهاجرين إليها . كذلك عاد عدد من المهاجرين إلى روسيا حيث ارسلوا إلى سيبيريا أو أعدموا لأسباب « ايدولوجية » .

وكان ابرز أسباب الأزمة هو سوء الحالة الاقتصادية للشعب اليهودى في فلسطين وقلة فرص العمل المتاحة . ففيما عدا تجارة البناء (التى ضمت نصف العمال اليهود) وبيارات البرتقال ، لم يكن هناك لا مشاريع ولا رؤوس اموال . بل كانت المؤسسات اليهودية الصناعية تعد على أصابع اليد . وهى اعمال البحر الميت ومناجم ومصانع الملح في عتليت وشركة كهرباء فلسطين ومصنع شيمن للصابون والزيوت ومصنع الأسمنت في حيفا . هذا إلى جانب مشروعات صغرى كالمطابع واقبية الخمور .

وكانت هناك مشكلة الأجور . فمع أن أجور اليهود كانت قليلة . إلا أن العمال العرب كانوا على استعداد لقبول أجور أقل ، ولم يستطع بعض أصحاب البيارات اليهود أن يقاوموا هذا الاجراء . أما الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين ، فقد بدأت تعادى اليهود ، وتسمح بحرية الحركات العربية المناهضة مثل مفتى القدس الحاج أمين الحسينى وغيره . كما أنها هددت بتخفيض الهجرة اليهودية أو وقفها كلية لفترة محددة في عام ١٩٣٠ . باختصار لم يكن الوطن القومى اليهودى يزدهر .

وقليلا ما كنت أذهب إلى تل أبيب . اما لرياره شينا وعائلتها أو لزيارة والدى اللذين كانا قد جاأ إلى فلسطين عام ١٩٢٦ . وفيما بين الزيارات العائلية كنت أحرص على زيارة الأصدقاء الفدائى وسؤالهم عما يحدث في مرجافيا . وكان أبى قد ادخر قليلا من المال وهو في أمريكا اشترى بها قطعتى أرض احدهما في هرزليا . شمالى تل أبيب . والأخرى في العفولة بالقرب من مرجافيا مصمما على أن يبنى فيها منزلا بحجة أن هذه القرية سوف تنشأ فيها دار للأوبرا . وأخيرا . وتحت الحاح منا جميعا . باع قطعة الأرض في العفولة ووافق على بناء المنزل في هرزليا . بدون الأوبرا .

وبنى المنزل بيديه . كما يليق بنجار جيد . واستقر فيه مع أمى على الفور . ولم تكن صناعة التجارة رائجة . وفكرت أمى في أن يتعاون أبى معها في صنع وجبات الظهيرة للعمال . وكانت المطاعم قليلة عموما أما في هرزليا فلم يكن هناك مطعم . ونجت فكرة أمى إلى حد كبير . لكن أوضاع والدى الاقتصادية ظلت سيئة . إلى حد أننا في ليلة أحد الأعياد اجتمعنا في هرزليا لكننا لم نجد ما نحتفل به .

ولا حتى زجاجة نبيذ أو مزة . وألنا منظر والدى وهو يتأسى على ما وصلت اليه حالته .

ثم حدث شيء رائع ، فقد عضنى كلب . وكانت تلك بالنسبة لى معجزة . وتحتم على أن أذهب إلى تل أبيب لتعاطى الحقن المضادة للسعار . وهناك طرقت باب أحد المصارف فوجدت فرصة لاقتراض عشرة جنيهات شريطة أن يوجد من بضمن القرض . وأخيرا ، وبعد بحث طويل ، وجدت الضامن وتسلمت الحنيهاث العشرة (وكانت مبلغا ضخما انئذ) ، وعدت إلى هرزليا بعشرة جنيهات لأبى ، وبمشاعر حادة للطلاب لم أعرفها طيلة عمرى .

وخلال زيارتى النادرة لتل أبيب كانت تصدمنى مناظر الرجال العاطلين فى الشوارع والبيوت التى توقف بناؤها . وبدأ الأمر وكأن قوة جبارة مزقت نفسها . ومع هذه الضائقة الاقتصادية ، عاش آلاف اليهود فى فلسطين يربون اطفالهم ، ويشكلون قياداتهم ، وينمون بيئتهم . لا تساعدهم فى ذلك إلا حركة صهيونية فى الخارج ، كانت فى حد ذاتها انحازا كبيرا . واشتد شوقى إلى أن العب دورا أو أن أفعل شيئا .

وقد عملت فى الهستدروث (الاتحاد العام للعمال اليهود) سنين طويلة فى تل أبيب وفى القدس . وتعرفت بكثير من الشخصيات فى الحركة العمالية ، وأعجبت بهم . وتمنيت أن أعمل معهم واتعلم منهم . وكنت اتفق مع رأيهم فى أن الهستدروث يجب أن يهتم بالحاجات المباشرة للعمال قدر اهتمامه بخلق مجتمع العمل المرتبط بمستقبل اليهود فى فلسطين ، سواء لأولئك الموجودين أو للذين سوف يأتون بعد ذلك .

وكان الهستدروث شيئا فريدا يختلف عن جميع المنظمات العمالية الأخرى . كانت هناك حاجة إلى حماية مختلف حقوق العالم

اليهودى . وكذلك العربى . ولم يكن الهستدروث اتحادا تجاريا . اذ قام على وحدة كل العاملين في الشعب اليهودى في فلسطين سواء العمال بالأجر أو أهل الكيبوتزات أو أصحاب الياقات البيضاء أو الزرقاء أو العمال اليدويين أو المثقفين . كذلك فقد وقع على كاهله عبء المهاجرين الجدد الذين يتزايد عددهم .

ومن ناحية أخرى فإنه لم يكن هناك اقتصاد « جاهز » في فلسطين يمكنه أن يواجه فيضان الهجرة اليهودية . وتحتم علينا نحن الذين جئنا لفلسطين في البداية أن نخلق ما يعرف الآن بـ « الاقتصاد القومى » ، بما ينطوى عليه ذلك من صناعة ونقل وبناء وتمويل ناهيك عن الرعاية الاجتماعية وإيجاد فرص العمل . أى أنه كان علينا أن نخلق شيئا من لا شيء تقريبا .

ونظر لارتباط الهستدروث بالاهداف الصهيونية . فإنه كان يولى اهتماما متساويا لكل جوانب الحياة اليهودية ويحكم على مشروعاته بمقياسين هما مدى تلبيتها للحاجات القومية العاجلة ومدى تطابقها مع وجهة النظر الاشتراكية . وكمثال على ذلك تصميم الهستدروث على تطوير مشروعاته بحيث يسيطر عليها مجتمع العمال ككل وكلية . وهكذا في مطلع عام ١٩٢٤ أنشئت هيئة قانونية اسمها هفرات هاعوفديم (ترجمتها: العبرية بالانجليزية الجمعية التعاونية العامة للعمل اليهودى في فلسطين . تضم كل أعضاء الهستدروث لتتملك كل « موجودات » الهستدروث . ومن بينها سوليل بونيه . وكانت هذه الشركة قد انهارت في عام ١٩٢٧ . ولم يعد في مكاتبها أموال لدفع مرتبات الصرافين . ومع ذلك عادت السوليل بونيه للحياة بعد أن تأكدت أهمية وجود شركة عامة للبناء والأشغال العامة تقوم بما لا تقدر عليه الشركات الخاصة .

اننى اطرح كتأكيد لارتباط الصهيونية بالتفاؤل صورة سوليل بويه
الآن .

فبعد أن أعيد تنظيمها عام ١٩٥٨ على اساس ثلاث شركات (شركة
للبناء . وشركة لأعمال الموانئ وما وراء البحار وشركة صناعية)
أصبحت الآن أكثر المؤسسات نجاحا في الشرق الأوسط ، وإستطاعت
تشغيل ٥٠,٠٠٠ رجل وامرأة في العام الماضى . ووصلت عائداتها مشتركة
إلى ٢ ١/٢ بليون جنيه اسرائيلى . ولعل سوليل بويه الآن هى ابلى رد
على أولئك الذين كانوا ينتقدون الهستدروث ويصفونه بأنه رومانتيكى
محكوم عليه بالفشل . فسوليل بويه ليست إلا احدى مخلوقات
الهستدروث .

وكم فرحت عندما كنت اتحدث عند بوابة مكاتب الهستدروث مع
أحد الاشخاص . وجاءنى دافيد ريمز ليسألنى ما اذا كنت مهتمة بأن
اعود للعمل وأن اصبح سكرتيرة لمجلس النساء العاملات التابع
الهستدروث . وأخذت أفكر في القرار الخطير الذى تحتم على اتخاذه
طيلة رحلتى إلى القدس .. فمعنى قبولى هذا العمل طوال الوقت يعنى
أن انهى الفترة التى كرستها للعائلة ولرعايتها . وأن ننتقل إلى تل
أبيب . وتمثلت أمامى حقيقة اننى قد فشلت في حياتى الزوجية .

لكن الأمور لم تسر على نحو ما اشتيت . ولم اتخذ هذا القرار
الخطير . وبقيت أنا وموريس زوجين متحابين إلى أن مات في منزلى
عام ١٩٥١ (ويا للرمزية أن يموت وأنا بعيدة عن المنزل) . ومع ذلك
فإننى اقرر اننى فشلت في جعل زواجى ناجحاً . أما القرار الذى
اتخذته عام ١٩٢٨ فقد مثل بداية الانفصال بيننا . وان لم يحدث
هذا على مدى عشر سنوات . ولم تكن المشكلة أن موريس لم يفهمنى .
بل انه كان على العكس يفهمنى إلى أقصى حد ويعرف أنه لن ينتصر

على ولن ننهرنى . ولذا فإنه لم يثبط همى فى قبول العرض . وان
كان فـهـم ما بختفى وراءه من مغزى .

وبقى موريس جزءا - بالطبع - من حياتى ومن حياة الأطفال .
كانت ساره ومناحيم بعدائه . وكان بكرس لهما وقتا طويلا . يحدثهما
عن الموسيقى أو يقرأ لهما أو يشتري لهما كتباً . وكان لديه الكثير مما
يمكنه أن يعطيه كانت حياته من الداخل غنية بل أغنى من حياتى كلها .
وهكذا . وفى عام ١٩٢٨ . انفصلت أنا والاولاد عن موريس الذى
كان يحىء إلينا فى تل أبيب فى عطلة نهاية الأسبوع . والتحق الأولاد
بمدرسة تديرها الحركة العمالية . وعدت أنا إلى العمل .

وكان مجلس النساء العاملات . وقرينه فى الخارج « النساء
الرائدات » هما التنظيمان النسائيان الوحيدان اللذين عملت فيهما ولم
يكن اهتمامى بهذا النشاط لكونه مخصصا للنساء فحسب . بل لأنه
كان بهدف إلى إعطاء تدريب مهنى للفتيات اللاتى يفدن إلى فلسطين
بمفردهن أو بغير رضى أهلهن . وتم انشاء مزارع للنساء العاملات
لندريهن مهنيا .

وأنا لا أؤيد ذلك النوع من الأنوثة الذى يطالب بخلع حمالات
الصدور أو كراهية الرجال أو معاداة الأمومة . لكن الاعجاب يتملكنى
بتلك النماذج من النساء النشطات فى صفوف الحركة العمالية امثال
ادا ميمون وبيا ايدلسون وراشيل يانيت بن رقى . اللاتى نجحن فى
تجهيز العشرات من النساء والفتيات لاداء دورهن - وأكثر - فى
المستوطنات الزراعية فى كل أرجاء فلسطين . تلك عندى هى الأنوثة
البناءة . وهى أهم من مسح البيت أو ترتيب المائدة .

أما عن وضع النساء فيكفى أن أذكر تلك القصة التى شاعت فى
رائيل كلها . عندما قال بن جوريون عنى اننى الرجل الوحيد فى

وزارته . وكان منيع سرورى من ذلك انها قيلت باعتبارها أكبر تحية
يمكن توجيهها لامرأة . لكننى لا أظن أن هناك رجلا يمكن أن يقبل
تحيتى له اذا قلت عنه انه المرأة الوحيدة في حكومتى .

والواقع أننى عشت وعملت طويلة حياتى مع الرجال . ولم يقف
كونى امرأة حائلا دون ذلك . ولم يسبب ذلك لى قلقا ولا شعرت
بإحساس النقص ازاء الرجال . بالعكس تماما . والواقع ايضا أن حياة
المرأة تكون اصعب والأعباء عليها مضاعفة اذا مارادت حياة خارج
البيت وداخل البيت (طبعا باستثناء نساء الكيوتزات اللاتى تنتظم
حباتهن بحيث تسمح لهن بالعمل وتربية الأطفال في نفس الوقت) .
أما المرأة التى يغيب عنها زوجها فإن اعباءها تتضاعف ثلاثة اضعاف
ما يحمله أى رجل عرفته .

وكانت حياتى في تل أبيب موزعة بين مختلف النشاطات العامة
والعائلية . وكنت اعنى بأولادى . لكنهما بالطبع كانا يكرهان هذه
النشاطات خارج البيت . وهما الآن ربا عائلتين . ويحبان اطفالهما .
وهما بمثابة رفيقين لى . ولست ادرى هل كانا فخورين بى آنئذ ام
لا . وهل يغفر الفخر بالام عن غيابها عن المنزل . وقد شاركا مرة في
أحد الاجتماعات العامة . وصوتا مع رأى برفع ايديهما . وكان ذلك
بمشابة تصويت بالثقة بى . لكن ذلك في ظنى لا يعادل وجود الأم
في بيتها .

وأصبحت اتغيب بعد ذلك في الخارج كثيرا . وكنت احس بالذنب
تجاههما رغم انى كنت أكتب لهما وأحضر لهما الهدايا معى . وأذكر
أننى كتبت في عام ١٩٣٠ مقالة بدون توقيع اسميتها « المرأة المحراث »
عقدت فيها مقارنة بين المرأة التى تكرر نفسها لبيتها وزوجها واطفالها
وبين المرأة العاملة التى يتحتم عليها اداء واجباتها خارج المنزل مع
القيام بواجباتها داخله .

ولم تكن سارة على ما يرام من الناحية الصحية . اذ ظلت عدة سنوات تشكو من كليتيها . وكانت فتاة ذكية لماحة تراعى نظام الطعام الملائم لها والأدوية اللازمة . وقد ساعدتني أمي وشينا في رعايتها خلال تغيبى عن المنزل .

وكنت اكتب الرسائل لشينا باستمرار . وفي احدى المرات أوفدت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في مهمة لدى « النساء الرائدات » . في أول زيارة بعد سبعة أعوام . ثم اشتركت في طريق عودتى في مؤتمر الاشتراكية الدولية في بروكسل . وكنت أصغر أعضاء الوفد (الذى ضم بن جوريون وبن زئفى) . وقد استمتعت بمشاهدة الدنيا وحلاوتها . في الوقت الذى استمتعت فيه إلى خطب كبار الاشتراكيين امثال آرثر هندرسون زعيم حزب العمال البريطانى ورئيس المؤتمر . وليون بلوم الاشتراكى الأول في فرنسا وأول رئيس وزراء يهودى . فيها . ووافق هندرسون على تشكيل عصبة للعمال في فلسطين . والغريب أن الهجوم نصب عليه من الاشتراكيين اليهود غير الصهاينة .

وكتبت إلى شينا من بروكسل راجية منها أن تفهمنى وتصدقنى . مؤكدة لها اننى لم اسافر إلا بعد أن طمأننى الطبيب على ساره وبعد أن رتبت كل شئ لمناحم . وقلت لها اننى اعرف أن نشاطاتى العامة لن تأتى بالمسيح المخلص . لكننى كنت أؤمن بأننا يجب ألا نضيع اية فرصة لنشرح فيها للناس ذوى النفوذ مانريده وما نحن فيه . ومع ذلك فإننى اعتقد أنها هى وأمى كانتا يقلقهما دائما غيابى عن المنزل واضطرار الأولاد لتناول الطعام في غرفة العشاء الجماعية في منزل العمال الذى كنا نعيش فيه في شارع هاياركون . وكنت احرص على تأجير احدى الغرف حتى لا يبقى الأطفال وحدهم . وبقيت عدة أعوام استخدم - باريتاح شديد - اجدى الأرائك في غرفة المعيشة والأكل . للنوم .

وتشغل مكاتب الهستدروث اليوم مبنى ضخما في واحد من شوارع تل أبيب الرئيسية يشبه خلية النحل . أما في أيامنا فلم يكن لدينا سوى عدة غرف وألّتين كاتبتين وجهاز واحد للتليفون . وكنا رفاقا بمعنى الكلمة . نعرف بعضنا . ونشترك سويا في نظرتنا إلى الحياة . وقد دامت تقريبا كل الصداقات التي كونتها خلال هذه الفترة حتى يومنا هذا . فيما خلا اشتراكى في السنوات الأخيرة في جنازات عدد من الأصدقاء الذين عرفتهم عندما كنت . أنا والهستدروث . صفارا .

ومن بين الذين عرفتهم دافيد بن جوريون . الرجل الذى أصبح تجسيدا حيا للشعب اليهودى في سعيه من أجل استقلاله . وسوف اتحدث عنه فيما بعد . كذلك عرفت شنيورزلمان شازار (الذى سيصبح الرئيس الثالث لاسرائيل) وليشى اشكول (الذى سيصبح ثالث رئيس وزراء لاسرائيل) ودافيد ريمز وييرل كاتز نلسون ويوسف شبرنزاك الذى سيصبح أول رئيس للكنيست .

وقد قابلت شازار (وكان اسمه روبا شوف قبل أن يغيره للعبرية) في يوم أول مايو (ايار) عندما خطب في حفل أقيم بمناسبة يوم العمال في هرزليا . وسحرنى حماسه وطلاقة حديثه بالعبرية . وقد اصبحنا صديقين حميمين للغاية . وكان شازار مختلفا عنا . اذ كان من المتعمقين في دراسة العبرية . وصحفيا بارعا . وكاتبا حاذقا . وقد توفي عام ١٩٧٤ بعد أن انتهت رئاسته لاسرائيل بعام . وكان الشباب في اسرائيل يبتسمون وهم يستمعون إلى خطبه الوردية المشحونة بالعواطف والتي لم تتغير طبيعتها منذ العشرينيات .

وقد حرص شازار خلال رئاسته لاسرائيل على الاصرار على « وحدة عائلة اسرائيل » . وكان يعنى بذلك اليهود ذوى الاصل الأوروبى (مثله) والالاف المؤلفة من يهود البلاد العربية الذين لم تكن

الييديش تعنى عندهم شيئا . وعمل سنين طويلة رئيسا لتحرير صحيفة داغار التي تصدرها الحركة العمالية . ثم أصبح أول وزير للتعليم في إسرائيل عام ١٩٤٨ . وأصدر أول امر له كوزير في اليوم الثاني لقيام الدولة ويقضى بأن يتلقى كل الأطفال الاسرائيليين من الرابعة حتى الثامنة عشرة تعليما على أرفع مستوى . وعمل على اصدار قانون التعليم بسرعة بعدئذ . وكنت ازوره دائما عندما اصبح رئيسا . لأنه كان يكره العزلة التي تفرضها الرئاسة عليه . وغالبا ما كنت انصحه بعدم التدخل في المواقف السياسية المتفجرة .

كذلك اصبح من بين اصدقائي في العشرينيات ليشى اشكول (واسمه الاصلى شكولنك) . ورغم انه كان روسى الاصل مثل شازار . الا أنه كان مختلفا . كان يحب العمل ولا يحب الكلام . وكان يكره البيروقراطية . جاء الى فلسطين في التاسعة عشرة من عمره وانضم الى الفيلق اليهودى (وكان يفخر بأنه حصل على ترقية الى رتبة عريف قبل أن يحصل عليها بن جوربون) . وكانت اهتماماته تدور حول الأرض والماء والدفاع . وكان يرى أنه اذا أردنا وطناً قومياً لليهود . فما علينا الا أن نوطن اليهود في أرض مهما تكلفنا من اموال ومهما وضعت حكومة الانتداب من عراقيل امام المؤسسات اليهودية التي تريد الشراء .

وامضى اشكول الأعوام الثلاثين التالية وهو يبحث عن اماكن لاقامة المستوطنات . بوصفه رئيساً لدائرة الاستيطان التابعة للوكالة اليهودية . وأشرف على تأسيس ما يقرب من ٤٠٠ قرية يهودية جديدة . وكان يرى انه لا يمكن اقامة مستوطنات بدون رى ومياه . ولذا انغمس في بحث طويل ومكلف عن مصادر للمياه . ثم تطلب الامر ايضا ايجاد اسلحة للدفاع عن الأرض والمياه . وقد ساهم اشكول

في الحياة العسكرية منذ ان انضم عام ١٩٢١ إلى أول لجنة دفاع تابعة للمستدروث إلى أن أصبح رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع في عام ١٩٦٣ . وقد قيل الكثير عن تردده في اتخاذ القرار الحاسم في حرب الأيام الستة ، لكن مأساة حياته كانت الخلاف الذي وقع بينه وبين بن جوريون . رغم انه كان تابعاً مخلصاً له وقبل رئاسة الوزارة بناء على طلبه . وقد مزق هذا الخلاف الحركة العمالية كلها بل واسرائيل بأسرها . لكن الحديث عن هذه الفترة لم يحن بعد .

ولم يكن اشكول شخصاً ذا جاذبية جماهيرية او بريق ، لكنه كان شخصاً خلاقاً وقدرته لا حدود لها على العمل والانجاز . ولم أكن أتصور في العشرينيات أنه سوف يصبح رئيساً للوزراء أو أنني سأخلفه في هذا المنصب . وكثيراً ما وقعت بيننا مصادمات - غير شخصية - في الخمسينيات عندما كان وزيراً للمالية وكنت وزيرة للعمل . وكانت البلاد ايامها قد امتلأت بمئات الآلاف من اليهود من معسكرات أوروبا وحارات اليهود في البلاد العربية . وتحتم علينا أن نبني معسكرات لايوائهم . لكن اشكول اقتحم مكتبي مطالباً بالعمل فوراً على اغلاق هذه المعسكرات وتوزيع اليهود على كل انحاء البلاد . واعتقد ان اسرائيل ما كانت لتتحيا سنواتها العشر الأولى بعد ١٩٤٨ لولا موقف اشكول الذي ثبتت صحته ، وامكن بالفعل استيعاب هؤلاء المهاجرين في النهاية .

وكانت طبيعة عملي كوزيرة للعمل أن أجد عملاً لهؤلاء الناس . وكنت أذيق اشكول المر الحاحاً على مزيد من المال للمشاريع الخاصة والإسكان . لكنه كان دائماً يقول لي ، إنك لا تستطيعين ان تحلبي منزلاً لكنك تستطيعين حلب بقرة . وليس لدى اموال الآن الا

للبحر . وأذكر أنى ذهبت أشكو إلى بن جوريون مهددة بالاستقالة
لانى لم ات لاصبح وزيرة للبطالة . وبالطبع دبر لى اشكول بعضا من
المال .

كذلك كان من بين الاصدقاء الحميمين دافيد ريمز . وكان مثل
اشكول مهتما بالمشاكل العملية للصهيونية وخاصة مشاكل سوليل بونيه
وغيرها من مشروعات الهستدروث . وينتمى ريمز للموجة الثانية من
الهجرة (التى ضمت ٣٥٠٠٠ يهودى منذ ١٩٠٩ حتى اندلاع الحرب
العالمية الأولى) وكان قد درس القانون في جامعة القسطنطينية حيث
التقى بين جوريون وبن زفى والشاب موسى شاريث . وعندما وصل
إلى فلسطين القى بالكتب جانبا وعمل في حقول البرتقال والكروم .

وقد ظل ريمز طيلة حياته (توفى عام ١٩٥١) يحمل اهتمامات
عميقة بمضمون الحركة - وهو وحدة العمال ومستقبل الاشتراكية في
الوطن القومى اليهودى - وبالشكل الذى تكون عليه الحركة .
وكان يولى اهتماما كبيرا لاهياء اللغة العبرية إلى حد انه كان يخترع
كلمات عبرية جديدة مشتقة من اصول اللغة القديم (ابرزها
الكلمات العبرية الثلاثة المقابلة للبولدوزر وعلامات الطريق
والاقدمية) . وكان من البارزين في قيادة الحركة العمالية وعمل
سكرتيرا عاما للهستدروث . وانترك في عام ١٩٤٨ في صياغة اعلان
الاستقلال الاسرائيلى . وكان أول وزير للنقل ثم وزيرا للتعليم . وكان
الرفيق الوحيد الذى كنت أناقش معه المشاكل الشخصية والتلقى نصيحته
وتوجيهاته فيها .

ويجىء فوق هؤلاء جميعا بيرل كاتز نلسون الذى توفي عام ١٩٤٨ .
اى انه لم يشهد دولة اسرائيل . كان بلا منازع الزعيم الروحى والقائد

الموجه للحركة العمالية . ولو عاش لاحتفظت الحركة بولائها لاهدافها
ولكننا قد حققنا مجتمعا اكثر مساواة وانه لمن المخجل ان احدا لم
يكتب عنه او يؤرخ له برغم الاثنى عشر مجلدا التى نشرت متضمنة
مقالاته وخطبه . ولا يسعنى الا ان اقدم للعالم هذا الرجل الذى كنا -
بما هينا بن جوربون - نكن له اعمق التبجيل .

وكان بيرل صغير الجسم ، هائش الشعر ، تكاد عيناه تنفذان اليك
خلال حديثه معك . وكنا نسعى اليه في بيته الذى كان يعمل فيه ،
لانه كان يكره الذهاب الى المكتب . لكنه لم يحدث ان جرى شئ او
اتخذ اى قرار يتعلق بالحركة العمالية والشعب اليهودى في فلسطين .
قبل ان يؤخذ رأى بيرل فيه .

وكان يقبع في كرسيه ، واضعا ذقنه فوق يده ، ويطلق توجيهاته
الحاسمة بشأن الحركة العمالية رغم انه لم يتقلد فيها من المناصب
الرسمية سوى رئاسة تحرير دافار وادارة احدى دور النشر . ولو انه
عاش حتى عام ١٩٤٨ لكان قد رفض الاشتراك في الوزارة ، اذ كان
يكره المناصب العامة ويزهد فيها وبقينا طيلة العشرينيات
والثلاثينيات واوائل الاربعينيات ، إلى ان مات . لا يقرر واحد منا
شيئا قبل ان يسأل أولا « ولكن ما هو رأى بيرل ؟ » .

وكان من الصعب الا نعجب بحكمته ونؤخذ بسحر شخصية . ولم
يكن يجلس مع القادة على مائدة الرئاسة في المؤتمرات . كما لم يكن
خطيبا ، لكنه ما ان يعتلى المنصة حتى يمتنع الكل عن الهمس او
الكتابة . ويستغرقون في الاستماع اليه رغم انه كان يطيل الحديث
احيانا الى ثلاث ساعات .

كان يؤمن بأن اشتراكيتهما يجب أن تكون من نوع مختلف فنحن نخلق مجتمعا لا اتحادا تحاريا ، وان صراع الطبقات لا معنى له في مجتمع لم توحد فيه طسقات بعد . وكان يصف الصهيونية بأنها « الخطة التي يرتهن بها التاريخ اليهودى المعاصر » . ويرى انها تعنى « ثورة شاملة ضد عبودية الشتات » واصبح بيرل الاب الروحى لكثير من الاجهزة الهامة في الهستدروث . فهو الذى طرح فكرة بنك العمال والجمعية التعاونية للعمال وصدوق العمال المرضى .

وقد نادى بيرل بالهجرة اليهودية « غير المنتقاة » في حين كان البعض يفضلون هجرة المدربين . كما نادى بالهجرة غير الشرعية . وقال ذات مرة « من الآن فصاعدا لن يكون قائدنا الرائد وانما اللاجئ » . وهو المسئول عن فكرة اسقاط اليهود الفلسطينيين (في اطار قوات الحلفاء) خلف خطوط النازى في محاولة يائسة للوصول الى يهود اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . كما انه أول من صاغ الطلب العاجل بقيام الدولة ، رغم ان بن جوريون هو الذى طرحه امام اجتماع في نيويورك عام ١٩٤٣ .

وكان بيرل يكن اعجائيا كبيرا لبن جوريون لمقدرته على اتخاذ القرارات والحركة . وكان يعبثه اكبر رجل دولة شهدته الحركة . والشعب اليهودى « في عصرنا » . وظل بن جوريون يحتفظ - الى أن مات - بصورة بيرل فوق مكتبه . وتلك هى الصورة الوحيدة في غرفة المعيشة في منزلى .. نظرا لكراهية بيرل للسياسة . التى كان بن جوريون يفضلها . فكثيرا ما كانت المواقف بينهما تتعارض وتأتى نتيجة التصويت ضد بن جوريون . وفي عام ١٩٣٧ كان بن جوريون يؤيد اقتراح لجنة بيل الملكية بتقسيم فلسطين . اما بيرل فقد عارض

موافقتنا على التقسيم على اساس (وهو ما نبث بعدئذ انه صحيح) ان
بريطانيا لن تنفذ هذه الخطه . في حين نبفى موافقتنا مسجلة علنا الى
الابد وتستخدم ضدنا .

وكان يولى اهتماما كبيرا للشباب وصغار السن . ربما لانه كان بلا
ولد . وكثيرا ما كنت القاه فيقضى معى الساعات الطويلة نتحدث في
كل شىء . نقطع شارع روتشبلد طوال الليل . كما كان يحرص على
سظيم الندوات وعقد الاجتماعات مع الشباب . ولى اسى بالطبع بلك
الليلة المفزعه التى مات فيها بيرل في القدس . وقد وقفنا جميعا عر
فادريين حتى على بخيل كيفية الاستمرار بدونه . وكنب ليلتها أشاهد
احدى المسرحيات . فتوجهت فورا الى القدس . اما بن جوريون . وكان
في حبفا . فلم يجرؤ احد على ان يحدثه بعد أن علم بالخبر وظل
يبكى طوال الليل . لقد فقد الرجل الوحيد الذى كان يرى قيمة
لرايه . بل صديقه الوحيد ..

الفصل السادس

نحن سنحارب هتلر

كنت في أغلب الاحيان غائبة عن فلسطين خلال عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ . فذهبت مرة الى الولايات المتحدة ومرتين الى بريطانيا كممثلة للحركة العمالية . وكانت الرحلة تستغرق عدة اسابيع فلم اكن اقفز بالطائرة عبر المحيط ، وان كنت قد ركبت الطائرة عام ١٩٣٩ للمرة الاولى وبقيت طوال الرحلة مشدودة الى مقعدي اكاد اتجمد من الخوف . وعندما كان الصداغ يجبرني على البقاء في البيت كانت سارة ومناحم يرقصان حولي وهما يعنيان « ماما في البيت . ماما عندها صداغ » . لكنني كنت قد تعلمت أن الانسان يعتاد على ما هو فيه اذا كان مضطرا ، حتى ولو كان احساسا دائما بالذنب .

كانت عودتي الى الولايات المتحدة كأنتى ازور بلدا جديدا لم اعرفه من قبل . وكانت المنظمة التي اوفدت اليها ، وهي النساء الرائدات ، قد أنشأتها راشيل يانيث بن زفي قبل ثلاثة أو أربعة اعوام بالاشتراك مع النساء اللاتي كان ازواجهن من العاملين في الحركة العمالية الصهيونية . وقد قام هؤلاء النسوة بنشاط واسع لجمع التبرعات من اجل مزارع تدريب الفتيات في بتاح تكفا وغيرها . وقمت أنا ايضا بنشاط كبير فكنت القى الخطب واجيب على الاسئلة واشرح الموقف في فلسطين .

كذلك تحدثت اليهم عن المسرح السياسى داخل فلسطين . حيث كان يجرى اندماج حزبين عماليين كبيرين هما هابوعيل هاتزاعير (اى العامل الصغير) واحدوت هاعفودا (الذى كنا ننتمى اليه) وهو حزب اشتراكى وجزء من الاشتراكية الدولية . وبرغم الاختلافات بينهما فقد اتحدا وكونا حزب الماباى (حزب العمل الأرضى اسرائيل) . وكان هناك حزب آخر يينغ نجمه هو هاشومير هاتزاعير (الحارس الصغير) يضم فى الاساس سكان الكيبوتزات .

وفى الاربعينيات انشقت مجموعة من الماباى وانضمت الى الهاشومير هاتزاعير . مشكلين حزبا جديدا هو المابام (حزب العمال المتحدين) . وفى الستينيات حدثت عدة اندماجات اخرى . لكن الماباى ظل مسيطرا طوال السنين . ويعتبر تاريخه هو تاريخ الدولة نفسها . فلم يحدث أن تشكلت حكومة اسرائيلية دون أن تكون للماباى الاغلبية فيها . وبالنسبة لى كان الماباى هو حزبى اذ لم يتغير ولائى له أو ايمانى بأن اساس الصهيونية العمالية هو حكم حزب عمالى موحد يضم مختلف الاراء .

على أية حال ، وجدت النساء الرائدات مهمات بما يحدث فى فلسطين وبالمحافظة على اللغة اليديش . وذهبت الى كيلفلاند لرؤية اختى كلارا التى لم أكن قد قابلتها منذ كانت فى سن المراهقة . كانت قد تزوجت من شاب يدعى فريد ستيرن ورزقت بولد اسمه دانييل ديفيد . وكان زوجها عصاميا بدأ ببيع الصحف وهو فى السادسة . ثم تخرج من الجامعة معها كإخصائيين اجتماعيين . كان عالم كل منا مختلفا عن الآخر . صحيح انهما كانا يهتمان بالحياة اليهودية مثلى . ولكن من الناحية النظرية فقط . وكنت اعلم ان كلارا لن تأتى الى فلسطين لشعورها بأنها تنتمى الى الولايات المتحدة . أما فريد فقد

اوضح لى انه يعارض كل اشكال القوميات وانه ينظر الى الصهيونية على أنها حركة رجعية الى اقصى الحدود .

وقد انتقلت اختى كلارا فيما بعد الى كونبكتيكت واصبحت المدير التنفيذي للمجلس اليهودى هناك . لكنها فقدت ابنها الذى توفى في الثامنة عشرة من عمره . ومرض زوجها وبترت ساقه . أما في عام ١٩٢٩ فقد علمت من كلارا انها لن تنضم البنا في فلسطين .

وفي عام ١٩٣٠ شاركت في انجلترا في مؤتمر الاشتراكية الذى ضم ١٠٠٠ مندوب . وهناك عرفت مدى اهتمام العالم بما يسمى قضية فلسطين . وتحديث في هذا المؤتمر عدة دقائق . ولكننى طفت ارجاء انجلترا القى المحاضرات واتحدث عن التجربة . وهناك رأيت النساء البريطانيات فعلا . واللانى اختفلن كثيرا عمن رأيتهن في فلسطين واللانى كن ينظرن الينا على أننا مصابون بالعقد ومدعون . وشرحت لهن ايضا تطورات الموقف في فلسطين حيث انفجرت الاضطرابات العربية عام ١٩٣٩ بتوجيه من مفتى القدس الحاج امين الحسينى (والذى ساءت سمعته فيما بعد بسبب تأييده ومتابعته للفاشية والنازى خلال الحرب العالمية الثانية) .

وعدت الى لندن ثانية خلال هذا العام كمندوبة في مؤتمر العمل الامبراطورى . وكان رئيس الوزراء انثذ هو رامزى ماكدونالد الذى اصدرت حكومته الكتاب الابيض الشهير عام ١٩٣٠ (والمعروف بكتاب باسفيلد) وقيدت به الهجرة اليهودية الى فلسطين . وهكذا بدت الامور بعد ثلاثة عشر عاما من تصريح بلفور . وكأن بريطانيا تولى اهتمامها الى استرضاء العرب لا الى تنفيذ وعدها لليهود .

ورسا لاننى عشت في امريكا . فاننى لم أكن ككثير من اصدقائى مفتونة بالانحياز . وكان لدى غالبية يهود فلسطين ايمان قاطع بأن

بريطانيا سوف تحافظ على وعدها ، على الرغم من التصرفات العكسية وموقف وزارة المستعمرات المؤيد للعرب . واعتقد ان هذا الموقف باع من الاحترام الهائل الذى كان يكنه يهود اوربا الشرقية في القرن التاسع عشر للديمقراطية البريطانية وكان الكثيرون ينظرون الى المؤسسات البرلمانية والمدنية البريطانية على اعتبار انها قاربت حد الاعجاز . في حين أنى انا التى عشت في ديموقراطية حقة في امريكا . لم اكن اشاركهم هذه النظرة .

ومن الامور الملحوظة انه برغم الصراع المرير الذى دار بيننا - نحن الاسرائيليين - وبين البريطانيين . فإننا لا نزال نكن للشعب البريطانى كل تقدير واحترام . وما زال يؤلما جدا ان يخذلنا البريطانيون في اى موقف عن أى امة اخرى وهناك عدة اسباب لذلك . اولها ان بريطانيا هى التى منحتنا وعد بلفور ، وثانيها موقف بريطانيا بمفردها أمام النازى . وثالثها ذلك الاحترام المتأصل لدى اليهود للتقاليد . وبقي الشعب اليهودى في فلسطين . خلال اعوام الانتداب الثلاثين . يفرق بين البريطانى العادى والبريطانى الرسمى في حكومة الانتداب . اما على الصعيد السياسى فقد بقى هذا الحب من جانب واحد .

وتقرررت لى رحلة اخرى الى امريكا . فقد مرضت سارة وساءت حالتها من اثر الحمى الى ان كادت تموت . ولم يكن هاك من خبار الا أن اضطحبها الى الولايات المتحدة ، لأعالجها . هناك . رغم نصيحة الاطباء بعدم المخاطرة ورغم معارضة والدى وتوجهت الى مجلس النساء العاملات طالبة تكليفى بمهمة لدى النساء الرائدات . وكانت الرحلة بالقطارات والبواخر تستغرق قرابة الاسبوعين . ولا احد يعلم ما قد يحدث لسارة خلالهما . وسافرت انا والطفلان .

ووصلنا الى الولايات المتحدة ونزلنا في شقة بعض اصدقائنا . وعلى الفور ادخلت ساره في مستشفى بيت اسرائيل في بروكلين . وكم كان صعبا على أن ادع سارة . وهى في السادسة من عمرها في المستشفى بمفردها ، وكانت لا تعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية . واتضح أنها مصابة بمرض في الكليتين وكانت تتلقى علاجاً خاطئاً في فلسطين . وبعد ستة اسابيع من العلاج ، كتبت الى موريس ابلغه أن سارة قد استردت صحتها تماما .

وعادت سارة الى البيت وقد تعلمت بعض الكلمات الانجليزية من ممرضاتها ، بينما كان مناحيم يكافح من اجل شرح ما يريده بخليط من العبرية واليديدش . واصطحبتها معى لزيارة كلارا ، وام موريس . ولكنهما كانا يفقدان اباهما ويكرهان رحلاتى التى كانت تمتد احيانا قرابة الشهر ، بل ان احداها استمرت ثمانية اسابيع كنت فيها القى الخطب عن فلسطين واجمع التبرعات والمجندين .

وقد استقبلتنى مجلة النساء الرائدات ، التى رأست تحريرها فيما بعد لفترة ، بمقالة تشيد بعملى ونشاطى . ولم يكن جمع الاموال ينم في تلك الايام بملايين الدولارات كما يحدث اليوم ، لكن كل ملين كان ضروريا مثلما هو اليوم . ولم يكن برنامج التبرعات يتم بالالتزامات الاصلية ، ففى نيوارك مثلاً تعهدوا بجمع ١٦٧ دولارا لكنهم لم يجمعوا سوى ١٧ دولارا فقط في فترة تسعة اشهر . وكنت اتلقى العديد من الرسائل من مختلف فروع الولايات الامريكية ، تبين لى مدى تنظيم أوجه النشاط فيها وتطلب منى المشاركة فيها بالحضور والحديث - ورغم أن العمل ، وتلبية هذه الطلبات ، كان مرهقا فإن الملل لم يصبنى وازداد ايمانى بحتمية العمل الذى تؤديه النساء الرائدات .

وكانت هناك بعض الجوانب المريحة في هذه الرحلات . ففي احداها جاءتنى رئيسة النساء الرائدات وقالت لى : انك تتكلمين جيدا لكنك لا تتحدثين كالنساء وانما كالرجال . وقالت لى ان راشيل يانيت بن زفى كانت تبكى عندما تتحدث فكلنا نبكى معها . اما انت فنحن لا نبكى معك لانك تحدثينا عن اشياء كالهستدروث ومشاكل الهجرة .

وكنت من ناحية اخرى لا أعرف شيئا عن جمع الاموال . وفي احدى الزيارات وجدت جماعة صغيرة من اليهود استطاعت ان تجمع اموالا اكثر مما هو مطلوب منها . وعندما سألتهم عن كيفية ذلك قالوا « بواسطة لعب الورق » (الكوتشينة - الشدة - وكدت اضرب السقف برأسى وانا اصرخ فيهم طالبة منهم ان يلعبوا الورق كما يشاءون ولكن دون ان يكون ذلك باسم فلسطين . وعندئذ سألتنى احدى النساء « الا تلعبون الورق يا جولدى في فلسطين ؟ فقلت لها .. لا .. اى شعب ذلك الذى تخيلينه ! » . لكننى بعد عام من تلك الواقعة ، كنت امر في تل ابيب فرأيت مجموعة من اعضاء الهستدروث يلعبون الورق وأردت ان اكتب لهذه السيدة معذرة لكننى لم اكن اعرف عنوانها .

وكنت خلال رحلاتى اكتب المقالات لمجلة النساء الرائدات . وتركزت معظمها في مشاكل العمال والعمل الصهيونى . وفي ربيع عام ١٩٣٣ كتبت مقالة ارد فيها على اتهام بأن حركة العمال - الصهيونيين قد نجحت بسبب الدعم المالى الذى جاءها من اليهود البورجوازيين الرأسماليين . وقلت اننا نعتمد على شيئين : العمال ليقوموا بالعمل والمال اللازم لهذا العمل ، وأننا لانعتقد ان الاموال التى نجمعها يجب ان نختم بخاتم « الطبقة العاملة » . واكدت في هذه المقالة أننا نرحب برأس المال الخاص ولكن بشرط ان يلتزم بخلق العمل لليهود ولا يستخدمه

الا اليهود . والا لما تحقق الهدف الذى نريده جميعا وهو الهجرة
الجماعية .

وبدأت في صيف عام ١٩٣٤ أعد العدة للعودة بعد ان عملت مع
النساء الرائدات ولقيت كل تقدير واعجاب وعدت الى فلسطين . وقد
استرد طفلأى قواهما . في حين اصبح مناحيم هاويا للموسيقى . الامر
الذى اسعد موريس وجعله يقضى العطلات معه وهو يدربه ويعمق
احساسه وتذوقه للموسيقى . علما بأننى فيما بعد كنت أنا التى احمل
آلة التشيلو لمناحيم وهو في طريقه الى تلقى دروس الموسيقى الى ان شب
عوده .

وان هى الا اسابيع بعد عودتى . حتى طلب منى الانضمام الى
فاعد ها بوعيل (اللجنة التنفيذية للهستدروث . وكان الهستدروث
شكلا متطورا للحكم الذاتى اليهودى في فلسطين . وكانت
الفاعد ها بوعيل بمثابة « الوزارة » . وطوال السنوات الاربعة عشرة
العاصمة التالية عهد الى بالكثير من الحقائق والمسؤوليات فيها . وعموما
كانت كل هذه المهام تتلاءم مع ما كنت أحبه فعلا وهو ترجمة
المبادئ الاشتراكية الى واقع في حياتنا اليومية .

ولو أن الاحوال الاقتصادية في المجتمع كانت احسن . لكننا قد
حققنا مساهمة عادلة في كل الاعباء داخل مجتمع العمل . كنا جميعا
نتقاضى راتبا محددا يزداد فقط بالاقدمية وعدد الاولاد . وقد يكون
هذا المبدأ غير عملى من وجهة نظر البعض في اسرائيل الآن . لكنه في
تقديرى كان صحيحا وكنت اوافق عليه . وقد كان راتب بواب
الهستدروث اكبر من راتبى لان له تسعة اطفال في حين ان لدى
طفلين . وخضت صراعا طويلا داخل الهستدروث من اجل انشاء
صندوق للمتقاعدين عن العمل (الذين بلغوا حوالى العشرة آلاف في

احدى سنوات الثلاثينيات) واسميناها « مفدى » (فدية) وهى عبارة عن اجر يوم كل شهر يدفع لهذا الصندوق كضريبة « فردية »
 وازاء هذا الاقتراح اتهمنى البعض بأننى اهدم الهستدروث . لكن
 بن جوريون وكاترتسلون وغيرهما أيدونى . واستخدمنا فيما بعد
 اسلوب المفدى في حملات أخرى مثلما حدث عام ١٩٣٦ عندما تصاعدت
 الاضطرابات العربية واضطربنا إلى فرض ضريبة دفاع على الشعب
 اليهودى بأسره . ومثلما حدث خلال الحرب العالمية الثانية عندما
 انشأنا صندوق الحاجة والاغاثة .

كذلك عشت المأساة التى مر بها الماباى . وكنت اثناءها في
 الولايات المتحدة . اذ كان احد القيادات الشابة للماباى . وهو حايم
 ارلوسوروف فد عاد من المانيا هتلرية بعد جولة تفقدية . فاغتيل وهو
 يمشى على الشاطئ مع زوجته . واتهم بارتكاب الجريمة ابراهام
 ستافسكى احد اعضاء حزب التصحيحين اليميني . وان كانت محكمة
 الاستئناف قد برأته فيما بعد لعدم كفاية الادلة . وكان أرلوسوروف
 يمثل الاعتدال والحيطة وكان اغتياله بمثابة نتيجة حتمية للسياسة
 المعادية للاشتراكية واليمينية والعسكرية والمتطرفة التى كان
 التصحيحيون ينادون بها . وهكذا انقلب الصدام بين اليمين واليسار في
 الحركة الصهيونية الى فجوة لم تسد حتى يومنا هذا ولا اظنها سوف
 تسد ابدا .

وكانت المعركة قد تصاعدت داخل الشعب اليهودى في فلسطين في
 نهاية عام ١٩٣٣ وبداية عام ١٩٣٤ ، فالتصحيحيون يرون ان الهستدروث
 يسيطر على الشعب اليهودى ويبعد العمال غير الاشتراكيين وكأنه يريد
 تجويع معارضيه السياسيين . وكثيرا ما وقعت مصادمات دموية احيانا
 بين العمال في كل انحاء البلاد . وطرح بن جوريون شعار الوحدة

داخل المجتمع اليهودى في فلسطين مهما كان الثمن . واقترح وقفا لاطلاق النار في صيغة اتفاق عمالى بين اليمين واليسار . لكن مصرع ارلوسوروف جاء ليقضى على كل ذلك .

وكانت هناك مشاكل أخرى . كان هتلر قد وصل الى السلطة عام ١٩٣٣ وبدا يتحدث عن سيادة « الجنس » الأرى .. وظهرت واضحة في حديثه نغمة معاداة السامية منذ البداية . فقد استهل نشاطه بالتشريع المعادى لليهود الذى حرم يهود المانيا من حقوقهم المدنية والانسانية العادية . ولم يكن يتخيل ان هتلر سوف ينفذ وعده بتدمير اليهود ، أو أن العالم سوف يسمح بذلك . صحيح اننا لم نكن من النوع الذى يسهل خداعه ، لكننا لم نكن نتصور ان يحدث ما هو غير متصور .

ثم بدأت نتائج « الحل النهائى » لهتلر والاضطهاد النازى تؤتى ثمارها عندما هرع الآلاف من اللاجئين الى فلسطين فرارا من المانيا برغم كل قيود الانتداب البريطانى في عام ١٩٣٤ . وكان معنى ذلك أن هناك ٦٠.٠٠٠ رجل وامرأة يجب استيعابهم وسط شعب يكاد لا يفى بحاجاته ، وبرغم الارهاب العربى المتزايد واللامبالاة - ان لم نقل العداوة - من جانب حكومة الانتداب . وكانوا جميعهم من ذوى الثقافة العالية والصناعيين واصحاب الطاقات الكبيرة ، الذين قدموا اكبر المساهمات الى اليشوف (الشعب اليهودى في فلسطين) .

كان علينا ان نجد لهذه الآلاف مساكن واعمالا ونعلمهم العبرية ونعودهم على الظروف الاصعب والاقسى . وكان يجب تحويل المحامى القادم من برلين والموسيقار القادم من فرانكفورت والكيميائى النمساوى الى مزارع وصانع طوب ، وذلك بين ليلة وضحاها . واقف الآن امام هذا الموقف وانا افكر كيف استطاع اليشوف أن يعبره وان يخرج منه بأقوى مما كان . واعتقد ان هناك نوعين من الاستجابة لمثل هذه

الحنة القومية . فإما الانهيار . والاستسلام على أساس أنه لا يمكن عمل شيء . واما ان نعص على النواجد ونحارب على أية جهات نراها لازمة لاية فترة لازمة مهما كان طولها ، وذلك هو بالضبط ما فعلناه . وما زلنا نفعله حتى الآن .

واليوم ونحن في عام ١٩٧٥ يسألني الكثيرون ما الذي ستفعله اسرائيل في مواجهة العرب الذين يريدون تصفية الدولة . وكيف نتصرف ازاء وفرة المال والسلاح والرجال لديهم ، فأجيبهم بأن الامور كانت اصعب بكثير منذ اربعين عاما واستطعنا أن ندبر امورنا .. رغم ان الثمن كان دائما غاليا . وكلما رجعت بذاكرتى الى هذه السنين الاربعين ، كلما ازدادت ضخامة انجازاتنا وضوحا ، ولعل ذلك يفسر حقيقة ان المتفائلين في اسرائيل الآن هم الكبار في السن مثلى .

وتحددت الاولويات امامنا .. وتحتم القيام بالعمل اليومي مهما كانت الظروف . فبالنسبة لى مثلا كانت اهتماماتى الروتينية هى رئاسة هيئة صندوق المرضى والاشراف على عمال الهستدروت القائمين ببناء المعسكرات البريطانية وإجراء العديد من المباحثات الاخرى ثم القيام بعملى فى المنزل ومساعدة مناحيم وسارة فى اتمام واجباتهما المدرسية .

وكان علينا فى نفس الوقت ان نتخذ او ننفذ قرارات هامة بالنسبة للييشوف عموما ، واولها الموقف بالنسبة للارهاب العربى . ففى عام ١٩٣٦ وحده احترقت مئات الآلاف من الاشجار التى زرعها اليهود بالحب والامل واحترقت الحقول ووقعت ٢٠٠٠ هجمة اسفرت عن مقتل ٨٠ يهوديا واصابة كثيرين بجراح خطيرة . وبانتهاء « الثورة العربية » فى عام ١٩٣٩ كان خمسمائة من اليهود قد سقطوا ضحايا للعنف العربى .

وقد بدأت الاضطرابات في ابريل (نيسان) ١٩٣٦ . واصبح من غير المأمون ان يسافر اليهودى من مدينة الى اخرى ، حتى انى كنت اقبل اطفالى كلما توجهت من القدس الى تل ابيب لعلمى بأننى قد لاعدود اليهم . وكانت الهاجاناه (المنظمة اليهودية للدفاع عن النفس) قد نمت وازدادت عدتها عما كانت عليه في عام ١٩٢٩ ، لكننا لم نكن نعتزم تحويلها الى اداة للعنف المضاد لا للعرب ولا للبريطانيين حتى لا تستخدم كحجة ضد الهجرة اليهودية والاستيطان . ورغم ان ضبط النفس أصعب بكثير من الرد والانتقام ، فقد قررنا الا نفعل شيئا حتى ولا في مواجهة الخطر المستمر حتى لا ندفع البريطانيين الى اتخاذ مزيد من اجراءات الحد من عدد اليهود المسموح لهم بدخول فلسطين . وتم تنفيذ سياسة ضبط النفس (هافلاجا بالعبرية) بكل صرامة . والتزم اليهود بالدفاع فقط دون اى انتقام او رد من جانب الهاجاناه طوال السنين الثلاثة التى اختار البريطانيون - بفهم رائع - تسميتها بـ « القلاقل » .

لكن البعض نادى بالعنف المضاد واتهموا « الهافلاجا » بالجبن اما انا فقد كنت - كالاغلبية - ارى ان الهافلاجا هى الاسلوب الاخلاقى الوحيد والاوحد الذى يجب علينا اتباعه . وكنت اوافق على الرد بالذات على عمليه بعينها ، لكننى لم اقر اطلاقا فكرة الهجوم على العرب دون تمييز بين ما اذا كانوا من مثيرى الشغب ام لا . ولعلنى في هذا الصدد اتناول - ولو باختصار - ذلك الادعاء الذى سمعته سنين طويلة بأننا قد تجاهلنا عرب فلسطين وانصرفنا الى تنمية وتطوير البلد وكأنه ليس فيها سكان عرب بالمرّة . لقد كان المجرسون على الاضطرابات يقولون بأن العرب يهاجموننا لانهم « جردوا من ممتلكاتهم » ، ولست في حاجة الى العودة الى السجلات البريطانية لكى

أؤكد ان السكان العرب قد تضاعف عددهم منذ بداية الاستيطان اليهودي . وقد كان مستوى معيشة عرب فلسطين اعلى بكثير من غيرهم من عرب الشرق الاوسط . الامر الذي دفع بجحافل العرب من سوريا وغيرها الى الهجرة الى فلسطين . اما ذلك البريطاني الذي اوصى بوضع حد للهجرة اليهودية الى فلسطين على اساس انه لا يوجد فيها مكان . فإننى اذكر الان تلك الخطب التي كنت القاها عن الطاقة الاستيعابية لفلسطين المستقاة من واقع الاحصاءات البريطانية الرسمية . ومن واقع ما رأيته بعينى .

كذلك فقد كان هناك الكثير من اليهود في البلاد العربية . وكنا نأمل لهم ان يعيشوا في امان ومساواة . ولعل ذلك من اسباب تمسكنا بسياسة ضبط النفس لكن المصالحة التي كنا نحلم بها لم تتحقق . واضطررنا الى النزول لملء الفراغ الاقتصادي الناجم عن اعلان اللجنة العربية العليا . برئاسة المفتى . للاضراب العام على امل شل اليشوف كله . وامر المفتى بأن لا ينزل عربى الى عمل الا اذا توقفت الهجرة اليهودية وتوقف اليهود عن شراء الاراضى . وكان لدينا الرد البسيط على ذلك . اذا تعطل الميناء في يافا فليكن لنا ميناء في تل ابيب .. واذا توقف المزارعون العرب عن تسويق محاصيلهم فعلى المزارعين اليهود ان يضاعفوا مجهوداتهم مرتين وثلاثة باختصار . كل ما يرفض العرب عمله . سوف نعمل نحن على ادائه . بشكل او بآخر .

وهناك بالطبع العديد من الناس الذين اثرت اراؤهم واحكامهم وشخصياتهم في هذه القرارات - بما فيهم الى حد قليل شخصى - لكنه يبقى فوق الآخرين . رجل كنا وبقينا نعتمد على صفاته القيادية النادرة وحسه السياسى . الا وهو بن جوريون - وقد زرت قبره

مؤخرا في سدى بوكري في صحراء النقب . وتذكرت محادثة جرت بيني وبينه في عام ١٩٦٣ عندما استقال (للمرة الثانية والاخيرة) من رئاسة الوزراء وهرع اليه العديد منا يرجونه ان يغير رأيه ، ويومها قلت له اننا لو وقفنا في ميدان التايمز وسألنا الناس عن اسماء رؤساء ورؤساء وزارات الدول فقد لا يعرفون . لكنهم سيعرفون بالطبع ان بن جوريون هو رئيس وزراء اسرائيل - ولم افلح يوما في اقناعه . لكنه مما لا شك فيه ان كلمتي « اسرائيل » و « بن جوريون » سترتبطان سويا ربما الى الابد في اذهان الناس . واعتقد ان الشعب اليهودي لن ينتج رجلا في مثل شجاعته وعظمته وحصافته .

وانه لمن الصعب ان اصف هذا الرجل الذي اعجبت به وتابعت طيلة هذه السنين بل وعارضته كثيرا . لم يكن من السهل ان يكون الانسان قريبا اليه ، بل لا اعتقد انه كان قريبا لاحد فيما خلا زوجته باولا وربما ابنته رينانا . كنا جميعا - انا وبيزل وشازار وريمز واشكول - نحب رفقة بعضنا ونتزاور لنحدث لا في السياسة فحسب بل في امور الناس ، الا بن جوريون . فما لم يكن لديك عمل معه فلن تراه . لم يكن يحتاج الى الناس مثلنا .. كان لديه اكتفاء ذاتي . لكنه ايضا كان لا يعرف شيئا عن الناس ، رغم انه كان يغضب مني فعلا كلما قلت ذلك له .

واعتقد ان عدم احتياجه للناس يعود في جزء منه الى حقيقة أنه كان يجد من الصعب أن يتحدث الى الناس . وقد ابلغني ذات مرة انه عندما جاء الى فلسطين عام ١٩٠٦ سار مع راشيل يانيت ليلة بكاملها دون أن يتحدث اليها بكلمة واحدة . ولا اعتقد انه تحدث مع احد عن زواجه أو اطفاله ، فذلك اشياء كان يرى الحديث فيها مضية للوقت .

وكلما وجد امرا يهيمه او يثير انتباهه ، عكف عليه بتركيز شديد ، ولم تكن نفهم ذلك وتقدره . وفي احدى المرات ، في عام ١٩٤٦ على ما اظن ، وكان رئيسا للوكالة اليهودية طلب منه اجازة « لعدة اشهر » لكى يعرف بالضبط كل ما فى حوزة الهاجاناه وما تحتاجه لصراع كان يراه مقبلا . واصبح الامر مجالا لضحكاتنا حول ما اسميناه « بندوة بن جوريون » ، فمن ذا الذى يذهب « للدراسة » في هذا الوقت العصيب . لكن بن جوريون امتلك بعد عودته قدرا من المعلومات يفوق كل معلوماتنا مجتمعة . ثم اعمل حسه الرائع مع المعلومات التى جمعها ، وتوجه الى يهود الولايات المتحدة الامريكية - قبل حرب الاستقلال بثلاثة اعوام - وسجل مساعداتهم من اجل « الحتمية المحتملة » للحرب مع العرب .

لم يكن بن جوريون رجلا قاسى القلب ، لكنه كان قادرا على اتخاذ القرارات الحاسمة حتى ولو كانت ارواح الناس هى الثمن . وفي احدى الليالى في اوائل عام ١٩٤٨ قال لى ريمز « انت وبن جوريون سوف تحطمان آخر امل للشعب اليهودى » . ومع ذلك فقه نسكر بن جوريون من اخراج الدولة اليهودية الى حيز الوجود . صحيح انه لم يفعل ذلك وحده ، لكننى اشك كثيرا في انها كان يمكن ان تقوم بدون قيادته .

وعملت معه منذ البداية ، وكان يثق في ، واعتقد انه كان يعجب بى . وظل سنين طويلة لا يسمح لاحد بأن ينتقدنى في حضوره رغم خلافى معه احيانا في امور هامة مثل اقتراحات لجنة بيل بتقسيم فلسطين ، والهجرة اليهودية « غير القانونية » التى لم يأخذها بن جوريون في البداية مأخذ الجد .

هل كان ديكتاتوريا ؟ الواقع .. لا . ومن السخف القول ان الناس كانت تخاف منه ، لكنه لم يكن بالرجل الذى يسهل الخلاف معه . ومن بين الذين اختلف معهم بن جوريون ، وملأ حياتهم بالمرارة ، إثنان من رؤساء وزارات اسرائيل هما موسى شاريت وليفى اشكول . لكن كان هناك ايضا اخرون غيرهم .

كان يكره ان يتهم بأنه يسيطر على الحزب وعلى الحكومة بطريقة اوتوقراطية مطلقة . وفي احدى اجتماعات الحزب سأل بن جوريون الوزير بيريز نفتالى ، هل ادير انا اجتماعات الحزب بطريقة غير ديموقراطية ؟ فرد عليه نفتالى قائلا ، لا اعتقد ذلك ، وانما اعتقد ان الحزب ، بواسطة اكثر الوسائل ديموقراطية ، يقرر دائما التصويت على الاسلوب الذى تريده انت . وقد ارضى هذا الرد بن جوريون ، وكان رأيا دقيقا ، رغم انه لم يكن يملك اى قدر من روح الدعاية (ولا اذكر ولا مرة ان بن جوريون صدرت عنه نكته) .

واذكر بهذه المناسبة اجتماعا للاشتراكية الدولية كنت احضره . وفي جلسة ضمت ويلي برانت وبرونو كرايسكى وهارولد ويلسون ، سألتونى كيف ادير اجتماعات الوزارة ، فقلت لهم بالتصويت . فاصيبوا بدهشة بالغة اذ انهم - كما قالوا - كانوا يكتفون بعرض ملخص للموضوع المطروح ثم القرار الذى سيتم اتخاذه دون ان يجرؤ احد على معارضته . واحتاج الامر الى شرح مستفيض لكى ابين لهم طبيعة الوزارة التى تتكون من ائتلاف حكومى ، ومن هنا فإن كل عضو لابد وان يتحدث فى كل موضوع ومن هنا كانت اجتماعات الوزارة تستمر طويلا .

واعود الى بن جوريون لأقول ان الشيء الشاذ فيه هو أنه مهما كان مخطئا من الناحية النظرية فإنه كان دائما من الناحية العملية

على صواب . وذلك هو الفارق الحقيقي بين رجل الدولة والسياسي صحيح اننى لم اسامحه على موضوع لا فون ، ولا على الاساءات التى كالحا لزملائه والاضرار التى الحقها بحركة العمل فى السنوات العشر الاخيرة من عمره ، لكنه الشخص الوحيد الذى يعتبر - اكبر من غيره - مسؤولا عن انشاء الدولة اليهودية .

وفى عام ١٩٣٧ ارسلونى ثانية الى الولايات المتحدة الامريكية لجمع الاموال لتنفيذ مشروع للهستدروث. كنت معجبة به (واعجب به اطفالى) ، كان المشروع بحريا تحت اسم ناتشون (على اسم اول اطفال اسرائيل الذين القوا بأنفسهم فى البحر تنفيذا لتعاليم موسى بعد الخروج من مصر) . وكان من بنات افكار دافيد ريمز اثر اندلاع الاضراب العربى العام . لقد كان اليهود القدماء فى فلسطين يعملون فى البحر ، غير انهم الان يحتاجون الى تدريب واسع على اعمال البحر ، خاصة بعد اغلاق ميناء يافا عام ١٩٣٦ . وكان علينا ان ننشئ ميناء ، وان نشترى سفنا وان ندرّب بحارة ، لنعود دولة بحرية من جديد .

وبكل معنى الكلمة ، كان يوم افتتاح ميناء تل اييب عيدا قوميا ليهود فلسطين . لم يكن الرصيف الخشبى - الذى تغير فيما بعد الى حديدى - يماثل ميناء روتردام او هامبورج ، لكنه كان ميناء نملكه نحن . وطففت علينا مشاعر الفخر والاثارة . وكنت اقضى كثيرا من الامسيات فى منزلى ، اجلس فى الشرفة ، واحلم باليوم الذى يكون لنا فيه اسطول تجارى يرفع علم نجمة داود . لكن البحر كان يرتبط لدينا باليهود الفارين من الحكم النازى والقادمين الى فلسطين بالبوادر . وكنا فى عام ١٩٣٩ ، والحرب العالمية على الابواب ، واصبح متوقعا ان يوقف البريطانيون دخول اليهود كلية الى فلسطين .

وكانت لجنة بيل قد اوصت بعد جولتها في فلسطين عام ١٩٣٦ بتقسيمها الى دولتين احدهما يهودية تشمل ٢٠٠٠ ميل مربع . والاخرى عربية تشمل بقية فلسطين . فيما عدا القدس فتصبح دولة مع ممر الى البحر . وكنت ارى ان هذه الدولة صغيرة للغاية بحيث لا تصلح وطناً قومياً لليهود . وشاركنى في رأىى العديد من زملائى من بينهم بيرل . اما بن جوريون . والذي اثبتت الايام صحة رأيه . فقد كان يرى ان اية دولة افضل من لاشيء بالمرّة .

واحمد الله اننى لم اكن السبب في رفض الدولة في عام ١٩٣٧ . بل كانوا العرب الذين رفضوا خطة التقسيم . علماً بأنهم لو كانوا قد قبلوه لكانوا قد حصلوا على دولة « فلسطينية » منذ اربعين عاماً . وكان المدأ الرئيسى الذى وجه موقف العرب عامى ٣٦ و ١٩٣٧ هو بالضبط نفس المبدأ حتى اليوم . وهو ألا تتخذ المواقف على اساس ما هو جيد بالنسبة لهم . وانما على اساس ما هو سىء بالنسبة لنا .

فإذا كانت بريطانيا سوف تغلق ابواب فلسطين امام اليهود . فأبن يذهبون ؟ في صيف عام ١٩٣٨ شاركت في المؤتمر الدولى للاجئين الذى دعا اليه فرانكلين روزفلت في ايفيان . ولم اجلس بين الوفود وانما جلست بين المستمعين على اعتبار اننى « المراقب اليهودى » من فلسطين . استمع بمزيج من الالم والغضب والفرح . الى ممثلى ٣٢ دولة وهم يتناوبون الكلمة ويعربون عن اسفهم لعدم امكان دولهم استيعاب « اعداد » اليهود . وكدت اقف صارخة فيهم « الاتعلمون ان هذه الاعداد هى من البشر الذين يقضون حياتهم ضائعين ما لم تسمحوا لهم بالدخول ؟! »

وعدت بذاكرتى الى مؤتمر الاشتراكية الدولية الذى حصره بن ذلك بعام . والمندوب الاسبانى ييكى طالبا انتقاد مدريد . ولم يجد

ارنست بيغن ما يقوله سوى « ان حزب العمل البريطاني غير مستعد لدخول الحرب من اجلكم » . ولاول مرة منذ كنت طفلة تفرغنى اصوات حوافر خيول القوقاز في روسيا ، ادركت في ايفيان أنه لا يكفى للشعب الضعيف ان يعرض عدالة قضيته فقط .

وهكذا فإنه اذا كان على كل امة ان تجيب على السؤال الازلى « نكون او لا نكون » كل بطريقتها ، فإن اليهود لم يكونوا - ولا يجب أن يكونوا - في حاجة الى تصريح من احد بالبقاء . وقد حدثت اشياء كثيرة وفظيعة منذ ١٩٣٨ ، لكن كلمة « اللاجئين اليهود » على الاقل لم تعد واردة ، واصبحت هناك دولة يهودية مستعدة وقادرة على استيعاب اى يهودى يريد العيش فيها ، سواء كان عاملا ماهرا ام لا ، كهلا او شابا ، مريضا او صحيح البنية .

وفي عام ١٩٣٩ استسلمت حكومة تشامبرلين للابتزاز العربى بنفس الاسلوب الذى استسلمت به للنازى . واذا كان اسلوب التهدة مقبولا في تشيكو سلوفاكيا ، فليكن له نفس المفعول في فلسطين التى لم يكن احد يهتم بها . والواقع ان الكتاب الابيض الذى صدر في عام ١٩٣٩ قد انهى الانتداب بالفعل ، وان استمرت سكرات الموت تسعة اعوام اخرى . وبمقتضاه يتم انشاء دولة فلسطينية خلال عشرة اعوام ، ضمن دستورها ، « حقوق الاقليات » ونظاما للكانتونات ، وتنتهى مشتريات اليهود للارض في فلسطين فيما عدا منطقة تبلغ ٥ ٪ من مساحتها - وتتقلص الهجرة اليهودية الى ٧٥٠٠٠ نسمة خلال السنوات الخمس التالية ثم تتوقف كلية الى ان يوافق العرب عليها ثانية .

ولم يكن الكتاب الابيض بالطبع مقبولا .. لكن ما هو اسلوب التحرك الذى ستخذه الحركة الصهيونية الآن بعد أن نفضت الحكومة البريطانية يديها من التطلعات القومية لليهود ؟

وتقرر سفرى الى جينيف لحضور المؤتمر الصهيونى هناك . وقبيل
سفرى كانت سياسة الماباى قد انتهت صياغتها . لقد قررنا ان تستمر
الهجرة اليهودية حتى ولو ادى الامر الى صدام مع البريطانيين . وان
يستمر الاستيطان والدفاع عن الاراضى . وكان معنى ذلك اننا نلزم
انفسنا بمحاربة البريطانيين اذا اضطررنا لذلك

وباندلاع الحرب في سبتمبر (ايلول) ١٩٣٩ ، حدد بن جوريون
موقفنا بحزم ووضوح ، نحن سوف نحارب هتلر وكأنه ليس هناك
كتاب ابيض ، وسوف نحارب الكتاب الابيض وكأنه ليس هناك
« هتلر »

الفصل السابع

الكفاح ضد البريطانيين

حاولت . بلا جدوى . منذ عام ١٩٣٩ ان أجد تنسيرا لما حدث . بما وقعت بريطانيا بكل تصميم وشجاعة أمام النازي . ووجدت في من الوقت الطاقة والموارد التي حاربت بها بضراوة ضد السماح يهود اللاجئين من النازي بدخول اسرائيل . ولكنني لم أجد سببا حذا يبرر ذلك . واعتقد أنه لو استمرت هذه الحرب - داخل الحرب في شنتها بريطانيا - كان ممكنا لها أن تعطل ظهور دولة اسرائيل نوات كثيرة .

ولم يعد هناك مفر من اتخاذ القرار الحاسم بأن لليشوف الحق في نكم نفسه . فقد جعلت بريطانيا من نفسها حائطا حديديا بيننا بين أي محاولة لانتفاذ اليهود من النازي . والكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ رارست قواعده واحكامه مجموعة من الناس لا تمثل حياة اليهود - يهم الا اهتماما ثانويا . وهكذا . ومن أعماق الحاجة الملحة الى سيطرتنا على أمورنا . قامت دولة اسرائيل عقب انتهاء الحرب العالمية بثلاثة أعوام فقط .

ولم يكن لنا مطلب لدى بريطانيا من عام ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥ سوى أن تسمح لنا بإدخال أكبر عدد ممكن من اليهود الناجين من النازي . ذلك كل ما في الأمر . لم نكن نريد امتيازات ولا سلطة ولا

وعودا بالمستقبل ، فقط كنا نريد السماح لنا بانقاذ ملايين اليهود قبل أن يهلكهم هتلر . ومع ذلك اصم البريطانيون اذانهم .
وبقى الكتاب الأبيض نافذ المفعول ، وفتحت ابواب فلسطين بالقدر الكافي فقط لدخول العدد المنصوص عليه في هذه الوثيقة المخزية . وعندئذ أيقنا جميعا أنه لا توجد حكومة أجنبية تشر بالأمنا أو تعطى نفس القيمة لأرواح اليهود .. وعندما تعلمنا هذا الدرس ، لم ننس إطلاقا .

ترى ما الذي كان يحدث لو أن بريطانيا جاءت للعرب وقالت لهم انها ستنفذ الكتاب الأبيض فور انتهاء الحرب ؟
المهم الان هو انقاذ مئات الآلاف من اليهود من مذابح النازية ؛ كان قليل من القادة العرب سيطلقون بعض التهديدات ، أو نحدث عدة مسيرات احتجاج .. لكنه . كان سيصبح ممكنا انقاذ بضعة آلاف من الملايين الستة . وكان العالم قد تحرر من تلك التهمة البشعة بأن أحدا لم يرفع اصبعه لمساعدة اليهود واخراجهم من محنتهم .
وخلال الحرب وبعدها ، لم الق يهوديا فلسطينيا واحدا يرفض تقديم اية تضحية في سبيل الوصول الى يهود اوروبا واخراجهم سالمين . ولم يحدث أن خرجنا على الاجماع بشأن هذا الأمر . وعلى قدر علمي فإنه لم يحدث أن أثير مرة سؤال حول ما اذا كان ضروريا أم لا . ومادام ليس هناك من يساعدنا فلنعمل ذلك بأنفسنا .. وهو بالضبط ما فعلناه .

وقضيت كل الوقت أثناء المؤتمر الصهيوني في جنيف عام ١٩٣٩ مختلطة بمندوبي منظمات الشباب في الحركات العمالية الاوروبية ونحن نتفق على الترتيبات التي تبقى على الاتصال بيننا اذا ما اندلعت الحرب . ولم نكن نعلم بالطبع شيئا عن « الحل النهائي » لهتلر .

لكنني أذكر جيدا نظرات أعيننا ونحن نودع بعضنا . لا ندري ما الذي سيحدث .

« سنحارب هتلر وكأنه ليس هناك كتاب أبيض . ونحارب الكتاب الأبيض وكأنه ليس هناك هتلر » .. كان هذا الشعار براقا . لكنه لم يكن سهل التنفيذ . وكانت هناك ثلاث معارك متصلة تحتم علينا أن نخوضها . وشاركت فيها كلها بوصفي عضوا في القاعاد هابوعيل . الكفاح الأول يهدف الى جلب أكبر عدد ممكن من اليهود . والصراع الثاني في سبيل اقناع بريطانيا بالسماح لنا بالمشاركة في العمل العسكري ضد النازي . والصراع الثالث يهدف الى الحفاظ على اقتصاد الشوف حتى يمكنه استيعاب المهاجرين اليهود بعد انتهاء الحرب .

ولست أدري كيف مررنا بكل هذه الظروف دون أن نتمزق اربا . كانت عائلتي مثلا تتهمني دائما بأنني أقسو على نفسي . بل ان أولادي حتى الآن ، مع أن حياتي قد استرخت ، يتهمونني بأنني لا أخذ كفايتي من « الراحة » . ولقد تعلمت في أيام الحرب درسا هاما هو ان الحرب تجعل الانسان يتخطى دائما الحدود المطلقة لاحتماله . على اية حال لا أذكر انني شعرت أيامها بأنني « متعبة » اذ يبدو انني اعتدت على التعب . ويبدو ان السبب في ذلك هو ايماننا بأن النازي يعملون على تصفية يهود أوروبا .

ومازلت أذكر بوضوح تام ذلك اليوم الفظيع الذي جاءنا فيه أول تقرير عن غرف الغاز والصابون الذي يصنع من عظام اليهود . وعلى الفور عقدنا اجتماعا عاجلا في الهستدروث وقررنا ايفاد مبعوث الى انقرة في محاولة للاتصال باليهود من هناك . ولم يناقش واحد منا صحة المعلومات التي وردتنا ، وصدقناها بأكملها في التو .

ولانني كنت أجري المحادثات الخاصة بمجال العمل ، فقد عهد الى بالاستمرار في المحادثات ولكن مع السلطات العسكرية . وكانت بريطانيا تخترع الاعذار لكي لا تقبل المزيد من المتطوعين اليهود . كاصرارها مثلا على ضرورة المساواة بين اعداد اليهود والعرب من المجندين . لكن الحلفاء ، مع تطور الحرب ، وجدوا انفسهم يعتمدون بشكل متزايد على المصدر الوحيد لليد العاملة صاحبة المهارات العالية (والذين يمكن من الناحية الساسية الاعتماد عليهم كلية) . وهكذا عمل عشرات الآلاف من شباب اليهود الفلسطينيين خلال الحرب كسائقين وممرضين . وكانوا يعملون على أساس انهم فلسطينيون لا يهود . ويتم دفع مرتباتهم وفق النظام المصري . ولم يقبل الهستدروث ذلك وعهد الى مهمة التفاوض مع قيادة الشرق الأوسط حوله .

ومع انتقال الموقف الحربي من سوء الى أسوأ ، أصبح المجهود الحربي يستوعب المزيد من اليهود الفلسطينيين . واحتست حكومة الانتداب بضرورة انشاء هيئة عامة يمكن أن تتشاور معها في الشؤون الاقتصادية . فأنشأت المجلس الاستشاري الاقتصادي للحرب الذي بقيت عضوا فيه الى نهاية الحرب . ولكن كل هذه الاهتمامات كانت فرعية .

وذات يوم عاد مبعوثنا الى انقرة (ميليتش نيوشادت - واسمه الآن نوى) بأبناء مفزعة . قال لنا انه وجد اناسا يستطيعون الاتصال بيهود أوروبا المحتلة ، لكنهم قد يستولون على مبالغ كبيرة ، وبعضهم من النازي . لكنه يبقى مهما أن يصل الى اليهود تحت الاحتلال النازي بعض من المال لسد حاجاتهم حتى تبقى المقاومة اليهودية مستمرة .

وهكذا بدأت محاولاتنا المستميتة لشق طريقنا داخل أوروبا التي يحتلها النازي لالقاء حبل نجاة لليهود . ولم ندع فرصة الا طرقتها في هذا السبيل . وأخيرا وافقت بريطانيا على أن نسقط من رجالنا - لا مائة كما كنا نخطط - بل اثنين وثلاثين في الأراضي التي تسيطر عليها قوات المحور لاداء مهمتين الأولى مساعدة اسرى الحرب من الحلفاء (وغالبيتهم من الطيارين) على الفرار ، والثانية مساعدة وتشجيع البارتيزان من اليهود .

ولقد قام يهود فلسطين بأعمال كثيرة خلال الحرب . لكنني اختار اثنين قريبين الى قلبي هما إياهو جولومب وإنزو سيريني . كان الخلاف بين الاثنين واسعا في شخصيتهما وسلوكهما . لكنهما يمثلان تلك الايام المليئة بالالم أصدق تمثيل .

كنت اعرف الياهو أكثر مما عرفت إنزو ، وكان جزءا من عائلة رائعة (أربعة من الأخوة والاصهار) قد لعبوا دورا كبيرا في بناء اليسوف والحركة العمالية . وسوف اتحدث عن واحد منهم تشابكت حياتي وعمل معي الى حد كبير هو موسى شاريت . لكنني أؤمن بأن الأربعة يستحقون أن يكتب عنهم كتاب كامل .

كان موسى شاريت انئذ رئيسا للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، خلفا لحاييم ارلوسوروف في عام ١٩٣٣ . كان يعتبر نفسه المرشح الوحيد لمنصب وزير الخارجية عند قيام الدولة اليهودية . وكان ابرز الاربعة من حيث ذكائه وتفوقه اللغوي . ومع ذلك كان مترمنا يهتم بالشكليات . لكنه برغم مواهبه لم يكن كبن جوريون أو كاتزنلسون . وقد عمل فترة طويلة كوزير لخارجية اسرائيل ، ثم كرئيس لوزارها في الفترة ما بين الاستقالتين الأولى والثانية لبن

جوريون . وكان شاريتيهو صاحب الفضل في انشاء الفيلق اليهودي الذي شارك في الحرب في آخر اعوامها .

وكانت احدى شقيقات شاريت متزوجة من دوف هوس رجل الهستدروث في لندن ، وصاحب العلاقات القوية مع كثير من قادة حزب العمل البريطاني . وغالبا ما كنا نختار دوف ليمثلنا لدى السلطات البريطانية . وقد تبني مشروعا لتطوير الطيران في فلسطين ، وكان هو نفسه طيارا . وفي عام ١٩٤٠ توفي في حادث سيارة مع زوجته وابنته ، وبموته فقدنا واحدا من أعمدة قوتنا . وكنت أقضى مع دوف وقتا طويلا كلما ذهبت الى لندن قبل الحرب ، وعملنا بعدها سويا في تجنيد المتطوعين للجيش البريطاني .

وكان هناك الكثير ممن لا يشاركوننا نفس الرأي بالنسبة للخدمة في الجيش البريطاني ، وكانوا يقولون اننا بوضعنا كل البيض في سلة واحدة انما نعرض أمن المدن والمستعمرات اليهودية للخطر في حالة هزيمة البريطانيين في الشرق الأوسط . وكنت أرى من السخف بمكان أن نحارب هتلر الى أن يصل الالمان الى حدود فلسطين . وكنا نريد خلع النازي من أى مكان يوجدون فيه .

أما الثالث فهو شاول افيجور (شقيق زيورا شاريت الذي مازال على قيد الحياة ولا أظن أحدا ممن يمرون على كيبوتز كينريب . الآن أوفي الماضي ، كان يتصور أن هذا الرجل العادي المظهر كان وزير الدفاع السري في السنوات التي سبقت قيام دولة اسرائيل . وهو الذي أنشأ جهاز المخابرات الاسطوري التابع للهاجاناه ، وهو الذي نظم وأدار الهجرة . « غير القانونية » الى فلسطين ولم يكن مظهره أو أسلوب حديثه يكشفان عن حقيقته وهي أنه قد ولد مقامرا . لم يكتب كلمة غير ضرورية ، ولم يقل كلمة غير ضرورية . وكانت كل تصرفاته تتم

بالسرية المطلقة . كذلك كانت سلطته مطلقة في كل الأمور ذات الصلة
السرية . ك شراء الاسلحة سرا من أوروبا عام ١٩٤٧ أو جلب اللاجئين
اليهود من البلاد العربية ، فلسطين في ذروة الحرب وغيرها . وكنا .
ومازلنا ، جميعا نكن له أقصى الاحترام .

أما الرابع فهو الياهو جولومب الذي كان موجودا في قلب كل
الأحداث في تلك الأيام . وكان منزله في تل أبيب وغرفته في
الهستدروت بمثابة المركز العصبي الحقيقي لنا جميعا . ولا أظن ان
النور انطفأ في منزله طوال الحرب . فقد كان هو مقر فيادتنا العامة .
فما من مرة ذهبنا الى البيت . ليلا أو نهارا . الا ووجدنا حماته « ام
شاريت » وزوجته ادا جولومب تهبان لاستقبالنا . لقد كان بن
جوريون وشاريت ودوف هوس من صناع السياسة . والمفاوضين .
والمحدثين باسم اليشوف أمام العالم . أما جولومب فقد كان بالفعل
القائد العام لنا جميعا . وكان القائد الفعلي للهاجاناه منذ ١٩٣١ الى أن
توفي عام ١٩٤٥ . وكما هي الحال مع بيرل . فإن جولومب لم ير دولة
اسرائيل . ومثله أيضا فقدنا برحيله واحدا من المؤسسين الفعليين
للدولة .

كان جولومب أبيض الشعر . كغيره من « الآباء
المؤسسين » . لا يعني بهندامه ولا أذكر أنني رأيته مرة يرتدي حلة .
وكان يتحدث ببطء وهدوء .. وكان ابعد الناس شكلا عن العسكرية
أو قيادة الحركات السرية . ولم تكن شخصيته القوية تبدو واضحة الا
لمن يعمل بالقرب منه . ومع ذلك فإن الهاجاناة وفلسفتها وقوتها كانت
من صنع الياهو جولومب . وكان قد هاجر الى فلسطين من روسيا عام
١٩٠٩ وتخرج مع شاريت من مدرسة هزليا العليا . وتعرف على بيرل

خلال الحرب العالمية الاولى . واستطاع بتأثير بزل عليه ان سمي مفهومه عن الدفاع اليهودي عن النفس في فلسطين .

ولم يكن مفهوم yahو للهاجانة منذ البداية على انها حركة فداية أو انها نوع من القوات الخاصة . وانما على انها استجابة قومية لحاجة اليشوف لحماية انفسهم وعلى أنها جزء من الحركة الصهيونية . أي أن الهاجانة يجب أن تنمو ملكا للشعب اليهودي بأسره وتحت سيطرة مؤسساته القومية . ومن هذا المفهوم نبع موقف yahو من المنظمين العسكريين المنشقين اللتين ظهرتاهما الارجون زفاي ليومي وجماعة الشترن (الليحي) . وظهرت المنظماتان تعبيراً عن معارضتهما لسياسة الهاجانة في ضبط النفس والامتناع عن الرد وتجنب الارهاب اليهودي . لكن yahو كان منذ البداية يعد الهاجانة لكي تكون كما براها نواة لجيش يهودي قادر ومخول بالدفاع عن حق اليهود في المجيء الى فلسطين واستيطانها .

وبهذا التعريف لعبت الهاجانة دوراً فريداً . وكان yahو يرى أن الدفاع اليهودي عن النفس يعني أن تستخدم الموارد الضعيفة لليشوف في أي مكان وزمان تكون هناك حاجة اليها . فالرجال الذين جلبوا اليهود سرا هم الذين يحرسون المستعمرات ويصنعون الاسلحة ويخبئونهم . بحيث تمكنت الهاجانة فعلاً في عام ١٩٤٨ . عندما دعت الحاجة أن تصبح الاداة لتحقيق الخلاص القومي .

ولعله مما يدعو الى المارة أن أكتب عن yahو الان . في عالم أثر ان يضيف رونقا على الارهاب العربي . وان يدخل الى هيئة الامم رجلا مثل ياسر عرفات . الذي لا يملك فكرة بناء واحدة او تصرفا يحسب لصالحه . والذي - بصراحة ووضوح - ليس الا مجرماً عتيدا برأس حركة

كرست نفسها فقط لتدمير دولة اسرائيل . وانه لايمان عميق لدي - بل وعزاء - أن بذور فشل الارهاب العربي تكمن في مفهوم الارهاب نفسه . وفي النهاية ، لم تكن الهدية الكبرى من الياهو لليشوف هي فقط المهارة التي أدت بها الهاجاناة عملياتها ، وانما ايضا هدفها الرئيسي الذي تم تنفيذه . عندما حانت الساعة ، بشكل كامل في جيش اسرائيل . وكانت بالطبع اخطاء (بعضها باهظ التكاليف) وانهيارات وخيبة أمل . لكن روح الهاجاناة سادت وعاشت لارتباطها بخدمة الشعب اليهودي .

ولم تكن لى علاقة باختيار المتطوعين الذين سيقفزون بالمظلات في أوروبا . لكنني فوجئت بانزو سيريني يدخل غرفتي في الهستدروت ليودعني قبل سفره . وحاولت اقناعه بالعدول لكنه ابي ووعدني بأنها سنتقي ثانية . ولم يحدث ذلك أبدا . ووقفت في احدى ليالى عام ١٩٤٥ أشاهد سفينة تخترق الحصار البريطاني وتقذف أكثر من الف من اليهود الناجين . وكانت تحمل اسم انزو سيريني .

كانت نشأة انزو مختلفة عنا جميعا فقد ولد وشب في ايطاليا . وكان ابوه طبيبا للملك وعمه من المحامين المشاهير الذي أصبح فيما بعد من قادة الشيوخ الشيوعيين في البرلمان . وبعد خلاف مع الفاشيست في العشرينات جاء الى فلسطين . مفتونا بحركة الكيبوتز حيث ساهم في تأسيس كيبوتز جيفعات بريئر . وكان يؤمن بنوع من الاشتراكية سى تختلط بشعور قوى بالدين . وكنا في حاجة ماسة اليه في فلسطين لكنه كان يريد المشاركة في الحرب . وكان يذيع باستمرار في لادغة الموجهة الى ايطاليا ، ويحرر جريدة معادية للفاشيست يقرأها سري الحرب . وما ان ساعد الياهو في تجنيد المتطوعين حتى اصر على نشر معهم . ولا ننسى له اخراجه للشباب اليهود من العراق محترق صحر .

فلسطين في مخاطرة تحمل مسئوليتها . وفور اسقاطه القي القبض عليه وسبق الى معسكر داخاو حيث قتله النازيون هناك . بالنسبة لى . برغم شجاعة الاثنين والثلاثين متطوعا . كان انزو رمزا يجسدهم جميعا .

وكثيرا ما سؤلت عما اشعر به نحو الالمان . واعتقد ان هذا هو المكان الذي يجب أن أرد فيه . لقد حتمت علينا حقائق الحياة . رغم مرارتها . ان تتعامل وتصل ونعمل مع المانيا بعد الحرب . وبديهي أنه لا يوجد شيء يمكن أن يمحوا آثار المجزرة إن ذكرى الملايين الستة من اليهود لا يجب أن تمحي من ذهن البشرية . ولا يجب اطلاقا أن ينسأها أي يهودي أو الماني . وعلى الرغم من انني احتجت الى جهد كبير لكي اطا أرضا المانية عام ١٩٦٧ . فأنني كنت أؤيد التعويضات . وحصولنا على الاموال منهم لكي نبني دولة اسرائيل . وكنت أؤمن بأن عليهم دينا كبيرا لنا يجب سديده حتى يمكننا اسنيعاب كل من بقى من اليهود على قيد الحياة . بل انني اعتقد ان وجود اسرائيل في حد ذاته ضمان حتى لا تتكرر المجزرة .

بل انني بعدئذ ايدت اقامة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا . لكنني عارضت بغضب ترشيح المانيا رولف بول سفيرا لها في تل أبيب . لأنه كان عضوا في الحزب النازي ولانه قاتل خلال الحرب بل وفقد فيها ذراعا . لكن المانيا رفضت تغيير ترشيحها . وجاء رولف بول الى اسرائيل فاستقبلته المظاهرات . وهو الان سفير لبلاده في الصين . لكنه من اخلص وأوفى اصدقاء اسرائيل .

وكانت لحظة عصيبة عندما التقيت برولف . كوزير للخارجية . لاستلام اوراق اعتماده . وقلت له ان مهمتك صعبة . فهذه بلاد قامت على الناجين من المجزرة . وليست هناك عائلة لا تراودها كوابيس المحارق . ولعلك اذا جئت الى منزلي فستجد كل امرأة على المائدة وعلى

ذراعها وشم برقم نازي . واجابني بقوله : انني اعرف ذلك . وقد
جئتك الان فورا من اليادفاشيم (النصب التذكاري في اسرائيل للمستة
ملايين) ، وانني اعدك طالما بقيت اخدم هنا بأن لا يأتي لهذه البلد
أي ألماني الا ويزور أولا هذا النصب كما فعلت أنا . وبالمعل بر
بوعده .

وفي احدى المرات حكيت لرولف عن زيارتي لالمانيا التي استمرت
اربعا وعشرين ساعة . كنت خارج الحكومة . وكنت احضر اجتماعات
مؤتمر اشتراكي في باريس بعد حرب الايام الستة . ورفقتي صديق
قديم هو ريوفين بركات . وذات صباح دى جرس الهاتف وكان
المتحدث ابا ايان من نيويورك . كان يحارب معركة نبدو خاسرة في
الأمم المتحدة في مواجهة قرار بوغوسلافي (وهو في الواقع روسي) من
تلك القرارات التي تدنينا « كمعتدين » ونطالبنا بالانسحاب غير
المشروط من الاراضى المحتلة . وكان الفرنسيون - الذين يؤيدون
القرار - يضغطون على الدول الافريقية الناطقة بالفرنسية وعلى رأسها
ساحل العاج . التي كان وزير خارجيتها يتعاطف مع اسرائيل . وكان
رئيسها فبليكس بوانييه صديقا حميما لى . وأنا امان هل يحث
عن بوانييه في اوربا ويتحدث اليه مباشرة عن هذا الفرار .

واتضح أن الرئيس بوانييه موجود في مننح الماني . والى امان في
أن اذهب لمقابلته . وكنت افضل أن تقطع ذراعى اليسى على أن ارور
المانيا . لكنى توجهت اليها وقابلت بوانييه وعدت بعد أربع وعشرين
ساعة وأنا أكاد لا أنطق حرفا . من فرط فزعى واشمئزازي . وقد
ودف بركات هذه الرحلة بأنها أصعب رحلة فمب بها لصالح اسرائيل
له أكن أرى امامي الا ادولف ايخمان وعبون الاطفال والنساء والرحل
الذين اخرحناهم من هذا الجحيم في الاربعينات .

ورغم أنه لا يمكن إعادة القنلى الى الحياة . فإن محاكمة ادولف
ايخمان في القدس عام ١٩٦١ كانت - على ما اعتقد - عملا كبيرا
وضوريا من أعمال العدالة التاريخية . وقد جرت هذه المحاكمة بعد
حقبتين من الزمن على تلك السنين البائسة . لقد كنت - ومازلت -
مفتنعة كلية بأن الاسرائيليين فقط هم اصحاب الحق في محاكمة
ايخمان باليابة عن يهود العالم . وانني لفخورة بذلك . ولم يكن
الأمر مجرد انتقام . بل كان - كما وصفه الشاعر بياليك - حتمية لكي
يعرف العالم ما ارتكب في حق يهود اوروبا وعلى يد من .

ولا اظنني سوف انسى المرتين اللتين حضرت فيهما المحاكمة ومعني
شينا . ولم احتمل سماع شهادات الاحياء عن التعذيب والاذلال
والموت . في وجود ايخمان نفسه . وفضلت الاستماع الى المحاكمة عبر
الاذاعة . ومع اننى كنت اذهب الى عملى كل يوم واناؤول وجبات
الطعام . الا ان المحاكمة فرضت نفسها على حياتي وحياة الاخرين .
وكنت كلما استمعت الى شهادة الاحياء استغرب كيف نجوا وبدأوا من
جديد في تكوين حياتهم وعائلاتهم ١٤

وفي عام ١٩٦٠ وقفت أمام مجلس الأمن ارد على الاتهامات الموجهة
لاسرائيل من حكومة الارجننتين (التي اختطف منها ايخمان على يد
متطوعين يهود) . وكانت تلك الخطبة هي اكثر الخطب التي القيتها
ارهاقا لى . لانني شعرت اني احدث باسم ملايين لم يعد في
استطاعتهم أن ينحدنوا بأنفسهم . ولذا كنت اريد لكل كلمة أن تحمل
كل معانيها . ومازال الاسف بتملكني لان هناك أناسا لا يفهمون ان
النراما بهذا الاسلوب في التصرف يعود الى رغبتنا في أن يكون اليهود
الذين احرقوا في غرف الغاز هم اخر اليهود الذين يموتون دون أن
مدافعوا عن انفسهم .

وستشهدت في تلسمي بنص اقوال مساعد ايخمان في محاكمة
 نورمبرج عن نسلسل « الحل النهائي » لمشكلة اليهود لدى الناري ابداء
 من تهجير اليهود ثم تركيزهم في معسكرات حتى عام ١٩٤٢ الى ان يتم
 القضاء عليهم وندميرهم نهائيا وهي العملية التي اوقفها هتلر في
 اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٤٤ . ثم تحدثت عن ايخمان نفسه وكيف
 استمر هاربا خمسة عشرة سنة الى أن عثرنا عليه واعدناه الى اسرائيل .
 الى البلد التي كرس نفسه للقضاء على ابنائها ، ونساءت هل يمكن أن
 يكون هذا الأمر شاعلا لمجلس الأمن الذي يفترض فيه الاهتمام بتهديد
 السلام ؟ وظلت يداي ترتعشان لمدة اربع ساعات كاملة بعد هذه
 الخطبة .

نعود الى فلسطين في الاربعينات . لنجد ان الحصار البريطاني قد
 اشتد على نشاط الهاجاناة . ومع ذلك كان يتم شراء السفينة وراء
 الأخرى (الى أن بلغ مجموعها الستين) وتحميلها بالمهاجرين والأسلحة
 وارسالها الى فلسطين . وكانت الدوريات البريطانية تقتفى اثر
 المهاجرين أو الأسلحة الخاصة بالهاجاناة .

وهناك عامان لا انساهما لاسباب شخصية وسياسية . ففي عام
 ١٩٤٣ . وكانت سارة قد اصبحت فتاة ناضجة خجلى . بل وأكثر تفوقا
 في دراستها من مناحيم الذي انصرف الى الموسيقى الى أن قرر العمل
 كعازف تشيللو محترف ، جاءتنى سارة لتبلغني انها قررت ترك
 المدرسة العليا رغم أنه لم يبق على تخرجها سوى عام واحد . وانها
 قررت الانضمام الى احدى الكيبوتزات والى البلماخ (القوات الضاربة
 للهاجاناة) . وفد انضمت هي ومجموعتها بعد نهاية الحرب الى
 كيبوتز رقيقيم - في النقب - حيث مازالت عضوا فيها الى يومنا . كان
 الجميع يعلمون ان شباب اليشوف يشاركون في نشاطات الهاجاناة

وخاصة توزيع ملصقاتها، ومنشوراتها، وجاءتني سارة ذات ليلة لتبلغني انها قد تتأخر في العودة الى البيت، وخرجت تحمل تحت ابطها لفافة، لم احتج لجهد كبير لكي اعرف انها تضم منشورا سريريا كنت انا قد كتبتة منذ يومين دون أن يلحظني أولادى.

وكانت سارة، مثل مناحم، تشترك في منظمات الشباب الرائد التابعة لحركة العمل، ولذا لم ادهش باعلانها عن رغبتها في الانضمام الى كيبوتز، وكان البريطانيون قد حكموا على ٨٥٪ من مساحة النقب (والتي تبلغ نصف مساحة فلسطين) بأنها ارض غير قابلة للزراعة، ولكن الوكالة اليهودية وضعت مخططا لتعمير صحراء النقب لاستيعاب المهاجرين، يبدأ بتلات مستوطنات - او مراكز مراقبة تقريبا - جنوبي مدينه بير سبع العربية الفقيرة، وكانت حجة سارة اننا اذا اثبتنا ان زرع المحاصيل ممكن في الصحراء، فذلك اهم للبلاد من انهائنا لدراستنا، وكنت اقدر موقفها فأنا نفسي كنت أحب العيش في كيبوتز، كما اني كنت افهم رغبتها في المشاركة بنفسها فيما يجري في البلاد.

واستمر النقاش بيني وبينها طويلا، وغضب موريس غضبا شديدا كذلك فإن الياهو جولومب، الذي جاءته ابنة اخته بنفس المطلب، الح في أن نأخذ موففا موحدا ضد هؤلاء الشباب، أما شينا فقالت لى انني وابنتي سوف نندم طوال العمر لو قبلت مطالبتها، لكنني، وقد يدهش ذلك البعض، لم أكن من أنصار التشدد، الا فيما يتعلق بإسرائيل، فهنا لا أتنازل عن بوصة واحدة، اما مع البشر فإن الأمر يختلف، ولعلمي بطبع ابنتي، فقد استسلمت ولكن بقلب منكسر.

في أول زبارة فمت بها للمستوطنة ظننت انني سوف اموت، لم يكن هناك شيء بالمرة، وكانت المستوطنة عبارة عن حائط وبرج

مراقبة وبعض الخيام . ولم استطع شرب الماء المالح الذي كانوا يستخرجونه من باطن الأرض . كان الجو بالغ الحرارة طوال العام ويصل الى حد التجمد في الشتاء . وكانت تلك البقعة هي اخر مكان في الكون يصلح لفتاة اصيبت من قبل بمرض الكليتين . وكنت كثيرا ما أذهب الى رقيشم (ومعناها بالعبرية قطرات الندى) فأتبادل الاحاديث مع سارة أو مع زكريا رحابي . وهو يهودي يمني . يبدو ان سارة كانت مغرمة به .

وفي شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ استدعيت للشهادة أمام محكمة عسكرية بريطانية تحاكم شاين من اليهود بتهمة سرقة الاسلحة وقام بالادعاء رجل كرية هو الميجور باكستر الذي اهتم باظهار الهاجانة انها منظمة تهدف الى نشر الارهاب وتهدد السلم في فلسطين . واتهم اليهود في فلسطين بأنهم يطلبون الالتحاق بالجيش بكثرة حتى يضعوا ايديهم على السلاح . (وكم كانت دهشتي عندما تلقيت برفية من الميجور باكستر من ايرلندا يهنئي فيها عام ١٩٧٥ بانتخابي امرأة لعام ١٩٧٥ في الاستفتاء الامريكي . وقال في برقيته انني اذا اردت وظيفة فانه يعرضها على في اولستر حيث هناك حاجة لمواهي) .

وذعبت الى المحكمة مصممة على أن اذيق باكستر ما يستحقه . اذا كان يريد اثبات ان الهاجانة كمؤسسة رسمية وبالمخ كتنظيم سري مرتبطتان يدا في يد . وقد نشرت نصوص الشهادة والاسئلة والاجوبة في صحيفة بالستين بوست (وهي الان چيروزاليم بوست) يوم ٧ سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ . وفي اليوم التالي زرت والسدي فقالت لي امي ان ابي يطوف منازل الجيران منذ الصباح حاملا الجريدة في يده قائلا " هل رأيتم ما فعلته ابنتي جولدا ؟ " .

« ملحوظة : اوردت جولدا نص الاسئلة والاجوبة التي دارت . وكانت الاسئلة واضحة مثل : هل تدريتي على اطلاق السلاح ؟ هل دريتي الشباب على استخدام السلاح ؟ هل سمعت عن الهاجاناة والبالماخ ؟ الا تعلمين ان الحكومة البريطانية استخدمت ٣٠.٠٠٠ جاويش يهودي ؟ لماذا كنتم تجندون اليهود ؟ وهل تسمين ذلك تجنيدا اذا فصل اليهودي من عمله ان رفض التجنيد ؟ . وكانت جولدا في كل اجاباتها تتطرق الى اوضاع اليهود في فلسطين وفي أوروبا النازية . الى حد أن رئيس المحكمة طلب منها الالتزام بالرد على مضمون السؤال فقط . ثم طلب منها بعد ذلك عدم العودة الى الخلفية التاريخية قائلا « والا لعدنا الى الفى عام مضت »

وبدا لنا جميعا ان بريطانيا سوف تراجع سياستها الخاطئة في فلسطين بعد انتهاء الحرب . وكنا على يقين من أن كل اليهود الذين بقوا على قيد الحياة في أوروبا سوف يسمح لهم بدخول فلسطين ، وان الكتاب الابيض سوف يلغى . وزاد من اقتناعنا بذلك وصول حكومة عمالية الى الحكم في بريطانيا . وقد ظل العمال البريطانيون طيلة الاعوام الثلاثين الماضية يدينون اية قيود على الهجرة اليهودية الى فلسطين ويصدرون البيانات المؤيدة للصهيونية .

لكى الابام اثبتت خطأنا . فقد تغيرت السياسة البريطانية . ولكن الى الأسوأ . فلم نكتف بعدم العاء الكتاب الابيض ولكنها لم تف بوعودها التي قطعتها للملايين العمال والجنود البريطانيين . وكان لدى ارست بيغن . وزير الخارجية . « حل نهائي » اخر ليهود أوروبا الذين اصبح يطلق عليهم « الاشخاص المشردون » : يتلخص في ان ينمساكوا من جديد ويعودوا الى الاستقرار في أوروبا بهدوء .

وكان مستحيلا علينا أن نصدق أن تأتي حكومة عمالية في بريطانيا لا تنفذ وعودها لنا . بل أن يأتي يمين ليسقط كل مطالبنا بغلظة لا مثيل لها وبعاد جنوبي . وكأن مصير الامراطورية البريطانية كلها يتوقف على عدم عودة مئات الالاف من اليهود انصاف الموتى الى فلسطين . ولعل الغضب الذي اعترانا هو الذي دفعنا الى قبول التحدي رغم اننا لم نكن مستعدين لمواجهة . واسنطعنا فيما بين صيف ١٩٤٥ وشتاء ١٩٤٧ أن ننقل ٧٠,٠٠٠ من اليهود من معسكرات اوروبا مخترقين حصارا رهيبا ضربته حكومة طالما استمعت الى تصريحات رجالها المؤيدة للصهيونية في مؤتمرات لا حصر لها لحزب العمال .

وقد بدأ الكفاح الحقيقي في عام ١٩٤٥ . لكن عام ١٩٤٦ - في ظني - كان عام الحسم . وكان السبب الاساسي هو رفض الحكومة البريطانية المفاجيء للطلب الذي تقدم به الرئيس ترومان الى بريطانيا بأن تسمح بدخول ١٠٠,٠٠٠ يهودي اوروبي الى فلسطين - بصرف النظر عن الكتاب الأبيض - في عمل انساني رحيم . وازافت بريطانيا الى رفضها انه اذا كانت حكومة الولايات المتحدة مهتمة الى هذا الحد فلتجد حلا لمشكلة فلسطين . وعلى الفور نألفت لجنة التحقيق الانجلو امريكية . وزارت معسكرات اليهود في اوروبا واستمعت اليهم موهمهم يقررون انهم لا يريدون الذهاب الا الى فلسطين . ثم اجتمعت بزعماء اليهود البريطانيين والامريكيين . وجاءت الى فلسطين لعقد جلسات الاستماع في ربيع عام ١٩٤٦ .

وفي ٢٥ مارس (اذار) ١٩٤٦ مثلت أمام اللجنة كممثلة عن الهستدروث . وكان لا بد أن أذكر في شهادتي تاريخا موجزا عن اليهود وحبوهم في فلسطين . وحاولت ان اشرح لهم موقفنا العاجز في فلسطين ونحن نرى اليهود يذبحون بالملايين ، كذلك حاولت ان احذر

اللجنة من اننا قد صممنا على ان نضع حدا لما اسماء الشاعر العبري
 حاييم نعمان بياليك بـ « العيش بلا معنى والموت بلا معنى » لشعبنا
 وقلت للجنة اننى مخولة باسم كل اعضاء الهستدروث بأن ابلغكم ان
 حركة العمل اليهودية مستعدة لعمل أى شىء في هذا البلد من أجل
 استقبال اعداد هائلة من المهاجرين اليهود بلا اية قيود أو شروط . ولم
 أعرف من تعبيرات وجوههم ما اذا كانوا قد فهموا حديثي ام لا . على
 أية حال اصبح ثلاثة من اعضاء اللجنة من أقرب الاصدقاء الينا وهم
 بارتلى كرام وريتشارد كروسمان وچيمس ماكدونالد الذي كان اول
 سفير للولايات المتحدة في اسرائيل .

وكان الاضطراب عندئذ قد عم فلسطين . وقد رفضت الهاجاناة
 وقف الهجرة غير القانونية . واستمرت السفن الواحدة بعد الاخرى
 تقذف اليهود على الشواطىء . واصدرت بريطانيا اجراءات طوارئ
 وصلت الى حد الاحكام العرفية . وفي ابريل (نيسان) وبينما اللجنة
 تعد تقريرها . امتدت الحملة البريطانية الى دول أخرى . فقد كانت
 هناك سفينتان للهاجاناة (احدهما فيدر واعيدت تسميتها دوف هوس
 والثانية الياهو جولومب) على وشك الاقلاع من ميناء لاسبيريا في
 ايطاليا وعليهما ١٠١٤ يهوديا . عندما تم اكتشافهما . وتحت ضغط
 بريطاني منعت ايطاليا ابحار السفينتين . لكن اليهود رفضوا النزول
 واضربوا عن الطعام واندروا بقتل انفسهم واغرق السفينتين اذا ما
 استعملت القوة ضدهم .

وكان لابد لنا أن نظهر للعالم وقوفنا وراء هؤلاء المحشورين
 كالسردين دون اي طعام فوق السفن . واقترحت أن نعلن اضرابا عن
 الطعام باسم اليسوف كله يشترك فيه خمسون شخصا من الاصحاء
 ممثلين كل الشعب . ورغم اني كنت مريضة . ورغم معارضة الطبيب

حصلت منه على شهادة بسلامتي . وكذلك شازار الذي حصل على نفس الشهادة من طبيب امراض نساء . واعدنا أسرة في القاعاد ليومي رقدنا عليها نتعاطى الشاي بدون سكر . ولم نأكل شيئا طيلة ١٠ ساعة . وظهرت مشكلة هي حلول عيد الغفران حيث اخبرنا الحاخام هرتزوج اننا يجب أن نأكل شيئا واتفقنا على أن نأكل ما لايزيد على حجم الزيتونة . وظلت الوفود تملأ ساحة المكان اثناء صيامنا . وزارني مفاهيم وسارة وكذلك بن جوريون الذي كان يعارض الاضراب لاسباب خاصة .

وامر الاضراب ٢٠ ففي ٨ مايو (أيار) اقلعت السفينتان الى فلسطين تحت حراسة بريطانية مشددة ، وتم خصم ١٠١٤ شهادة من حصّة هذا الشهر من المهاجرين . وفي نفس الشهر اصدرت لجنة التحقيق الانجلو امريكية تقريرها واقترحت السماح لـ ١٠٠.٠٠٠ مهاجر بدخول فلسطين والغاء قيود مبيعات الأراضي . ومرة ثانية قال بيشن لا ٢٠ فقد كان في رأيه أن دخول هذا العدد الى فلسطين في وجه المعارضة العربية يحتاج الى فرقة عسكرية بريطانية كاملة لاعادة النظام . وفي نفس الاسبوع القيت خطابا في مؤتمر حزبي في حيفا قلت فيه اننا يجب أن نثبت لمستر بيشن أنه ما لم يغير سياسته فإن عليه أن يجلب حشا كاملا ليحاربنا نحن . ويبدو أن بيشن كان يسعى لذلك بالفعل .

وفي يوم السبت ٢٩ يونيو (حزيران) ١٩٤٦ أعلنت الحكومة البريطانية الحرب على اليشوف . فنزل ١٠٠ ألف جندي بريطاني و ٢٠٠٠ شرطى الى كل الكيبوتزات والقرى اليهودية وأغاروا على كل المؤسسات اليهودية واعتقلوا ٣٠٠٠ يهودي وفرضوا حظر التجول والقوا القبض على معظم قادة اليشوف . وكانت هناك ثلاثة اهداف لهذه الاجراءات : تحطيم الروح المعنوية لليشوف ، وتحطيم الهياكل وانهاء

الهجرة « غير القانونية » بوضع المسؤولين عنها في السجون . وفشلت الأهداف الثلاثة . لكن فلسطين اصبحت دولة بوليسية منذ هذا « السبت الأسود » (كما اصبحت يعرف في اسرائيل) .

ومن حسن الحظ اننا علمنا بهذه العملية قبل وقوعها . فلجأ الكثير من قادة الهاجاناه الى الاختفاء . ونقلت الاسلحة الى مخايب جديدة . وكان بن جوريون في رحلة بالخارج . اما ريميز وشاريت وكل اعضاء الوكالة اليهودية فقد ارسلوا الى معسكر اعتقال في اللطرون . وقال البعض ان أسوأ ما فعلته حكومة الانتداب انها لم تلق القبض على . اذ كان شرفا في تلك الأيام أن يعتقل الانسان مع الآخرين .. ولا أدري ما السبب . هل لانني لم أكن انسانا مهما أو لانهم كانوا لا يستطيعون احتجاز النساء في اللطرون . واذكر أن باولا بن جوريون (وكانت معروفة بافتقادها الكياسة) كانت كل بضعة ساعة تسألني تليفونيا . هل جاءوا لاصطحابك ؟ . وتكرر اتصالها كل عدة ساعات وكأنه ليس هناك من يستمع الى محادثاتنا .

ونظرا لوجود شاريت في اللطرون . فقد توليت رئاسة الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية . واقتрحت بهذه الصفة أن يكون رد الفعل هو المقاومة المدنية . وكنت على ثقة من أننا ان لم نفعل شيئا فإن الارجون زقاي ليومي والشتيرن سوف تتوليان الامر بنفسيهما .

ومع اني اعتقد ان هذا الكتاب ليس المكان أو الزمان المناسب للحديث عن الجماعتين المنشقتين الارجون والشتيرن . فإنه لا بد على الأقل من أن ابين موقفى تجاه اساليبهما وفلسفتهما .

كنت على الدوام - خلقيا وتاكتيكيا - اعارض الارهاب من أى نوع سواء ضد العرب أو البريطانيين . لقد كنت - وبقيت - مؤمنة بأن

اعضاء هاتين الجماعتين المنشقتين - رغم شجاعة البعض وتفايهم - مخطئون ، وبالتالي خطرون على اليشوف ، من البداية الى النهاية وكنت أوقن في صيف ١٩٤٦ اننا مالم نتخذ رد فعل ايجابي فان الجماعتين ستفعلان ذلك ، وتحلبان علينا كوارث اسد . وهكذا هرعت الى الدكتور حاييم وايزمان في رحوبوت في محاولة لاقتناعه بالدعوة الى التظاهر الجماهيري الجماعي . وكان د . وايزمان انشد رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية ورئيسا للوكالة اليهودية . وكان بلا منازع قائد اليهودية العالمية وأول متحدث باسمها .

كان وايزمان عالما مرموفا ، ولد في روسيا لكنه عاش وتعلم في انجلترا حيث لعب دورا هاما في تأمين وعد بلفور . كان رجلا مهيبا ، يسميه يهود العالم « ملك اليهود » . ورغم أنه لم يكن ينتمي الى حزب معين ، فقد كان متعاطفا مع حركة الكيوتز وحركة العمال بشكل عام ، على الرغم من خلافه - كرجل يؤيد التدرج - مع س حوربون الذي ينادي بالحركة النشطة . وقد ساءت العلاقة بينهما خلال الحرب عندما شعر بن حوربون بأن وايزمان لا يقوم بالضغط اللازم لانشاء اللواء اليهودي ، بل وعرض في أحد الاجتماعات الحزبية أن نغلب منه الاستقالة . صحيح اننا لم نؤيد بن حوريون ، لكن المؤتمر الصهيوني في نازل عام ١٩٤٦ صوت بعدم الثقة على وايزمان .

ورغم كل ما يقال في اسرائيل الان عن الخلاف بين هذين الرجلين ، فإن بن حوربون كان يحب وايزمان ويعجب به ، لكنه لم يكن يشاركه موقفه الواثق والمتفائل ازاء البريطانيين ، فقد كان جولد مان يؤمن بأن بريطانيا سوف تعود الى رشاها يوما ما . غير ان وايزمان طبله الاعوام الثلاثين للانتداب ، كان الرجل الذي جسد الصهيونية أمام العالم ، وكان تأثيره هائلا .

وكان وايزمان هو الرجل الوحيد القادر على اقناع الرئيس ترومان . عندما خانت ساعة الصفر في عام ١٩٤٨ . بالاعتراف بدولة يهودية يكون النقب جزءا منها . وعندما اعطى نرومان - التفويض باعتراف الولايات المتحدة الأمريكية عصر يوم ١٤ مايو (ايار) ١٩٤٨ . لم يكن يفكر أو يتحدث الا عن وايزمان . وقال « الان سيصدقني هذا الدكتور العجور » . ولم يكن الشك يخامر بن جوربون في اننا ما ان نحصل على دولتنا . فإن وايزمان سيكون أول رئيس لها . وكنت اداوم على زيارة وايزمان في رحوبوت . حيث بسى هو وزوجته - فيرا - منزلا في الثلاثينيات . استخدم فيما بعد مقرا للرئاسة منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٥٢ حين مات د . وايزمان . وكثيرا ما كان يدعوني لزيارته . لكنه في أواخر ايامه ازداد احساسا بالمرارة وباقصائه عمدا عن عملية صنع السياسة وكان يسمى نفسه « سجين رحوبوت » . وحدثني بأسى في احدى المرات عن ديجول الذي كان يرأس اجتماعات الوزارة احيانا . في حين كان نظامنا البرلماني مختلفا . واعتقد ان وايزمان كان مخطئا في تفضيله الإقامة في رحوبوت . رغم أن ذلك كان محببا الى نفسه كي يكون على مقربة من معهد وايزمان للعلوم الذي اسسه عام ١٩٣٤ من معهد دانييل سيف للابحاث . ولو ان وايزمان عاش في القدس وفتح ابواب بيته كما فعل بن زفي وشازار . لكان احساسه بالوحدة والعزلة أقل . ولو ان زوجته كانت اقل ترفعا لكان ذلك من العوامل المساعدة . لكنه على أية حال كان رجلا عظيما . واحسست بتشريف عميق عندما دعاني رئيس معهد وايزمان لأكون رئيسة شرف عالمية لاحتفالات المعهد عام ١٩٧٤ بالعيد الثوي . وعندما ذهب اليه في عام ١٩٤٦ . وكان لا يزال محتفظا بقواه . وافق على فكرة اعلان العصيان المدني العام شريطة ان لا تفعل

الهاجاناه شيئا إلى أن تجتمع الوكالة اليهودية في باريس في شهر أغسطس (اب) . ووعده بتنفيذ ذلك . حيث بحث الأمر مع الاعضاء الخمسة (ولم أكن قد أصبحت بينهم بعد) وكانوا قد اتخذوا القرار بالفعل بأغلبية ثلاثة أصوات ضد صوتين . وعندما ابلغت اشكول برأى وايزمان غير رأيه على الفور . لكن وايزمان تراجع عن موقفه . ويدو أن اصدقاءه البريطانيين نصحوه بالانقلاع عن الفكرة . وايا كانت الاسباب فقد تملكني غضب شديد .

واجتمعت الوكالة اليهودية في باريس في أغسطس (اب) كما كان مقررا . لخوفنا من أن يعتقل بن جوريون اذا عاد الى فلسطين . فقد ذهبنا جميعا الى فرنسا . وهناك استمعنا الى اقتراح جديد من بيتس يقضي بتقسيم فلسطين الى « كانتونات » يكون احداها يهوديا . وكانت بريطانيا في تلك الاثناء تعيد ترحيل المهاجرين غير القانونيين من فلسطين الى قبرص . وكان وايزمان يجري محادثات مع البريطانيين تختلف في اتجاهها عما كنا نناقشه . فاقترحت على بن جوريون ان نذهب الى لندن ونحدث مع وايزمان هناك . لكنني لم اسطع ان اقبل اتهمه لنا بأننا « لا نتصرف بمسؤولية » وفقدت اعصابي وغادرت حجرة الاجتماع . ولم يسامحني وايزمان الا بعد عدة سنوات . على معارضي له انئذ وفي مؤتمر بازل .

ولم تكن تلك هي أول مرة افقد فيها أعصابي وغادرت غرفة اجتماع . اذ حدث قبلها بعدة اشهر ان كنت افايل سكرتير عام حكومة الانتداب لأمري ما . وفوجئت به اثناء الحديث يقول « لعلك ما مسز مايرسون توافقيني على أن النازي عندما اضطهدوا اليهود لا بد كانت لديهم اسباب لذلك » . وغادرت الغرفة ورفضت رؤيته مرة تانية .

وكان المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون في بازل هو أول مؤتمر
ينعقد بعد الحرب . في اجتماع يشبه عائلة منكوبة تنسحب
ضحاياها وتحاول تجميع قواها للمستقبل . وأصبحنا نتحدث للعالم
بوضوح عن دولة يهودية . وتحدثت باليديدش عن الشباب الصابرا
الذين ولدوا في فلسطين . مؤكدة لهم انهم ليسوا أقل منا التزاماً
وارتباطاً بالهجرة اليهودية الحرة . وكنا دائماً نتساءل عما يربط هؤلاء
الأطفال بيهود العالم في الخارج .

وجاء الوقت الذي رد فيه الصابرا على هذا التساؤل . كانت الأمور
بالنسبة اليهم سهلة غير معقدة . فعندما كانت الهجرة اليهودية تتوالى
على فلسطين على متن السفن . كان هؤلاء الصغار يندفعون الى
الشواطئ لحمل المهاجرين على أكتافهم .

الفصل الثامن

لدينا دولتنا

إذا كانت سنة ١٩٤٦ سنة صعبة ، فإننى لا اجد وصفا لسنة ١٩٤٧ غير ان اقول ان الموقف فيها في فلسطين خرج من يد بريطانيا كلية ، التى اصبحت تحارب اليهود واللاجئين حربا علنية . وبدا وكأن ارنست بيثن لم يكن لديه ما يشغل باله بالمرّة غير التفكير في كيفية ابقاء اليهود بعيدا عن الوطن القومى . وانى لعلّى يقين من ان كل القرارات التى اتخذها بيثن بشأن فلسطين كانت نتيجة للغضب الشديد الذى سببه له اليهود برفضهم لمقترحاته .

ولست ادرى (ولم يعد مهما الآن في الواقع) هل كان بيثن معجونا . ام معاديا للسامية . ام كلاهما معا ؟ لكننى اعلم جيدا انه قد وضع كل قوى الامبراطورية البريطانية ضد إرادة الحياة لدى الشعب اليهودى مسببا لهم بذلك المزيد من الآلام . بل واجبر الجنود والبحارة البريطانيين على القيام بأعمال مفرقة . وما زلت اذكر منظر الجنود البريطانيين وهم يحرسون معسكرات الاشخاص المشردين في قبرص - عندما زرتها بنفسى في عام ١٩٤٧ - والحيرة تملكهم ازاء حقيقة انهم يضعون الآن وراء الاسلاك الشائكة نفس الرجال والنساء والاطفال الذين حرروهم من قبل من معسكرات النازية .

وكنت قد ذهبت الى قبرص لأبحث عما يمكن عمله من اجل الاطفال الموجودين هناك . كان عدد اليهود في معسكرات قبرص قد

بلغ ٤٠٠٠٠ . وكانت بريطانيا تسمح - بدفعة متناهية - بدخول ١٥٠٠ فقط كل شهر الى فلسطين . نصفهم من معسكرات أوروبا والنصف الآخر من قبرص . متبعة في ذلك مبدأ « من يأتي اولاً يخرج أولاً » . وكان معنى ذلك ان يبقى الكثير من الاطفال لعدة شهور في ظروف سيئة .

وكان اطباؤنا في معسكرات قبرص قد جاءوا الى مكتبي في القدس معلنين انهم ليسوا مسؤولين عن صحة الاطفال اذا بقوا في قبرص شتاء آخر . وكان على أن اتفاوض مع حكومة فلسطين على السماح للعائلات التي لديها طفل عمره اقل من عام بالخروج « خارج الدور » مع طرح عددهم فيما بعد من العائلات التي « حل عليها الدور » . ونجحت بعد جهد في اقناع السلطات البريطانية بالموافقة على ذلك بل وعلى ترحيل الاطفال اليتامى فوراً .

وكان على ان اسافر بعدئذ . الى قبرص لاقناع اليهود بتنفيذ هذا الاتفاق . رغم ان الكثيرين ثبطوا همتي . وفور وصولي قدمت نفسي الى قائد المعسكر . وكان ضابطاً ممن خدموا في الهند . وابلغته بمهمتي . فقال لي انه يعرف موضوع العائلات ذوات الاطفال لكنه لا يعرف شيئاً عن اليتامى . وانه سوف يتحقق من هذا الامر . وفوجئت بعد قليل بموافقته على ادراج اليتامى . ثم علمت فيما بعد سر استسلامه اذ كان قد تلقى برقية من السكرتير العام من القدس يقول له فيها « احذر مسز مايرسون » .

وكانت المستعمرات عبارة عن مجموعة من الخيام والاكواخ تحيط بها ابراج الحراسة والاسلاك الشائكة . ومياه الشرب قليلة . ومحظور الاستحمام في البحر رغم ان المعسكرات كانت على الشاطئ . واثناء جولتي قدمت لى طفلتان باقة من الورود مصنوعة من الورق .

ساعدتهما على صنعها مدرسات الحضانة اللائى ارسلناهن الى قبرص .
وكم تلقيت في حياتى باقات الورود ، لكن اكثرها تأثيرا في نفسى هى
تلك الباقة التى قدمت لى في قبرص . ومن الصدف ان هذا المعسكر ضم
فتاة جذابة اسمها آيا كانت تعمل على الراديو في احدى سفن
الهاجاناه التى قبض عليها البريطانيون . وهى الآن طبيبة نفسية
للاطفال في تل ابيب ، وهى زوجة ابنى .

وعقدت اجتماعا مع اللجنة التى تمثل المحتجزين ، تلاه اجتماع
عام مع الجميع . وبينت لهم انهم لن يبقوا طويلا في قبرص واننى في
حاجة الى تعاونهم معى . لكن انصار الارجون زفأى ليومى في المعسكر
ثاروا ضدى وهتفوا إما الجميع والا فلا ، بل وحاولوا الاعتداء على .
لكنهم في النهاية هدأوا ، ووصلنا الى اقرار الترتيبات اللازمة . وتبينت
مشكلة اخرى وهى الاطفال الذين مات أحد والديهم .

وعدت الى فلسطين ، حيث قابلت السير آلان كاننجهام المفوض
السامى البريطانى ، (وكان رجلا رقيقا وعفوا) . وعرضت عليه هذه
المشكلة فوعد بحلها . وكان كاننجهام آخر مفوض في فلسطين وغادرها
في ١٥ مايو (ايار) ١٩٤٨ . ولم اكن اتوقع ان اسمع منه او عنه بعدئذ .
لكننى بعد ان توليت رئاسة الوزارة بعدة اشهر تلقيت منه رسالة من
الريف الانجليزى ، حيث تقاعد . يقول لى فيها ان اسرائيل برغم اية
ضغوط لا يجب ان تتنازل عن اى من الاراضى التى استولت عليها في
حرب الايام الستة والى أن تضمن حدودا آمنة يمكن الدفاع عنها .
وتأثرت للغاية برسالته

وفي عام ١٩٧٠ حضرت في حيفا احتفالا بإعادة دفن ١٠٠ طفل من
هؤلاء الاطفال الذين كانوا قد لقوا حتفهم في تلك المعسكرات التعيسة .
وظلت الهواجس تراودنى ، ترى هل بين هؤلاء الاطفال هاتان

الطفلتان اللتان قدما لى باقة الورد في قبرص . وكنت التقى بالناس الذين حضروا اجتماعى معهم في قبرص ، فمثلا كنت ازور احد الكمبيوترات في النقب عندما تقدمت منى سيدة تريد ان تشكرنى وعندما سألتها عن السبب ابلغتنى انها كانت في قبرص ولديها طفلة وانا التى انقذتهما . ثم قدمت الى هذه الطفلة فإذا هى فتاة رائعة في العشرين من عمرها انته لتوها الخدمة العسكرية . وخرجت عن شعورى وقبلتها بحرارة امام الجميع دون ان يفهم احد السبب .

وفي المؤتمر الصهيونى في بازل عام ١٩٤٦ تقرر ان يرأس موسى شاريت الدائرة السياسية للوكالة اليهودية في واشنطن وان ابقى انا رئيسة لها في القدس . وكانت الحياة في القدس أشد اشبه بالحياة في مدينة محتلة . فالانجليز متمركزون في قلعة في وسط المدينة (كنا نسميها بيشنجراد) ودباباتهم تجوب الشوارع عند أى تحرش . وعندما كانت الارجون زقأى ليومى والشتين تأخذان على عاتقهما تنفيذ القانون - وكانا لسوء الحظ يفعلا ذلك باستمرار - كانت بريطانيا ترد بإجراءات بالغة العنف تعطل الحياة اليومية . واذا ما جلدت السلطات البريطانية واحدا من الشتين او الارجون ، كانت الجماعتان تردان بخطف او بإعدام اثنين من جنود بريطانيا ، هذا في الوقت الذى استمرت فيه معركتنا للتجهيز والاستيطان بكامل قوتها .

ولم يكتف البريطانيون بإجراءاتهم الرادعة بل مضوا يساعدون العرب ويحرضونهم ضدنا . غير ان بريطانيا وقد انهكها حمام الدماء في فلسطين ، اعلنت على لسان بيثن في مجلس العموم في فبراير (شباط) ١٩٤٧ انها قد تعبت واكتفت . وان على الامم المتحدة ان تعالج مشكلة فلسطين . بالطبع لم يسهج الامم المتحدة ان يعهد اليها بالموضوع . لكنها لم تكن تملك الرفض .

ووصلت لجنة للامم المتحدة الخاصة بفلسطين الى البلاد في شهر يونيو (حزيران) . وطبقا لصلاحيتها كان عليها ان تقدم تقريرها الى الجمعية العامة للامم المتحدة في اول سبتمبر (ايلول) ١٩٤٧ مع اقتراحات محددة للحل . وكالعادة رفض العرب الفلسطينيون التعاون معها بأى شكل من الاشكال . بينما تعاون معها الجميع سواء قادة اليسوف او حكومة فلسطين او بعض قادة الدول العربية فيما بعد . وقضيت وقتا طويلا مع اعضاء اللجنة الاحد عشر وافزعنى جهلهم لحقائق الموقف والتاريخ . وتحتم علينا ان نشرح لهم ، وبسرعة ، الاسباب التى تدعونا الى عدم التخلّى عن حقنا في احضار الناجين من المجزرة الى فلسطين .

ولأسباب لم افهمها ولا أظن أن احدا فهمها ، وقبل أن تغادر فلسطين لجنة الامم المتحدة ، قامت بريطانيا بإظهار طغيانها وجبروتها في معالجة قضية المهاجرين اليهود ، فاجبرت ٤٥٠٠ مهاجر ، كانوا على متن باخرة الهاجاناه المسماة اكسودس (الخروج) ١٩٤٧ ، على العوده مرة ثانية الى المانيا . ولو اننى عشت حتى المائة من عمرى فلا اظنها ستنمحي من ذاكرتى صورة الجنود البريطانيين شاكى السلاح وهم يجبرون المهاجرين بما فيهم النساء الحوامل اللاتى اردن الوضع في اسرائيل . على العوده الى المانيا رمز مقبرة اليهودية . والقيت خطابا في القاعاد ليومى اطلقت فيه نداء عاجلا لبريطانيا ، ومع ذلك عادت الباخرة الى المانيا .

وبينما صيف ١٩٤٧ يمر ، اصبح طريق القدس - تل ابيب تحت سيطرة العمابات العربية التى كانت تطلق نيرانها على اية سيارة يهودية .. وكان العرب يهددون بقطع هذا الطريق . الامر الذى سبحدث مجاعة عند يهود القدس . ولاضطرارى الى السفر بين

المدنيتين . فلم يكن امامى مفر من استعمال هذا الطريق الوحيد رغم تعرض سيارة الوكالة اليهودية للنيران . وذات مرة انحرفنا عن الطريق ودخلنا قرية عربية كنت اعلم انها عش للرقاب المقطوعة لكننا نجونا دون خدش . وذات مرة اوقفنا دورية بريطانية للتفتيش عن السلاح وعثرت على بندقية مع حارستى من الهاجاناه . وعلمت من الضابط انه سياتخذ الحراسة الى المجدل . وهى قرية عربية . فصممت على أن ارافقها الى هناك . وازاء هذا التهديد . وكان قد عرف شخصيتى . وذهبنا الى مركز شرطة في قرية يهودية . ثم افرج عن الحراسة وتوجهت الى تل ابيب .

وفي ٣١ اغسطس (آب) اجتمع أعضاء لجنة الامم المتحدة في جنيف وانها تقريرهم . واوصى سبعة أعضاء - كما سبق ان اوصت لجنة بيل - بتقسيم فلسطين الى دولتين احدهما يهودية والاخرى عربية وتصبح القدس وما يجاورها منطقة دولية . اما الاقلية (وكانت تضم بينها الهند وايران ويوغوسلافيا التى يوجد فيها كثير من السكان المسلمين) فقد اقترحت دولة يهودية عربية فيدرالية . واصبح القرار منوطا بالجمعية العامة للامم المتحدة . وفي تلك الاثناء اعلنت كل الاطراف المعنية مواقفها ، اما نحن فقد قبلنا الخطة بالطبع وطالبنا بإنهاء الانتداب فورا . وقال العرب انه لا علاقة لهم بأى من الاقتراحين وهددوا بالحرب ما لم تصبح كل فلسطين دولة عربية . واعلنت بريطانيا انها لن تتعاون في تنفيذ اية خطه للتقسيم ما لم يتحمس لها كل من العرب واليهود ، وادركنا نحن ما يعنيه ذلك . ونشر الامريكيون والروس تصريحات تؤيد توصيات الاغلبية .

وعقدت مؤتمرا صحفيا في القدس في اليوم التالى . قلت فيه اننا لا نتصور دولة يهودية بدون القدس ولكننا نأمل في اصلاح هذا الخطأ

في الجمعية العامة للأمم المتحدة . وابدت اسفى على استبعاد الجليل الغربى من الدولة اليهودية واعربت عن الامل في ان تعالج الجمعية العامة ايضا هذا الخطأ . وركزت على ضرورة اقامة نوع جديد من العلاقات مع العرب الذين سيكون ٥٠٠,٠٠٠ سمة منهم في الدولة اليهودية وقلت « ان دولة يهودية في هذا الجزء من العالم يجب ويمكن ان تكون عوناً لكل واحد في الشرق الاوسط » . وانه لما يدعى القلب ان نجد اننا كنا نستعمل هذه الكلمات - دون جدوى - منذ . ١٩٤٧

وجرى التصويت في ليك ساكسيس في نيويورك يوم ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) . والصقت أذنسى بالمذيع ، ككل ابناء اليشوف . استمع الى وقائع الجلسة واسجل بالقلم نتائج التصويت . واخيرا ، وعند منتصف الليل وفق توقيتنا اعلنت النتيجة . فأيدت التقسيم ٣٣ دولة من بينها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى . وعارضت ١٣ دولة بينها كل الدول العربية . وامتنعت عشر دول عن التصويت من بينها بريطانيا . وعلى الفور توجهت الى مبنى الوكالة اليهودية فوجدت الجموع محتشدة والقوافل تترى والكل يغنى ويمرح . وادكر اننى صعدت الى مكتبى وحيدة غير قادرة على المشاركة في البهجة . فقد رفض العرب المشروع وتحدثوا عن الحرب فقط . وبناء على طلب الجماهير المحتشدة القيت كلمة من شرفة مكتبى ، لكننى لم اوجهها للجموع الكثيرة . وانما للعرب .

وقلت في كلمتى : لقد حاربتم ضدنا في الامم المتحدة . وقالت اغلبية دول العالم كلمتها . صحيح ان التقسيم ليس ما تريدونه وليس ما نريده . ولكن دعونا الآن نعيش في سلام سويا . وفي اليوم التالى مباشرة اندلعت الاضطرابات العربية وقتل سبعة من اليهود في كمين .

للهاجاناه . وعند عودتي قال لي بن جوريون ان التاريخ سيذكر يوما ان امرأة يهودية جمعت من الاموال ما جعل قيام الدولة امرا ممكنا ، لكنني مع ذلك اخدع نفسي . فهذه الاموال لم تعط لي . وانما لاسرائيل .

وكانت رحلتي الى الولايات المتحدة واحدة من الرحلات التي قمت بها خلال هذا العام . وقبل ستة اشهر من تأسيس الدولة ، تقابلت مرتين مع الملك عبد الله ملك شرق الاردن وجد الملك حسين . ومع ان كلا اللقاءين بقيا سرا ، حتى بعد اغتيال الملك عبد الله على يد اعدائه العرب (ربما من انصار المفتي) فلا احد يعلم حتى اليوم مدى مسؤولية الشائعات التي انتشرت عنها عن اغتياله . والاغتيال مرض مستوطن في العالم العربي ، وأحد الدروس الهامة التي يجب أن يتعلمها القادة العرب وهى الصلة بين السرية وطول الحياة . وقد احدث اغتيال الملك عبد الله تأثيرا ظل قائما على كل القادة العرب الذين تلووه . واذكر ان عبد الناصر قال لاحد الوسطاء الذين ارسلناهم اليه ، لو ان بن جوريون جاء الى القاهرة للتحدث معى فسوف يعود بطلا . اما اذا ذهب اليه انا فسوف اقتل عند عودتي . والواضح ان هذا الموقف مازال قائما .

وكان اللقاء الاول مع الملك عبد الله في اوائل نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧ . وقد وافق على مقابلتى بوصفى رئيسة للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية . في منزل في نهارييم (على نهر الاردن) عند محطه كهرباء تديرها شركة كهرباء فلسطين . وجئت الى نهارييم مع احد خبرائنا في الامور العربية وهو الياهو ساسون . وكان الملك عبد الله صغير الجسم ، رابط الجأش . ذا سحر اخاذ . وبعد تناول القهوة ، دخل الى لب الموضوع مباشرة . فهو لن ينضم الى اى هجوم عربى

ضدنا ، وسيبقى - كما قال - صديقا لنا ، وهو يريد السلام مثلنا . ثم ان عدونا كان واحدا وهو الحاج امين الحسينى مفتى القدس . ولم يكتبف بذلك . بل اقترح ان نلتقى ثانية بعد ان تنتهى الامم المتحدة من التصويت .

وقام واحد اخر من خبرائنا في الشؤون العربية ، وهو عزرا دانيان ، الذى كان يلتقى بالملك عبد الله من قبل كثيرا . بتزويدى بالمعلومات عن المفهوم العام للملك لدور اليهود . وكان هذا المفهوم يتلخص في ان العناية الالهية شتت اليهود في العالم الغربى لكى يستوعبوا الحضارة الاوروبية ويجلبوها معهم الى الشرق الاوسط فيعيدوا بذلك احياء المنطقة لكن دانيان كان متشككا في مدى امكانية الانعماد على الملك ، اما تعبيره عن الصداقة فهو صادق فيه وان لم يكن ذلك بالامر الملزم له .

وحافظنا على الاتصالات مع الملك عبد الله خلال شهرى يناير (كانون الثانى) وفبراير (شباط) . عن طريق صديق مشترك كان يحمل رسائل الى الملك . واصبحت رسائل الى الله مشوبة بالقلق . فقد كان الجو ثقلا بالتخمينات والحدس . وجاءتنا معلومات بأن الملك عبد الله سوف ينضم الى الجامعة العربية على الرغم من وعده لى . وكان تساؤلى " هل ذلك صحيح " . وجاءتلى الاجابة من عمان قاطعة بالنفى . وقال الملك عبد الله ان السؤال ادهشه وحرجه . واننى بوجب ان اتذكر ثلاثة اشياء ، انه بدوى ولذا فهو رجل شرف . وانه ملك ولذا فانه رجل شرف مضاعف . وأنه لا يحث بوعده قطعه لامرأة . وبهذا زالت مبررات قلقتى .

ولكن معلوماتنا جاءت مختلفة .. اذ لم يعد هناك شك في الاسبوع الاول من مايو (ايار) ان الملك عبد الله سيلقى بثقله في الجامعة

العربية . واخذنا ببحث في جدوى الاتصال به من جديد فاذا لم نستطع اقناعه بتغيير رأيه فسنعرف على الاقل مدى عمق التزامه هو وقواته التي يديرها ويقودها بريطانيون بالحرب ضدنا . لم يكن الامر فقط ان الفيلق العربى عنده كان أفضل جيوش المنطقة ، لكنه اذا حدثت المعجزة وبقيت شرق الاردن خارج الحرب ، فسيكون من الصعب على الجيش العراقى أن يخترق فلسطين ليضم للهجوم علينا . وكان من رأى بن جوريون اننا لن نخسر شيئا من تكرار المحاولة . وهكذا طلبت الى عزرا دانيان أن يرافقنى .

في هذه المرة رفض عبد الله ان يحضر الى نهاراييم وقال للرسول ان ذلك خطر للغاية . فإذا اردت ان اراه فيجب ان احضر الى عمان على أن تتحمل مسؤولية المخاطرة . وابلغنا أنه من الأفضل ألا يثير الفيلق العربى بحقيقة أنه ينتظر ضيفا يهوديا من فلسطين وانه لا يتحمل أبة مسؤولية عما قد يحدث لنا في الطريق .

وكان عليا اولا أن نصل الى تل ابيب ، اذ كان الوصول اليها في مثل صعوبة الوصول الى عمان . ولبثت في القدس انتظر الطائرة منذ الصباح حتى الساعة السابعة مساء عندما وصلت الطائرة ، لكن الاحوال الجوية كانت قد اصبحت بالغة السوء . ولو كانت الاحوال عادية لأجلت الامر الى الصباح . لكننا لم نكن نستطيع فقدان الوقت . اذ كنا في العاشر من مايو (ايار) وستعلن الدولة يوم ١٤ . وكانت تلك آخر فرصة لنا للحديث مع عبد الله . وفي طائرة مروحية يمكن ان تمزقها نسمة قوية - لا تلك الريح العاصفة - اقلعنا الى تل ابيب . وفي صباح اليوم التالى توجهت بالسيارة الى حيفا حيث قابلت عزرا ، الذى اكتفى بارتداء غطاء الرأس العربى للتكرار . وكان يجيد اللغة العربية وعاداتها بحيث يمكن اعتباره عربيا ، اما انا فليست

العباءة السوداء والحجاب العربى . وكامرأة مسلمة تصاحب زوجها فلم يكن مطلوباً منى ان اتحدث مع احد . وكان علينا أن نغير السيارات عدة مرات لنضمن ان احدا لا يقتفى اثرنا ، الى ان نصل الى منطقة قريبة من قصر الملك حتى يقابلنا دليلنا ويقودنا اليه . وكانت اكبر المشاكل هى كيفيه تجنب اثاره شكوك رجال الفيلق العربى في مواقع التفتيش التى سنمر من خلالها .

وكانت رحلة طويلة خلال الليل غيرنا فيها السيارة ثلاث مرات . ولم اكن اشك في مقدرة عزرا على امرارنا من بين خطوط الاعداء . ولم نتحدث ابدا طوال الرحلة ، لكنى كنت افكر فيما قد يحدث لو ان امرنا افتضح لا قدر له . وكان الرجل الذى سيصحبنا الى الملك بدويا تبناه الملك منذ طفولته ورباه ، وكان يقوم بالمهام الخطرة من اجل سيده .

واصطحبنا الرجل في سيارته ، ووصلنا الى منزله حيث جلست اتحدث مع زوجته الجميلة الذكية التركية الاصل . ثم دخل عبد الله الى الغرفة شاحب اللون مرهقا . وتولى عزرا الترجمة بيننا . ودخلت الى الموضوع مباشرة فسألته هل خلفت وعدك لى ؟ ولم يجب على سؤالى مباشرة بل قال ، عندما قطعت ذلك الوعد ، كنت اعتقد انى اتحكم في مصيرى واستطيع عمل ما اراه صحيحا . لكننى علمت من يومها اشياء اخرى . ثم مضى قائلاً انه كان بمفرده من قبل اما الآن فهو « واحد من خمسة » . وفهمت ان الاربعة الآخرين هم مصر وسوريا ولبنان والعراق . ومع ذلك فقد كان يعتقد بإمكانيته تجنب الحرب .

وسألنى .. « لماذا انتم في عجلة من امركم الى هذا الحد لاعلان دولتكم ؟ ما هذا الاندفاع ؟ انتم نافذو الصبر » . وابلغته انى لا اعتقد

ان شعبا قد انتظر الفى عام يمكن ان يوصف بأنه « في عجلة » . وبدأ وكأنه يتقبل ذلك .

وقلت له : ألا تفهم اننا حلفاؤك الوحيدون في المنطقة والآخرين كلهم اعداؤك ؟

فقال لى نعم اعلم ذلك لكن الامر ليس بيدي .
فقلت له : يجب ان تعلم انه اذا فرضت علينا الحرب فسوف نحارب وسوف ننتصر .

وقال لى : نعم اعلم ذلك . لكن الاستطيعون الانتظار سنوات قليلة ؟ اسقطوا مطالبكم بالهجرة الحرة . وسوف اسيطر على البلد كلها وسوف تمثلون في برلمانى . وسوف اعاملكم بطريقة حسنة للغاية ولن تكون هناك حرب .

وحاولت ان اشرح له استحالة خطته . قائلة : « انك تعلم ما فعلناه وما تحملناه من مشاق . ونحن لم نفعل ذلك لكى نمثل في برلمان اجنبى . انت تعلم ما نريد وما نتطلع اليه . واذا لم يكن لديك ما تقدمه لنا غير ما قلته الآن فستكون هناك حرب وسنكسبها . ولكنك قد ترى ان نلتقى ثانية - بعد الحرب وبعد قيام الدولة اليهودية » .
وقال دانين للملك : « انكم تعتمدون الى حد كبير على دباباتكم وسوف نسحقها كما تحطم خط ماجينو » .

وكانت تلك كلمات تتسم بالشجاعة خاصة وان دانين كان يعلم الوضع الحقيقى لمدرعاتنا . واوماً عبد الله برأسه مهموماً ، وقال : ان الاحداث سوف تجرى على أعنتها ، وسوف نعرف جميعا حتماً ما يخبئه لنا القدر .

وبدا واضحاً انه ليس هناك مجال لمزيد من الحديث ، غير ان دانين وعبد الله شرعا في مناقشة جديدة .

قال دانين ، اننى امل ان نبقى على اتصال حتى بعد أن تبدأ الحرب .

فأجاب عبد الله ، طبعاً ، ويجب ان تأتى لرؤيتى . فتساءل دانين ، ولكن كيف سأتمكن من الوصول اليك ؟

فقال عبد الله مبتسماً ، اننى اثق في انك ستجد الوسيلة .

وبعد ذلك لأمه دانين لعدم اتخاذ الاحتياطات الكافية ، فقال له « انك تصلى في الجامع وتسمح لرعاياك بتقبيل اطراف رداك . في يوم من الايام سوف يلحق بك احد الاشرار ضرراً . لقد أن الاوان لمنع هذه العادة ، ولو على سبيل السلامة » .

وبدا بوضوح ان عبد الله قد صدم ، وقال بجفاء لدانين « انا لن اصبح ابداً سجيناً لحراسى . لقد ولدت بدوياً ، رجلاً حراً ، وسأبقى حراً . ودع أولئك الذين يريدون قتلى يفعلون ذلك . فلن اضع نفسى في القيود » . ثم ودعنا وانصرف .

ثم دعتنا سيدة الدار الى تناول الطعام ، ورغم اننى لم اكن اشعر بالجوع فقد نصحنى دانين بأن املأ طبقى والا كنت كمن يرفض كرم الضيافة العربى . واستغرقتنى الافكار .. لقد بات واضحاً ان عبد الله سيشن الحرب ضدنا ، والدبابات الاردنية ليست نكتة على الرغم من ادعاء دانين بالشجاعة .. وتملكتنى الجيرة .. كيف سأنقل هذه الاخبار الى تل ابيب !!

ورحلنا بعد قليل مع سائق عربى كان يرتعد كلما وصلنا الى نقطة تفتيش . وترجلنا قبل الوصول الى نهارييم بعد ان مررنا بالسيارة بمعسكر المفرق الذى تجمعت عنده القوات العراقية . واخذنا نتحدث اثناء سيرنا عما سيحدث يوم ١٤ مايو (آيار) ، وقال لى دانين ان الحظ لو حالفنا فقد نفقد ١٠٠٠ شخص ، اما اذا جانبنا الحظ

فسنفقد ٥٠٠٠٠٠ . واكملنا الطريق دون ان نتبادل كلمة واحدة او حتى نتنفس بصوت عال ؛ وثيابى التى ارتديها تعوق سبرى . وسرنا قرابة نصف الساعة الى ان قابلنا رجل الهاجاناه الذى قادنا الى نهارييم عبر التلال والادوية . واعتقد اننى لم امسك فى حياتى يد أحد بحرارة وقوة مثلما فعلت انئذ .

ولم اقابل عبد الله ثانية . رغم أننا اجرينا معه بعد الحرب مفاوضات مطولة . وابلغونى انه قال عنى اننى المسئولة عن الحرب لاننى كنت متعالية الى درجة اننى لم اقبل ما عرضه على . ولا بد لى أن أقول اننى عندما أفكر فيما كان سيحدث لنا كأقلية «محمية» فى مملكة يحكمها ملك عربى اغتاله العرب . فإننى لا أندم على انى خيبت آمال عبد الله فى تلك الليلة .

على اية حال . توجهت من نهارييم الى تل ابيب . وفى صباح اليوم التالى اشتركت فى اجتماع لحزب الماباى . وكانت الاجتماعات مستمرة طوال الاسبوع . وما أن دخلت حتى سألتنى بن جوريون « لا . » فكتبت له ورقة قلت له فيها لم ننجح . ستقوم الحرب . وقد شاهدت انا وعزرا تجمعات الجنود فى المفرق . ولم استطع ان اتحمل رؤية المفرق . ولم استطع ان اتحمل رؤية وجه بن جوريون وهو يقرأ الورقة . لكنه ولله الحمد لم يغير رأيه - ورأينا - بعد قراءتها .

كان لابد من اتخاذ قرار نهائى . هل تعلن الدولة اليهودية ام لا ؟ وقدمت تقريراً عن محادثاتى مع عبد الله . وبعدئذ طلب المجتمعون من بن جوريون تقييمهما اخيراً للموقف . وتقدير الهاجاناه لساعة الصفر . فدعا بن جوريون رجلين هما يجال يادين رئيس عمليات الهاجاناه واسرائيل جاليلى رئيس الاركان الفعلى فيها . وكانت اجابتهما متطابقة . ومفزة .. قالوا ان هناك امرين مؤكدين . الانجليز

سيسحبون والعرب سيفغزون . وتساءلنا : ثم ماذا ؟ فلم يجيبا الا بعد مرهة نقولهما : ان الفرص امامنا ٥٠ % . فبقدر ما قد نكسب . قد نهزم .

وفي ضوء ذلك تم اتخاذ القرار بأن تعلن الدولة اليهودية يوم الجمعة ١٤ مايو (أيار) ١٩٤٨ (الموافق الخامس من أيار عام ٥٧٠٨ وفق التقويم العبري) التي يبلغ تعداد سكانها ٦٥٠,٠٠٠ نسمة . والتي تتوقف حياتها على قدرة اليشوف على مواجهة هجوم تشنه خمسة جيوش عربية يساعدها مليون من عرب فلسطين .

وكان مقررا ان اعود الى القدس وابقى هناك الى يوم الخميس . لكننى كنت اتمنى ان اكون في تل ابيب لا شهد احتمال الاعلان الذى قررنا الاحتفاظ بسرية مكانه (الا على المدعويين وعددهم ٢٠٠) الى ما قبل حدوثه بساعة . لكن بن جوريون رفض بتدة وضمه على وجودى في القدس . وهكذا ركبت الطائرة المروحية بجوار الطيار (ولم يكن في هذه الطائرات التى كنا نسميها بريموس سوى مقعدين) لكى يوصلنى الى القدس ويعود باسحاق جرونوم (اول وزير داخلية في الحكومة المؤقتة ١٩٤٨) وما ان عبرنا السهل الساحلى حتى بدأت آلات الطائرة تصدر اصواتا فظيعة وكأنها ستتخطم . وقال لى الطيار انه لا بد من العودة وظل ينظر الى الارض بحثا - كما قال - عن قرية عربية للمهبوط فيها . ولا تنسوا اننا كنا في يوم ١٣ مايو (ايار) وخير تحسنت حالات الآلات فقال انه سينزل في قرية بن شيمون اليهودية ثم اكمل الرحلة الى تل ابيب . وهكذا حضرت الاحتفالات . ولم يتمكن جرونوم من التوقيع على اعلان الاستقلال الا بعد اربعة الاولي .

وفي صباح ١٤ مايو (آيار) شاركت في اجتماع للمجلس القومي لاختيار اسم الدولة ووضع الصيغة النهائية للاعلان وفي آخر لحظة دارت مناقشة حول الاسم تريد ايراد اشارة للرب . وكانت آخر جملة ، كما عهد بها الى اللجنة الفرعية المكلفة بصياغة النص النهائي ، تبدأ بالكلمات التالية ، « نحن نثق في صخرة اسرائيل ، ونضم ايدينا شهودا على هذا الاعلان ... » وكان بن جوريون يرى ان هذا النص من الابهام بحيث يرضى اليهود الذين لا يتصورون اعلان قيام اسرائيل دون اشارة للرب ، واولئك الذين يعارضون بشدة اية اشارة كهنوتيه في الاعلان .

لكنه لم يكن من السهل القبول بهذا الحل الوسط . فقد طالب المتحدث باسم الاحزاب الدينية ، الحاخام فيشمان ميمون ، بأن تكون الاشارة الى الرب واضحة لا لبس فيها وأنه يوافق فقط على « صخرة اسرائيل » اذا ما اضيفت اليها « ومخلصها » . في حين وقف اعارون زيسلنج من الجناح اليسارى في حزب العمال في الاتجاه المعاكس قائلاً « لا استطيع أن اوقع على وثيقة تشير الى الرب الذي لا اؤمن به » . وقضى بن جورين الصباح بطوله وهو يحاول اقناع ميمون وزيسلنج بأن « صخرة اسرائيل » تحتل معنيين ، فهي في الوقت الذي تحمل فيه معنى « الرب » للكثير من اليهود ، فإنها يمكن ان تعتبر اشارة رمزية علمانية الى « قوة الشعب اليهودي » . وفي النهاية وافق ميمون على حذف « المخلص » من النص ، والمضحك ان اول ترجمة انجليزية للاعلان اعدت للنشر بالخارج في نفس اليوم ، لم تتضمن اية اشارة الى « صخرة اسرائيل » اذ ان الرقيب العسكري حذف الفقرة الاخيرة بأكملها كاجراء امني ، لانها ذكرت تاريخ ومكان الاحتفال .

ولم تكن المناقشة بالامر الذي كان متوقعا ان يستغرق وقت رجل

سيصبح بعد قليل رئيسا لوزراء دولة تتعرض للغزو . لكن الخلاف لم يكن على الالفاظ ، فقد كنا مهتمين بأن يتضمن البيان المبادئ الاساسية لدولة اسرائيل . ولذا كنا ندقق في كل كلمة . بل ان صديقى العزيز زئيف شريف (الذى اصبح اول سكرتير للحكومة وارسى اسس الإدارة الحكومية) حرص على ان يهرع بالوثائق التى كنا سنوقعها الى خزائن المصرف الانجلو - فلسطينى عقب الاحتفال لكى تحفظ هناك للاجيال القادمة ، حتى ولو لم نعش نحن أو الدولة طويلا .

وفي نحو الثانية بعد الظهر ذهبت الى الفندق حيث غسلت شعرى وارتديت افخر ملابسى السوداء . ثم جلست قليلا لكى التقط انفاسى ولكى افكر .. لأول مرة خلال الايام الثلاثة الماضية .. في الاولاد . كان مناحيم انثذ في الولايات المتحدة الامريكية طالبا في مدرسة ما نهاتن الموسيقية ، ولم يكن هناك شك في انه سيعود مع اندلاع الحرب ، لكن من ذا الذى يعلم متى وأين سنتقابل . اما سارة فكانت في رقيشيم في النقب . وكان العرب الفلسطينيون والمتسللون المصريون قد اغلقوا ، منذ عدة اشهر ، الطريق الوحيد المؤدى الى النقب ، واخذوا ينسفون الانابيب التى كانت تنقل الماء الى المستوطنات السبع والعشرين المتناثرة في صحراء النقب . وكانت الهاجاناه قد نجحت في شق طريق مواز لهذا الطريق كانت تنقل منه بين الحين والآخر امدادات الماء والطعام لكسر الحصار . لكن من ذا الذى يعلم ماذا سيحدث لهذه المستوطنات العزلاء المجردة من السلاح في مواجهة الغزو المصرى المتوقع خلال عدة ايام ! وكانت ساره وصديقها زكريا يعملان على اللاسلكى ، حيث كنا على اتصال ، لكننى لم اكن قد سمعت منهما شيئا منذ عدة أيام .. وسيطر القلق على نفسى .

وجاءت سيارة لاصطحابي الى موقع الاحتفال الذى تقرر ان يقام في متحف تل ابيب في شارع روتشيلد . وكان المتحف بيتا من اقدم مباني تل ابيب ، اوصى صاحبه - وهو اول عمدة لتل ابيب - بأن يؤول للشعب اليهودى كمتحف . واختير المكان بالذات لكون حراسته امرا سهلا . وتم تنظيفه ، واسدلت الستائر السوداء على النوافذ خشية تعرض المبنى لغارة جوية ، ووضعت صورة كبيرة لثيودور هرتزل خلف المائدة التى سيجلس عليها الثلاثة عشر عضوا في الحكومة المؤقتة . ورغم ان احدا لم يكن يعرف بالموضوع ، فيما عدا المائتى مدعو ، فقد وجدت حشودا كبيرة تنتظر خارج المتحف عند وصولي .

وفي تمام الساعة الرابعة بعد الظهر بدأ الاحتفال . فوقف بن جوريون ، مرتديا حلة سوداء ورباط عنق ، ودق بالمطرقة . وكانت تلك هى الاشارة لكى تعزف فرقة الموسيقى ، في الطابق الثانى . نشيد « الهاتيكفاه » . لكن خطأ ما حدث . فلم تعزف الموسيقى . وعلى الفور وقفنا وانشدنا نشيدنا الوطنى . ثم تنحى بن جوريون وقال : سأقرأ الآن وثيقة الاستقلال . واستغرق الامر منه ربع ساعة لتلاوة الاعلان وكان يقرأ ببطء وبوضوح تام . واتذكر جيدا كيف علا صوته عندما وصل الى الفقرة الحادية عشرة التى اعلن فيها قيام الدولة اليهودية على ارض اسرائيل - دولة اسرائيل .

واغرورقت عيناى بالدموع وارتعشت يداى ، فهذه هى دولة اسرائيل . لقد عملناها وضمننا دولة اسرائيل . وانا جولدا مابوفيتش مايرسون ، قد عشت لارى هذا اليوم . ولا يهم الثمن الذى قد يدفعه اى منا ، فلقد اعدنا خلق الوطن القومى اليهودى . ومنذ خمسين عاما تقريرا ، وفي ختام المؤتمر الصهيونى الاول في بازل ، كتب ثيودور هرتزل في مفكرته يقول « في بازل اسست الدولة اليهودية . ولو اننى

قلت ذلك اليوم ، لقوبلت بالضحكات . لكنه ربما في خمسة اعوام .
وبالتأكيد في خمسين سنة ، سوف يراها كل فرد » . وهكذا تحققت
الامور بالضبط .

وكأنما تلقينا اشارة ، فوقفنا جميعا نصفق ونهتف ونحن نستمع الى
بن جوريون يقول « ستكون دولة اسرائيل مفتوحة للهجرة اليهودية
وتجميع المنفيين » . كان هذا هو لب الاعلان ، وسبب قيام الدولة ،
بل والهدف . ودق بن جوريون مطرقته دعوة للنظام ، ومضى يقرأ
« حتى في وسط الهجمات العنيفة التي تشن علينا طوال الاشهر
الماضية ، فنحن ندعو ابناء الشعب العربى المقيمين في اسرائيل الى حفظ
السلام وان يلعبوا دورهم في بناء الدولة على اساس من المواطنة الكاملة
والمساوية والتمثيل الواجب في كل مؤسساتها ، المؤقتة والدائمة » .

و « اننا لنمد يدنا بالسلام وحسن الجوار الى كل الدول المحيطة
بنا والى شعوبها ، وندعوهم الى العمل في منفعة متبادلة مع الامة
اليهودية المستقلة في أرضها . ان دولة اسرائيل مستعدة لتقديم مساهمتها
في جهد مركز من أجل تقدم الشرق الاوسط بأسره »

وعندما انتهى بن جوريون من تلاوة ال ٩٧٩ كلمة عبرية التي
تكون الاعلان ، دعانا الى الوقوف والموافقة عليه . ووقفنا ثانية . وحدث
شئ لم يكن مقررا اذ وقف الحاخام فيشمان ميمون وتلا صلاة الشكر
التقليدية بالعبرية . وقبل ان نوقع الوثيقة وفق الترتيب الابدى ، تلا
بن جوريون أول مراسيم الدولة الجديدة . فتم اعلان الغاء الكتاب
الابيض ، وتفاديا لحدوث فراغ قانونى تم اعلان سريان بقية احكام
ونظم الانتداب بشكل مؤقت .

وبدا التوقيع . ولمحت اثناء تقدم طابور الموقعين آداجولومب وتمنيت لو اخذت بيدها لا قول لها ان الياهو ودوف كانا يجب ان يحلا محلى في هذا الاحتفال . وتقدمت لاقوع الوثيقة بين بن جوريون وشاريت في وسط المائدة . وانا ابكى بصوت عال غير قادرة حتى على تجفيف دموعى . ولم يوقع الوثيقة من مجلس الشعب سوى خمس وعشرين عضوا يوم ١٤ مايو (ايار) . وكان هناك احد عشر عضوا في القدس وعضو في الولايات المتحدة الامريكية .

وبعد ان عزفت اوركسترا فلسطين الفيلهارموني نشيد « الهايتيكفاه » دق بن جوريون المطرقة للمرة الثالثة قائلا « قامت دولة اسرائيل . انتهى هذا الاجتماع » . ووقفنا نتبادل القبل . وانتهى الاجتماع . واصبحت اسرائيل حقيقة .

وفي الفندق شربنا كأسا من النبيذ في نخب الدولة . وكان الناس يغنون ويرقصون . اما انا فلم اكن فقط مكتئبة بل خائفة ايضا . كنا الآن دولة مستقلة لكننا سندخل الحرب بعد ساعات . كنا نعرف ان الانتداب سينتهى مع حلول منتصف الليل وسوف يبحر المفوض السامى البريطانى ويرحل آخر جندى بريطانى عن فلسطين . لكننا كنا نعرف ايضا ان الجيوش العربية سوف تعبر حدود الدولة الجديدة . وكنت اعرف ان احدا لن يزحزحنا او يشردنا مرة ثانية .

وفي فجر اليوم التالى ادركت ان الامور لن تعود الى ما كانت عليه . لا بالنسبة لى . ولا بالنسبة للشعب اليهودى . ولا بالنسبة للشرق الاوسط . وشاهدت في السماء اربع طائرات مصرية طراز سبيتفاير تتر في السماء في طريقها الى تل ابيب لنسف محطة الكهرباء فيها . وكانت تلك هى اول غارة جوية في الحرب . وبعد قليل وقفت اشاهد اول المهاجرين (الذين لم يعودوا غير قانونيين) وهم يدخلون

ميناء تل ابيب احرارا . لم يعد هناك من يتعقبهم . ولم تعد هناك شهادات . وكان اول مهاجر قانونى يصل الى دولة اسرائيل رجل عجوز يدعى صمويل براند الذى نجا من معسكر بوخنوالد ، حاملا في يده ورقة صادرة عن دائرة الهجرة في الدولة تقول « بمقتضى هذا تم منح حق الاستيطان في اسرائيل » . وكانت تلك هى أول تأشيرة دخول نصدها .

وبعد عدة دقائق عقب منتصف ليلة ١٤ مايو (آيار) تلقيت مكالمة سمعت فيها من يقول لى « يا جولدا - لقد اعترف بنا ترومان » . لا اذكر ما قلته او فعلته . لكنى اذكر ما شعرت به وهو ان المعجزة قد وقعت . وفي وقت عصيب . عشية الغزو .. واحسست بالفرح والراحة . لكن اعتراف امريكا كان يعنى بالنسبة لى بالذات اكثر مما يعنيه لكل زملائى . فقد كنت انا « الامريكية » الوحيدة فينا . التى تربت في احضان هذه الديمقراطية الرائعة . ودهشت - كغبرى - للسرعة التى تم بها الاعتراف . وللنبض الدافق الذى نتج عنه وقد اثمرت هذه المعجزة نتيجة امرين ، أولهما شخصية هارى ترومان الذى فهم واحترم مسيرتنا من اجل الاستقلال . وثانيهما الانطباع الذى خلفه لديه حاييم وايزمان عندما قابله في واشنطن .. ذلك الرجل الذى شرح قضيتنا ودافع عنها بشكل لم يحدث من قبل في البيت الابيض . ولم يكن ممكنا تقدير قيمة العمل الذى قام به وايزمان . اما الاعتراف الامريكى فكان اضخم شىء يمكن ان يحدث لنا في تلك الليلة .

اما الاعتراف الروسى . الذى اعقب الاعتراف الامريكى . فكانت له جذور اخرى . لاشك عندى الآن ان الاعتبار الأول لدى السوفيت كان اخراج البريطانيين من الشرق الاوسط . لكننى ادركت من خلال مناقشات الامم المتحدة في خريف ١٩٤٧ . ان الكتلة السوفيتية تؤيدنا

انطلاقاً من واقع العذاب الذى لاقته روسيا خلال الحرب ، والماسى التى تعرض لها اليهود بحيث استحقوا دولة خاصة بهم . لكننى لا استطيع ان أغير الحقيقة التى عشتها ، وهى انه لولا الاسلحة التى استطعنا شراءها فى تشيكوسلوفاكيا فى بداية الحرب ونقلناها عبر يوغوسلافيا وغيرها من دول البلقان فى تلك الايام السوداء لما كنا قد صمدنا الى ان يتغير التيار كما حدث فى شهر يونيو (حزيران) ١٩٤٨ . وقد اعتمدنا الى حد كبير (لأكلية) على المدافع والرصاص والقنابل بل والطائرات التى استطاعت الهاجاناه شراءها من اوروبا الشرقية فى الوقت الذى اعلنت فيه حتى الولايات المتحدة الامريكية حظر مبيعات السلاح الى الشرق الاوسط . ولا يستطيع المرء ان يمحو التاريخ والمضى لمجرد انه يلائم الحاضر ، فبرغم ان الاتحاد السوفيتى قد انقلب علينا وضدنا بعدئذ . الا ان الاعتراف الروسى فى ١٨ مايو (آيار) كان ينطوى مع اهمية كبيرة لنا ، اذ كان يعنى ان الدولتين العظميين فى العالم قد اتفقتا على امر واحد ، لاول مرة منذ الحرب العالمية الثانية ، هو مساندة الدولة اليهودية .

وللتاريخ فإننى اذكر ثانى دولة عرضت علينا الاعتراف باسرائيل، فى اليوم الثانى لمولدها كانت جواتيمالا ، التى كان سفيرها لدى الامم المتحدة ، جورج جاريسا جرانادوس ، واحداً من انشط اعضاء اللجنة الخاصة للامم المتحدة لفلسطين .

وفى صباح يوم ١٥ مايو (آيار) تعرضت اسرائيل لهجوم عسكرى من جانب مصر جنوبا ، ومن لبنان وسوريا شمالا وفى الشمال الشرقى ، ومن جانب الاردنيين والعراقيين شرقا ، وكانت هناك اسباب لدى العرب للاعتقاد بأن اسرائيل سوف تسحق خلال عشرة ايام .

الغريب ان المصريين لم تكن لديهم اى مكاسب يحققونها . فبعد
الآن كان لديه اسباب للغزو . وهى انه كان يريد البلد بأسرها بما في
ذلك القدس . وكان السوريون واللبنانيون يبغون تقسيم الجليل فيما
بينهم . وكانت العراق تريد المشاركة في سفك الدماء والحصول - الى
جانب ذلك - على منفذ الى البحر الابيض المتوسط ولو عبر الاردن .
اما مصر فلم يكن لها من هدف بالمره اللهم الا نهب وتدمير كل
ما بناه اليهود . والواقع ان الدهشة ظلت تسيطر على ازاء تلك الرغبة
المحمومة لدى العرب للحرب ضدنا . والتفسير الوحيد الممكن عندى هو
انهم لا يتحملون وجودنا . ولا يسعنى الا ان اؤمن بأن جميع القادة
كانوا ومازالو يفكرون بطريقة بدائية .

ثم ما الذى فعلناه كتهديد للدول العربية ؟ صحيح اننا لم نوافق
على اعادة الاراضى التى ربحناها خلال الحروب التى بدأوها لكن
الارض ليست هى الشئ المهم لدى العرب . فماذا اذن ؟ هل هى رغبة
حارقة في تصفيتنا جسديا ؟ هل هو الخوف من التقدم الذى يمكننا ان
نقدمه في الشرق الاوسط ؟ هل هى كراهية الحضارة الغربية ؟ على
اية حال سيأتى اليوم الذى يقبلنا فيه العرب على ما نحن عليه .
وتحقيق السلام يعتمد على امر واحد . هو ان يقبل القادة العرب
وجودنا هنا .

وكان مفهوما في عام ١٩٤٨ ان العرب كانوا يرون من خلال خيالهم
الدافق انهم يستطيعون اختراق اسرائيل خلال ايام قلائل . وقد بدأوا
هم الحرب . وذلك اتاح لهم تفوقا تكتيكيا . ثم ان المداخل الى
فلسطين كانت مفتوحة امامهم . وفيها العرب الذين اثرت مشاعرهم
ضدنا . كذلك فإنهم يسيطرون على المواقع المرتفعة التى تتحكم في
مستوطناتنا . وكانت بريطانيا فوق ذلك تساعدهم بشكل ملحوظ .

اما نحن فلم يكن لدينا شيء بالمرة سوى عدة آلاف من البنادق والمدافع وتسع طائرات (احداها بمحركين) .

وكنا قد اشترينا معدات تصنيع السلاح - بفضل بن جوريون وبعد نظره - لكننا لم نكن نستطيع احضارها ثم تشغيلها الا بعد رحيل القوات البريطانية . وكان مجموع قواتنا قرابة ٤٠٠٠٠ره٤ في الهاجاناه ، وعدة آلاف في الجماعتين السريتين المنشقتين ، وعددا من المهاجرين الذين تلقوا تدريبا في معسكرات المانيا وقبرص ، ثم عدة متطوعين بعد الاستقلال من اليهود وغير اليهود . وازاء ذلك اعدنا ترتيب حساباتنا على اساس ان الـ ٦٥٠٠٠٠ نسمة ، مدفوعين بالرغبة في البقاء على قيد الحياة ، يجب ان تكون فرصتهم الوحيدة هي كسب الحرب . وقد كسبناها لكنها لم تكن حربا قصيرة ولم يكن الثمن الذى دفعناه زهيدا . فمذ صدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧ الى ان تم توقيع اتفاقية الهدنة الاولى بين اسرائيل ومصر في ٢٤ فبراير (شباط) ١٩٤٩ ، كنا قد خسرنا ٦٠٠٠ اسرائيلى راحوا قتلى ، اى ١٪ من اجمالى الشعب .

ويصعب على ان اصف اضطرارى للسفر خارج الدولة فور قيامها . ففى يوم الاحد ١٦ مايو (ايار) وردت برقية من هنرى مونتور نائب رئيس النداء اليهودى الموحد يصف فيها تأثير اليهود الامريكيين واحساسهم بالفخر ، وي طرح امكانية جمع ٥٠ مليون دولار اخرى في حالة عودتى للولايات المتحدة . وكنت اعرف معنى وقيمة هذه النقود ، ومدى احتياجنا للأسلحة التى قد نشترىها بها ، او ما قد يكلفه استيعاب ٣٠٠٠ مهاجر محشورين في معسكرات قبرص يريدون العودة الى اسرائيل . وبعد بحث الموضوع مع بن جوريون بعثت ببرقية تفيد اننى سوف اسافر على اول طائرة موجودة ، ولحسن الحظ فلم يكن

لدى شىء اعدده ، فجميع ملابسى فى القدس التى كان الوصول اليها صعبا صعوبة الوصول الى القمر ، وهكذا اخذت فرشاة الشعر وفرشاة الانسان فى حقيبتي ، وعندما وصلت الى نيويورك وجدت فيها الحجاب الذى ارتديته فى رحلتى الى عمان ، ثم اتصلت بابنتى سارة وابلغتها بالرحلة وبأبنى سأعود فى غضون شهر .

وظفت بكل ارجاء الولايات المتحدة اخطب فى اليهود الامريكيين مؤكدة لهم ان اموالهم هى التى ستجعل اسرائيل قادرة على البقاء على قيد الحياة . كانت الرحلة فى هذه المرة تشبه الرحلة السابقة ، لكنى كنت احمل الآن جنسية مختلفة على وثيقة سماح بالمرور كانت اول وثيقة سفر تصدرها الدولة ، بل ان اساييع مضت قبل ان تعتاد اذناى على كلمة « اسرائيل » . وتحدثت عشرات المرات فى لقاءات عامة وخاصة داعية اليهود الى تحمل مسؤولياتهم معنا الى ان تقف اسرائيل على قدميها .

وسرعان ما تجاوز مع الجميع واستطعنا جمع ١٥٠ مليون دولار تم تحويل نصفها لصالح اسرائيل (والنصف الثانى الى لجنة التوزيع المشتركة لمساعدة يهود اوروبا) ، واذا كان نصف هذا المبلغ قد ساندنا على كسب الحرب ، فإنه قد علمنا ان ارتباط يهود الولايات المتحدة الامريكية باسرائيل حقيقة يمكن ان نضعها فى حسابنا على الدوام .

وقابلت خلال هذه الجولة السريعة رجالا اصبحوا فيما بعد « متحدثين بلسان » اسرائيل رغم انهم لم يشتركوا فى المجهود الصهيونى قبل عام ١٩٤٨ وساعدونى فيما بعد على انشاء منظمة سندات اسرائيل عام ١٩٥٠ . وكنت خلال رحلاتى السابقة اقضى كل وقتى مع الصهاينة العماليين ، اما بعد ١٩٤٨ فقد كان هناك يهود آخرون من المؤسرين ورجال الاعمال ، ومع كل هؤلاء كنت ابحث امكانية بيع

سندات لاسرائيل بنفس الاسلوب الذى كنا نجمع به التبرعات
الخيرية .

وكنت اتعجل العودة لاسرائيل ، وكنت على يقين من ان وزارة
الخارجية التى انشئت حديثا وموشى شاريت وزير الخارجية يعدان
لى شيئا آخر . وكان شاريت قد حدثنى قبل سفرى عن صعوبة ايجاد
العناصر البشرية اللازمة لتشغيل السفارات والقنصليات التى ستفتحها
اسرائيل سواء في العواصم التى اعترفت بنا او تلك التى ستعترف بنا
في غضون اسابيع . وعندما قال لى انه لا يوجد احد للذهاب الى
موسكو اجبته بقولى حمدا لله انك لم تعرضها على . وعندما قلت ان
لغتي الروسية قد انمحت ، قال لى ان ذلك ليس هو المهم . وبقي
الموضوع عالقا بذهنى ، وان تمنيت ان يكون شاريت قد نسيه .

وذاث يوم تلقيت اثناء جولتى برقية من تل ابيب . ونظرت الى
التوقيع اولا لكى اطمنن على ان شيئا لم يحدث لساره او مناحيم
(الذى كانت فرقته مشتبكة في الحرب فعلا) . وكانت البرقية بشأن
تعيينى في موسكو . واخذت افكر « لماذا انا ؟ » . هناك زملاء يمكنهم
ان يؤدوا هذه المهمة خيرا منى . ولماذا روسيا ، ذلك المكان البعيد
وتلك البلد التى لا احتفظ لها بذكرى سعيدة واحدة . ثم ما الذى
اعرفه او يهمنى عن الديبلوماسية ؟ كنت بلاشك اقل زملائى لياقة
للدبلوماسية . لكن الواجب طغى فوق كل هذه الاعتبارات . وهناك
النظام ايضا فمن انا لكى اعصى الاوامر . واجبت على برقية شاريت
بتأكيد وان كان بغير حماس . وعاهدت نفسى على ان ابرهن
لشاريت وبن جوريون انهما مخطئان . وفي نهاية الاسبوع الاول من
شهر يونيو (حزيران) تم اعلان تعيينى وزيرة لاسرائيل في
موسكو ...

وقررت الذهاب الى نيويورك لزيارة بعض الاصدقاء وقضاء ساعة او اثنتين معهم . ولكنى لم احصل الى منزلهم اذ اصطدمت سيارة بسيارة الاجرة التى اركبها . وعندما افقت وجدت ساقى قد كسرت ووضعت في جبيرة . واصبح عنوانى في الاسابيع القليلة التالية لا تل اييب ولا موسكو . بل مستشفى نيويورك للأمراض المشتركة ! ولم يكن هناك شيء ليقتينى في هذه المستشفى (بما فيها الالتهاب الوريدي وجلطات الدم التى أصبت بها) لولا ان القتال توقف في اسرائيل مؤقتا في ١١ يونيو (حزيران) .

في الحادى عشر من يونيو (حزيران) تم ايقاف الغزو العربى . كانت المحاولة الحصرية لغزو تل اييب والقدس قد فشلت . وكان الحى اليهودى في القدس القديمة قد سقط على يد الفيلق العربى الاردنى . ورغم ان انقدم السوريين في الشمال قد اوقف . فإنهم استمروا يحتفظون براس جسر على نهر الاردن . وظلت الامم المتحدة تحاول فرض هدنة . لكن العرب لم يهتموا . الى ان تبين لهم ان هزيمة اسرائيل لن تحدث فوافقوا على وقف اطلاق النار . وعلى الهدنة الاولى التى مكنتنا من تجميع قوانا والتخطيط للهجوم الكبير الذى تم في يوليو (تموز) وقضى على آخر تهديد لتل اييب والساحل وفك الحصار عن القدس ودمر القواعد العربية في الجليل .

وبقيت في المستشفى اعانى من ضغط رهيب . كان هناك الصحفيون وعدسات التلفزيون .. وقد كنت بالنسبة اليهم ضربة صحفية .. فأنا لست فقط سيدة سفيرة في موسكو . بل انا وزيرة لهذه الدولة الصغيرة هناك . اما الضغط الاسوأ فكان الذى تعرضت له للذهاب الى موسكو . وانهالت البرقيات من تل اييب . في الوقت الذى راجت فيه شائعات بأن مرضى « سياسى » وكان هذه الحملة لم تكن

كافية ، فظهرت علامات على ان الاتحاد السوفيتى يشعر بالضييق من « تمارضى » الذى كان « بالفعل » تاكتيكا يهدف الى تبادل السفراء مع روسيا الى ان يصل السفير الأمريكى الى اسرائيل ليكون عميدا للسلك السياسى ؛ وكان على ان اضع كل ذلك في اعتبارى بغض النظر عن حالتى الصحية . وارتكبت اكبر خطأ عندما الححت على اطبائى للسماح لى بالخروج ، فلو بقيت عدة اسابيع لكنت قد وفرت على نفسى متاعب جمة وعمليات جراحية . وكان ذلك هو احد العقوبات التى ينالها الموظف الرسمى . اذ كنت مقتنعة بأن كارثة رهيبة سوف تحدث اذا لم اتوجه الى موسكو .

وحاولت بعد عودتى الى اسرائيل ان اثنى شاريت ، لكن دون جدوى . وحكى لى ايهود آقرييل ، رجل الهاجاناه الذى استطاع تأمين السلاح لنا من تشيكوسلوفاكيا واصبح اول سفير لاسرائيل في براغ ، أن السفير السوفيتى قابله في احدى الحفلات وقال له ان سفير اسرائيل لدى موسكو ليس ضروريا ان يجيد الروسية او ان يكون خبيرا بالماركسية واللينينية . وبعد قليل التفت اليه وسأله « بالمناسبة - ما اخبار مسز مايرسون ؟ هل ستبقى في اسرائيل ام ان لديها خططا اخرى ؟ » وفهمنا جميعا - بما فينا شاريت - ان الروس يسألون عنى بطريقتهم . وعندئذ تبدلت مشاعرى .

وكان من بين الامور السارة ، والتى سببت لى الشعور بالتأثر والامتنان ، اثناء وجودى في المستشفى ، تلك البرقية التى وردت من تل ابيب تسألنى « هل تمانعين في ان تعمل ساره وزكريا على اللاسلكى في سفارة موسكو ؟ » . وعندما عدت الى تل ابيب اتفقت مع اختى شينا على ان نقيم حفلا عائليا بسيطا لزواج ساره وزكريا في المنزل الذى كانت شينا وشاماي قد اشترياه منذ عدة سنوات . وكان

ابى قد توفى عام ١٩٤٣ . وهو من الشخصيات العزيزة لى والتى لم
تر مولد الدولة . اما امى فكانت مقعدة . كلية البصر . غائبة ذهن .
لكن موريس كان موجودا بنفس رفته المعهودة واعترازه . كذلك كان
هناك والدا زكريا . وكان ابوه قد هاجر من اليمن الى فلسطين ابان
حكم الاتراك لها .

واخذت افكر في نوع التمثيل الدبلوماسى الذى يجب ان نواجه به
العالم بشكل عام وروسيا بشكل خاص . فاسرائيل فقيرة وما زالت
تعارب وحكومتها مؤقتة (جرت اول انتخابات للكنيست في يناير
(كانون الثانى ١٩٤٩) وتمثل اغليبتها حركة العمال . ولم تكن لدينا
اية موارد او ثروات ومازال مئات الالاف من المهاجرين يتدفقون اليها
بحثا عن حياة جديدة . اذا فليكن تمثيلنا صورة لما نحن عليه وكان
علينا ان نلتزم بالتقشف والتواضع . اما الترفيه المسرف والمساكن
الواسعة والاستهلاك الكبير فأشياء ليست لنا .

وقررت ان تكون الحياة في البعثة في موسكو كحياة الكيوتز في
كل شىء . وكان عددنا ٢٦ شخصا بما فيهم انا وساره وزكريا
ومستشار البعثة موردخاى نامير الذى كان ارملا واحضر ابنته يائيل
معه (بعد ذلك عمل نامير سفيرا في موسكو ثم وزيرا للعمل وعمدة لتل
اييب لعشرة اعوام) . واخترت ايجاشايرو . وهى امرأة جذابة
لتكون مساعدة لى .

ولم تكن ملابسى تمثل مشكلة . وان بقيت اسفة لعدم وجود زى
وطنى لنا يحل مشكلة الثياب بالنسبة لى مثلما كانت المرأة الوحيدة
في موسكو - وهى الدبلوماسية مسز بانديت - ترتدى السارى في كل
الحفلات والمناسبات . واخيرا وافقت ايجا على أن ارتدى فستانا طويلا
اسود اللون عند تقديم اوراق اعتمادى . وان ارتدى معه قبعة من

القطيفة عن الضرورة . وتولت ايضا شراء اثاث السفارة من اسكندنافيا . ونظرا لان اللغة الفرنسية أصبحت هى اللغة المعتمدة في الدبلوماسية الاسرائيلية ، فقد احتجنا الى من يجيدها ، ووجدنا فتاة لطيفة ، رفيعة القوام ، تدعى لوكوار ، من مواليد باريس وكانت قد اصببت بجروح خلال حصار القدس ، واصبحت لو صديقة حميمة ، ومساعدة لاغنى لى عنها . بل ورفيقة في كل اسفارى طوال العشرين عاما التالية .

وبقيت في اسرائيل فترة استقبلت فيها سفير الولايات المتحدة جيمس ماكدونالد وسفير الاتحاد السوفيتى بافيل بيرشوف . ونظرا لازمة المساكن في تل ابيب ، فقد اقام السفيران في نفس الفندق الذى ارتفعت على طرف سطحه النجوم والخطوط ، والمطربة والسندان على طرفه الآخر . ولم يخل الامر من « حوادث » كالتى وقعت في احدى الحفلات عندما عزفت الموسيقى السلام الوطنى الأمريكى ولم تعترف السلام الروسى ، فانسحب المستشار الروسى . ونجحنا في اقناع السفير الروسى بأنه لو كان موجودا لعزف السلام الروسى . كانت مثل هذه الامور البسيطة تحتل اهتماما كبيرا لدينا في تلك الايام . وكان شاريث - بطبعه - دقيقا وحساسا يهتم بأمور البروتوكول ، في الوقت الذى لم اكن اجد فيه ان الامر يستحق كل ذلك .

وفي ١٩ يوليو (تموز) بدأت الهدنة الثانية ، لكى تنطلق بعدها جولة طويلة ومؤلة عن المفاوضات حول النقب التى اوصى الكونت فولك برنادوت - وسيط الامم المتحدة السويدى - بتسليمها الى العرب واذا وضعنا في اعتبارنا انه كان مجرد حكم ، لوجدنا أن موقفه كان بعيدا عن الحياد ، وقد شعبيته كلية عندما اضاف الاهانة الى الجرح فأصر على ابعاد القدس عن الدولة اليهودية وعلى مراقبة الامم المتحدة

لواىء اسرائيل الجوية والبحرية . وبرهنت هذه النوصيات على ان
برادوت لم يسنوعب جيدا مغزى اسرائيل كدولة . وليست جريمة أن
يكون الانسان بلدا عبيا . لكننى ارتعبت . يوم ١٧ سبتمبر (الاول)
بعد اسبوعين فقط من وصولى الى موسكو - عندما علمت ان
برادوت قتل رميا بالرصاص فى واحد من شوارع القدس الهادئة (رغم
انه لم يتم التعرف على الذين اغتالوه فقد عرفنا انه سيقترص انهم
يهود) . وبدأ لى وكأى نهاية الدنيا قد حلت . وتميت لو اسرعت
بالسفر الى بلدى لأكون هناك خلال الازمة التى شبت . لكننى
كنت عندئذ قد ارتبطت كلبة والى حد كبير نوع اخر من الحياة .

المعادية للسامية ، والتي تطورت فيما بعد الى اضطهاد اليهود المثقفين
واتهامهم بالامبريالية .

وفي يوم السبت التالي لتقديم اوراق الاعتماد ، ذهبنا جميعا الى
المعبد الكبير (أما المعبدان الآخران فكانا مجرد مباني خشبية) . وهناك
وجدنا ١٠٠ أو ١٥٠ من اليهود الطاعنين في السن . وفي نهاية الصلاة تلى
الحاخام دعوات لرؤساء الدولة ، ولى . وكنت اجلس في غرفة
النساء (في المعابد يجلس الرجال والنساء منفصلين) . ثم تبادلت
الحديث مع الحاخام لعدة دقائق .

وبعد ذلك بعدة اسابيع اقتربت « روش هاشانا » رأس السنة
المعبرية . وقيل لى أن يهودا كثيرين يذهبون الى المعبد في هذه المناسبة .
وقبل أن يحل موعدها بعدة أيام ظهرت جريدة البرافدا وفيها مقال
كتبه ايليا اهرنبورج - الصحفى والداعية السوفيتي ، وهو يهودي - قال
فيه انه لولا ستالين لما ظهر شيء اسمه الدولة اليهودية ، واضاف انه
يجب أن يكون مفهوما أن دولة اسرائيل لا علاقة لها بيهود الاتحاد
السوفيتي ، فهنا في روسيا لا توجد لهم مشكلة يهودية ، أما هناك في
الدول الرأسمالية فمجال عملها حيث معاداة السامية وغيره . وهكذا فهم
يهود الاتحاد السوفيتي يومها ان المقصود من هذه المقالة تحذيرهم من
الاتصال بنا .

ومع ذلك ذهبت وكل اعضاء البعثة الى المعبد يوم الاحتفال
ففوجئنا بوجود ما يقارب ٥٠,٠٠٠ يهودي وقد احتشدوا في الشارع ، ثم
حملوني حتى المدخل . وفي غرفة النساء كانت النسوة يأتين ليتحسسن
ردائى أو يقبلنه . وهكذا اثبت يهود الاتحاد السوفيتي رغبتهم في
المساهمة في معجزة انشاء دولة اسرائيل ، وكنت انا رمز هذه الدولة .
وانتهت الصلاة وبصعوبة بالغة شققت طريقي وسط هذا البحر من

البشر . ولم اتمالك نفسي من التعجب ، كيف يقول أهرنبورج انه
لس في روسيا ما يسمى بالشعب اليهودي أو ان اسرائيل لا تعني شيئا
للهود روسيا ١٩

ورغم ان ركوب المواصلات محظور عندنا يوم السبت وفي الاعياد .
فقد دفعني بعضهم الى سيارة اجرة شقت طريقها بصعوبة وسط
الحشود الهاتفة . وعدنا الى الفندق جميعا . وبقينا ساعات لا تتبادل
كلمة واحدة يلفنا مزيج من العواطف والاحاسيس . ولم اكن اتصور
اننى سأقابل كثيرا من الذين رأيتهم في روسيا بعد عشرين عاما في
اسرائيل . لكننى على يقين أن روسيا بكل قوتها فشلت في تحطيم
روح اليهود .. والذين بقوا يهودا .

وبعد عشرة أيام على مرور رأس السنة . حل يوم الغفران « يوم
كيبور » . ومرة ثانية توجهت الى المعبد . لكننى بقيت هذه المرة طوال
اليوم مع اليهود . وعندما اختتم الحاخام الصلاة بقوله « الى اللقاء العام
القادم في القدس » تمت بصلاة خاصة دعوت فيها بأن يسمح الله
للهود الروس بالهجرة الينا سريعا . ومع ذلك فإننى لم اكن اتصور ان
ذلك سيحدث خلال حياتى .

واتيح لى بعد ذلك ان اقابل أهرنبورج في حفلة عيد الاستقلال في
السفارة التشيكية . وقدمه الى احد المراسلين الاجانب . فوجدته -
كالعادة - يترنح من أثر الخمر ، وعدوانيا منذ البداية . وبدأ حديثه
باللغة الروسية فأجبتة بأننى لا أستطيع التحدث بالروسية . فقال لى
« اننى اكره اليهود من مواليد روسيا الذين يتكلمون بالانجليزية »
فرددت عليه بقولى « انا أسفة لليهود الذين لا يتكلمون العبرية أو على
الأقل اللييدش » .

ودعينا لحضور ذكرى الثورة الروسية . حيث صافحنا مولوتوف وزير الخارجية ، وزوجته ايقي مولوتوف ، التي انتحت بي جانبا وتبادلنا حديثا وديا للغاية فاجأتني خلاله بابلأغي انها يهودية . بل وتحدثت معي بالبيديش . وتطرق بنا الحديث الى موضوع النقب ، التي كان النقاش يدور حولها آنئذ في الأمم المتحدة . وعندما ابلغتها ان ابنتي سارة كانت تعيش فيها ، طلبت مني ايقي أن اقدمها اليها حيث تبادلت حديثا مطولا معها عن الحياة في الكيبوتز . ودهشت ايقي عندما سمعت عن الحياة الجماعية في رقيشيم قالت لسارة « ان الناس يكرهون المشاركة في كل شيء حتى ستالين يكره ذلك » . ويجب أن تقرئي كتابات ستالين حول هذا الموضوع » .

ولم ار ايقي مولوتوف بعد ذلك اطلاقا . لكنني بعد عدة سنوات اجتمعت مع مراسل اليوناييتد برس المخضرم في موسكو ، هنري شابيرو ، الذي أبلغني ان ايقي قد اعتقلت بعد محادثتها معنا . وعادت الى ذاكرتي صورة الاحتفال في ذلك اليوم ، صباحا ، عندما كنا نشاهد العرض العسكري ، وتملكني الحسد للسوفييت على كل هذه الاسلحة التي لا نملك جزءا منها . وكأنما قرأ مولوتوف ما يدور بذهني فالتفت الى ، رافعا نخبه ، قائلا « لا تظني اننا حصلنا على ذلك كله في يوم واحد . وسيحين الوقت الذي تمتلكون انتم ايضا فيه مثل هذه الأشياء » .

وبدا في يناير (كانون الثاني) ١٩٤٩ ان يهود الاتحاد السوفيتي سوف يدفعون ثمنا غاليا لما اظهروه من تقرب لاسرائيل والاسرائيليين ، بغض النظر عن مدى ايمان أى شخص بالخط الشيوعي والتزامه به . فقد اعتبروا « خونة » للمبادئ الشيوعية . وهكذا لم تبق ، خلال

خمسـة اشهر . منظمة يهودية واحدة في روسيا . وهكذا تم اقضاء اليهود
عـمـها .

واخذت اقوم بزيارات المجاملة لرؤساء البعثات الأخرى . وأخيرا
منحنا مقرا في فيلا تتكون من دورين وبها ساحة واسعة تضم عدة مبان
تصلح للسكن . وهكذا ذهبت ايجا الى ستوكهولم فاشترت كل الاثاث
الارام بالاسعار التي كنا نستطيع دفعها ، كما اشترت لنا ملابس ثقيلة
ومأكولات محفوظة .

وفمت بزيارتين لاسرائيل خلال الأشهر السبعة التي قضيتها في
موسكو . وكنت في كل مرة أشعر كأني اهبط من كوكب آخر . بارد
تملؤه الشكوك والعداوة . وفي الزيارة الأولى - والتي كانت بعد
الانتخابات التي جرت في يناير (كانون الثاني) ١٩٤٩ - طلب مني
بن جوريون ان انضم الى الحكومة كوزير للعمل . وكان حزب
الماماي . اكبر احزاب اسرائيل ، قد فاز بأغلبية ٣٥ % من الأصوات
(وتلاه منافسه المابام الذي حصل على ٢٠ %) وتشكلت أول حكومة
من ائتلاف ضم الجبهة الدينية المتحدة . والحزب التقدمي (ويتكون في
غالبينه من اصحاب المهن من الطبقة المتوسطة الذين يوجههم الماباي
لكنهم ينكرون أى انتماء حزبي) والسفارديم (وهو حزب صغير
يمثل مصالح من يسمون باليهود الشرقيين) .

وعارضت الكتلة الدينية في بادئ الأمر وجود امرأة وزيرة . لكنها
قبلت الحجة التي تقول ان اسرائيل القديمة كانت فيها قاضية هي
ديبورا . وهو مركز يعادل ان لم يكن اهم بكثير من عضوية الوزارة .
وتجددت معارضة الكتلة الدينية في الخمسينيات عندما عرض على
محبس عمدة تل أبيب . وغمرتني الفرحة باقتراح بن جوريون .

فأخيرا سأكون حيث أريد وسأعمل ما احبه وما اشعر انى مؤهلة له .
صحيح ان احدا لم يكن يعرف اختصاصات وزارة العمل على وجه
التحديد ، لكن ما اسعدني فيها انها ستعالج موضوع تشغيل واسكان
آلاف المهاجرين الوافدين . وبدون ادنى تردد . ابلغت بن جوريون
موافقتي . ولا شك ان السنوات السبع التي قضيتها في وزارة العمل
كانت اسعد ايام حياتي .

وعدت الى موسكو قبل تسلم عملي . وشعرت بالذنب لأنني سأترك
زملائي وسارة وزكريا في موسكو . وبدأت حفلات الوداع لمن تعرفت
عليهم ، وخاصة من المسؤولين السوفيت الذين تعودنا ألا نسمع منهم ردا
ايجابيا - أو ردا بالمرّة - على ما تقدمه من طلبات او استفسارات
وتمنيت ان اودع يهود روسيا ، بل ان اقول لهم الى اللقاء ، لكن احدا
منهم لم يعد يأتي الى البعثة أو الى المعبد .

وعدت الى اسرائيل في ٣٠ ابريل (نيسان / ١٩٤٩ . كانت اسرائيل
آنئذ تمر بفترة عصيبة .. اذ كانت حرب الاستقلال قد انتهت (عند
هذا الحد ' وتم توقيع اتفاقيات الهدنة - وهي ليست معاهدات سلام -
مع كل من مصر ولبنان والاردن وسوريا ولم يكن معنى ذلك ان
العرب قد اقلعوا عن فكرة الحرب ، اذ انهم استبدلوا الحرب العسكرية
بالحرب الاقتصادية ، فأصبحوا يقاطعون كل المؤسسات والافراد الذين
يتعاملون مع اسرائيل ، واغلقوا في وجهها الملاحة في قناة السويس .

ولم تتوقف الحرب وقتل اليهود . فقد استمرت اعمال التسلل وقيام
العصابات العربية بحرق المزارع ونهب الماشية . وكان حريا بنا ان
نرد على هذه الهجمات او ننتقم منها ، لولا ان شغلنا الشاغل جميعا
كان ايجاد الطعام والسكن والعمل لـ ٦٨٤,٢٠١ من اليهود الذين تدفقوا

على اللاد فيما بين ١٤ مايو (أيار / ١٩٤٨ ونهاية عام ١٩٥١ . واكتفينا في مواجهة هذه الهجمات بتقديم الشكاوى الى الأمم المتحدة لعلها تفعل شيئاً بحددها .

ولم يكن هذا الفيضان من البشر يشبه ايا من الموجات السابقة للهجرة ... فلاهم اقوياء البنية .. مصممون .. كالمهاجرين الذين جئت بينهم انا وشينا . ولاهم من اصحاب الحرف والتجار الذين ساهموا في اردهار البلد فور وصولهم في الثلاثينيات . كانوا معمدن بالمرّة . فيهود اوروبا اصابتهم محن شديدة ، ويهود الشرق الاوسط وشمال افريقيا لم يكن لديهم أى قدر من التعليم .. ومرضى . كانوا باختصار فيضانا من اليهود جاءوا من كل اطراف الأرض يتحدثون لغات مختلفة ، ولا يعرف احدهم شيئاً عن الآخر . ولم يكن هناك ما يجمع بينهم سوى انهم يهود .

جاء اليهود بعشرات الآلاف من كل بلاد اوروبا الشرقية وبعض الدول العربية ، لكن ابرر هذه الهجرات كانت محمولة على الجبر الجوى الذي نقل اليهود اليمنيين . وليس معروفا كيف ذهب اليهود الى اليمن . هل مع الملك سليمان أم مع القوات الرومانية في بداية العصر المسيحى المهم انهم عاشوا في اليمن فقراء معمدن . لكنهم كانوا على قدر من التعليم . اذ كانوا يعلمون اطفالهم العبرية .. ويدرسون التوراة . لكنهم اصبحوا سادة الحرف الدقيقة كالصياغة والمجوهرات والفضة . ومارال الانسان يرى ، ويشترى منهم في اسرائيل حتى الآن مشغولاتهم النادرة من الذهب والفضة .

وكننت عندما جئت الى فلسطين عام ١٩٢١ قد وجدت يهودا يمنيين جاءوا الى فلسطين عندما علموا بعودة النشاط الاستيطاني في فلسطين .

من موسى ياقنيل الذي حمل اليهم هذه الاخبار في اليمن عام ١٩٠٨ .
 وكانت اعداد منهم قد فرت الى عدن ومن هناك جاءت الى فلسطين .
 وبعد التصويت على التقسيم في الأمم المتحدة ، حدثت اضطرابات
 عربية واسعة النطاق في عدن وهكذا هرع الكثير من اليهود الى
 معسكرات الاستقبال التي اقامتها لهم لجنة التوزيع المشتركة في عدن
 وزودتها بالطباء ، بعد أن قطعوا الصحاري والغيافي . ونظرا لاجلاق
 قناة السويس أمام الملاحاة الاسرائيلية ، فلم يكن هناك سوى الجو ..
 واصبحت الطائرات تنقل ما بين ٦٠٠,٥٠٠ يهودي يمني كل يوم في
 نطاق العملية التي اسميت « عملية البساط السحري » . واستمر هذا
 الجسر حتى نهاية ١٩٤٩ ، حيث تم نقل ٤٨,٠٠٠ يهودي يمني الى
 اسرائيل .

وفي يوليو (تموز) ١٩٥٠ اصدر الكنيست قانون العودة الذي يعطي
 الحق لكل اليهود في الهجرة ويمنح الجنسية الاسرائيلية بشكل آلي الى
 كل المهاجرين . وعندما رجعت الى اسرائيل ، كان هناك ٢٠٠,٠٠٠
 يعيشون في الخيام ، وتضم كل خيمة عائلتين قد لا تكونان قط من
 نفس البلد بل من قارات مختلفة . ومن المؤكد ان الموقف كان قد تغير
 لو اننا اولينا هؤلاء المهاجرين رعاية افضل ووفرنا لهم سبل العمل
 والعيش بسرعة . على اية حال استطاع اطباؤنا القضاء على كل
 الأمراض التي جلبها المهاجرون معهم . اما الاسكان فقد بدا في عام
 ١٩٤٩ مشكلة غير قابلة للحل .

وكانت مواجهة هذه المشاكل امرا لا مفر منه ، مع وجودنا في حالة
 حرب مع جيراننا واضطرارنا الى رصد ميزانية عالية للدفاع . ولم يكن
 هناك من مخرج سوى التقشف وشد الأحزمة على البطون . وهكذا
 جعلنا كل شيء خاضعا لنظام البطاقات وكان حريا بالإسرائيليين

الذين انهكتهم الحرب أن يشوروا على ما يطلب منهم ، لكنهم لم يفعلوا ذلك . اما بالنسبة لى فقد حددت اولوياتي على أساس الاسكان والعمل ولم أكن اقبل أى تفسيرات يقدمها لى الخبراء عن خطورة نوع الاسكان الذي اقترحه على الاقتصاد وماقد يحدثه من تضخم . وبقيت على موقفى من حيث أن اسكان هؤلاء المهاجرين دعامة لمستقبل اسرائيل . وبعد عودتي من موسكو بقليل ، عرضت على الكينست خطة لانشاء ٣٠,٠٠٠ وحدة سكنية فوافق عليها . ولم اجد امامي بدا من أن اتوجه الى الولايات المتحدة لكي اطلب من اليهود الأمريكيين العون لا « لكسب حرب » بل « للحفاظ على حياة » . وقلت لهم انني حصلت على موافقة الكينست على المشروع لكنني لا أملك تقودا!! وانني بذلك كمن يضع توقيعا مزيفا على شيك ، لقد ارتكبت جريمة . وتركت لهم الخيار ، فإما ان يدعو هؤلاء الناس في الخيام ويرسلو اليهم لفافات الطعام ، أو أن يساعدوهم على بناء منازلهم ورد كرامتهم واعتبارهم . ولم نتمكن من الوفاء بالتزاماتنا في بناء الوحدات السكنية ، ففي اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٥٠ لم نكن قد انتهينا الا من بناء ثلث هذه الوحدات ، فضلا عن اخطاء التخطيط واختيار المواقع . واستخدمنا كل أنواع المأوي من الخيام الى الاكشاك المعدنية الى الاكشاك المصنوعة من القماش ، لكن المهم ان الجميع كانوا يجدون مكانا ينامون فيه . وتحتم علينا أن نغير من طبيعة هذه المعسكرات المؤقتة للاجئين الجدد ، لتصبح قرى للعمل تقع في ضواحي المدن لتتيح الفرصة لايحاد ايد عاملة . لكننا لم نستطع بالطبع ان نفرض ضرائب على اناس لا يملكون شروى نقير .

وسميت هذه المعسكرات الجديدة بالعبرية « معابروت » (معاير) . وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥١ كنا قد استطعنا

بناء ١١٢ معابروت تأوى ٢٢٧.٠٠٠ مهاجر . وكان كل همنا الا نخلق طبقتين من الاسرائيليين ، احدهما تضم قدماء الموجودين من قبل ، والأخرى تضم المهاجرين الجدد في معابرهم الكتيبة . وحرصنا على أن يحصل هؤلاء المهاجرون على مقابل مادي لعملهم . ولم اجد الا طريقة واحدة لتحقيق ذلك هي القيام ببرنامج للاشغال العامة . ولم يكن ذلك بالامر اليسير ، فجميع المهاجرين من اليهود الشرقيين كانوا لا يملكون اية مهارات أو حرف فنية وكنا نخشى أن يتعودوا على العيش على المعونات . وهكذا بدأنا برنامجا لتدريبهم ، مع برنامج لانشاء الطرق في كل انحاء البلد .

لكن المشكلة الملحة التي كانت - وما زالت - تشغل اذهاننا جميعا هي كيفية صهر هذا الشعب الذي اختلفت طبائع افراده . ورغم معارضة زملائي في مشروع شبكة الطرق ، فقد كنت اراها الحل الوحيد ، حيث كنا نجلب احد العمال المهرة ونوكل اليه رئاسة فريق من عشرة أفراد ، ثم نتركه يحل مشاكل الافراد العشرة الذين يتحدثون عشر لغات . وكنت اعتمد كلية على كرم يهود العالم الذين استجابوا باستمرار لمطالبنا المتكررة .

وبدأت الهجرة من الخارج تتضاءل ، الى معدل ١٠٠٠ مهاجر كل يوم . وعندئذ شرعنا في نقل المهاجرين من المعابر الى قرى الحدود ومناطق التنمية ، مع التركيز على الفلاحة والعمل الزراعي وتزويد المهاجرين بلوازم الفلاحة والمواشي . لكن الحياة في هذه القرى وصلت الى حد الاستحالة بالنسبة لسكانها الذين اختلفت طبائعهم كلية ، بل ان البعض منهم هاجر الى المدن وعاشوا في العيش والاحياء الفقيرة . أما المصاعب الحقيقية فكانت مع اليهود اليمنيين الذي كانوا - كما قيل لى دائما - لا يستطيعون العيش في المساكن التي نبنيها لهم ، فهم

لا يعرفون شيئا عن الحمام أو المطبخ أو الدش . ومع ذلك فقد اتاحت لهم هذه الأمور ، لكننا بقينا دائما في حاجة الى المال لاتمام واجباتنا . وفكرت في أن اقوم بجولة اخرى لجمع التبرعات ، لكن حجم هذه التبرعات كان قد بدأ يضمحل . وكنت اخشى من أن يفتر حماس اليهود للتبرع ، او ان نبقى معتمدين كلية على هذه الهبات والمنح من الاموال . وهكذا بدأت أفكر في مصادر اخرى للتمويل تجعل اليهود شركاء في « المشروع الصهيوني » وفي « تجميع المنفيين » . وكنت ابادل الرسائل والبرقيات مع هنري مونتور ، بل واتحدث معه ومع اليغازر كابلان (أول وزير مالية في اسرائيل) حول نوع جديد من النشاط الاقتصادي في صورة اصدار سندات .

وقد طرحت فكرة سندات اسرائيل علنا لاول مرة خلال مؤتمر كان بن جوربون قد دعا اليه في القدس قادة الجماعات اليهودية في الولايات المتحدة . وأثيرت عدة استفسارات ، الن تتعارض السندات مع النداء اليهودي الموحد ؟ ماذا لو رفضتها الحكومة الأمريكية ؟ لكن الله ساق للسندات مدافعا اقوى منا جميعا هو هنري مورجنتاو ، وزير الخزانة الأمريكي السابق ، والذي كان رئيسا للنداء اليهودي الموحد . لقد فهم هذا الرجل جوهر السندات واقتنع بها ، بل واقتنع بها الرئيس ترومان في البيت الابيض . وعلى اثر ذلك انعقد مؤتمر آخر . في واشنطن هذه المرة ، وكلفت انا بالعمل على اقناع المعارضين وتحويل شكوكهم في المشروع الى دعم ومساندة له .

ولم أضيع وقتا في صياغة العبارات ، وطرحت الأمر بكل وضوح : نحن في اسرائيل محتاجون ، لكي نحيا ونزدهر ، الى مبلغ بليون ونصف بليون دولار خلال السنوات الثلاث المقبلة . ومطلوب من يهود

العالم جمع هذا المبلغ بالطرق المختلفة ، ومن بينها السندات . صحيح
 اننا نريد النداء اليهودي الموحد قويا ، وعن طريقه تأتينا الهبات ،
 لكننا في حاجة الى رأسمال استثماري ندفع مقابله فوائد . اقرضونا
 اموالكم واستردوها مع الفائدة . وليس هناك من ضمان اقدمه لكم
 سوى مئات الالاف من اليهود وابنائهم من كل انحاء العالم ، وهم
 يلتزمون برد هذا الدين اليكم مع فوائده .

وانطلقت أول حملة لبيع السندات في مايو (آيار) ١٩٥١ . ومن
 يومها وحتى الآن تم جمع ثلاثة بلايين من الدولارات مقابل بيع هذه
 السندات ، وتم تسديد بليون دولار منها . وقد ساهمت هذه السندات ،
 التي تدفقت على اسرائيل في صورة ميزانية للتنمية ، في ارساء دعائم
 الاقتصاد القومي للدولة .

وتلقت ذات يوم من أيام جولتي لجمع التبرعات في عام ١٩٥١ ،
 تلقيت برقية تبليغي أن موريس قد مات . وعدت الى اسرائيل على
 الفور لكي اشارك في تشييع جنازته ، والأفكار المتلاطمة تملأ رأسي
 حول شكل الحياة التي كان يمكن أن أعيشها معه لو اختلفت الأمور
 عما هي عليه . لم أكن مستعدة للحديث حتى مع أهلي عنه ، بل ولا
 للكتابة عنه الان ، وليس لدي ما أقوله سوى انني عندما وقفت الى
 جوار قبره ، ادركت أخيرا مدى فداحة الثمن الذي دفعته - وجعلت
 موريس يدفعه - في مقابل كل ما فعلته وانجزته خلال سنوات انفصالنا
 الطويل عن بعضنا .

كذلك كانت هناك انباء حمل سارة وولادة طفلتها ، ثم اشتداد
 المرض عليها . واذكر جيدا مدى لهفتي انا وذكريا عليها ، واسراعي الى
 ريقيشيم لكي اعودها في مرضها اثناء حملها للمرة الثانية ، والرغبة التي

تستبد بي ان اعود بها الى القدس لكي اعتني بها بنفسي . واخيرا ، وحتى لا تفشل مهمتي ، قررت ان اتركها تعيش حياتها كما تشاء ، دون أن تسيطر على مخاوفي وقلقي .

وكانت الشقة التي عشت فيها في القدس ، من أمتع فترات حياتي خلال عملي كوزير للعمل . ولم أكن اهتم بالمنزل في حد ذاته قدر اهتمامي بأن يكون المكان نظيفا ، مرتبا ، ومقبولا . وقد سكنت في عدة منازل منذ قيام الدولة ، كان آخرها ذلك المنزل في تل أبيب الذي يجاور منزل ابني مناحيم وزوجته ايا وابناءهما الثلاثة ، والطاهية ديزي التي كانت تحبني اكثر مما أحببتها . ولهذه الشقة في القدس قصة .

ففي نهاية عام ١٩٤٩ اصدر بن جوريون قرارا - يتفق مع طبيعته - يقضي بنقل مكاتب الحكومة من تل أبيب الى القدس . وفي القدس اقسام وايزمان القسم عند تولية رئاسه الدولة ، لكن احدا في العالم لا يدرك مدى ارتباط اليهود بالقدس ، مثلما يدرك اليهود - ارتباطهم بمدينة داود . وكانت لجنة بيل ولجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين قد اوصتا بألا تضم القدس الى أي من الدولتين العربية أو اليهودية . وقررت الجمعية العامة للأمم المتحدة تدويل القدس وادارتها بواسطة مجلس خاص وحاكم خاص ، على أن تتولى حراستها قوة من الشرطة الدولية ، بقصد حماية الأماكن المقدسة فيها واستتباب « النظام والسلام » فيها الى الأبد . وقد رفض العرب بالطبع فكرة التدويل بل والتقسيم ككل . اما نحن فقد قبلنا ذلك على أمل أن تنفذ الأمم المتحدة وعدها باجراء استفتاء بعد عشرة اعوام « يؤدي الى تعديلات معينة » ، مؤمنين بأن القدس في النهاية سوف تكون لنا خاصة وأن تعداد سكانها اليهود كان ١٠٠,٠٠٠ في مقابل ٦٥,٠٠٠ عربي فقط .

لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ووقعت القدس - التي احتلها الفيلق العربي - تحت مرمى النيران العربية . ومنع اليهود من الصلاة في سبيل القدس ومن البكاء عند حائط المبكى . ولم نجد أحدا يدافع عن حقوقنا في أماكننا المقدسة ، فلم يكن هناك بد من أن نمسك نحن بزمام الموقف ، دون أن ننتظر الاستفتاء ، بعد أن فرضت الحرب علينا .

ومع أن الأمم المتحدة أصدرت قرارا في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٩ بتحويل القدس إلى الفور ، فإن الشجاعة واتت بن جوريون ليقرر نقل الحكومة إليها قبل أن يتم تنفيذ هذا القرار . وقد ارتفعت اصوات داخل اسرائيل نفسها تحذر من مغبة هذا العمل ، وبقيت البعثات الدبلوماسية الاجنبية (وبالتالي وزارة الخارجية) في تل أبيب . اما وزارة العمل ، وغيرها من الوزارات ، فقد انتقلت الى القدس ، العاصمة .

ولم أكن على استعداد لأن أعيش في القدس في فندق ، فطلبت من زملائي أن يجدوا لي ولو غرفة واحدة مستقلة أعيش فيها . واخيرا عثرت على هذه الغرفة فوق سطح احد المنازل (من دورين) في حي الطالبية ، كانت القيادة البريطانية تستخدمه من قبل . وكان المنزل يحمل اسم فيلا هارون الرشيد !! وقررت على الفور الانتقال الى هذه الغرفة الى أن يتم بناء شقة فوق هذا السطح . واعترض الجميع ، فالغرفة صغيرة جدا بالنسبة للوزيرة ، وهي قريبة جدا من الحدود . وإن هي الا شهور حتى انتهى بناء الشقة الجميلة ، التي كنت احتمل كل متاعب النهار من أجل أن اعود إليها فأستلقي في شرفتها لامتع عيني بجمال القدس وهي تفتش التلال المنبسطة امامي . واقضى الساعات الطوال والسعادة تلفني . وقد عقد مناحيم وايا قرانهما فيما بعد في هذه الشقة واصبحت جزءا من تاريخ العائلة .

ولا شك انني كنت محظوظة طوال عمري . فلقد شاركت في كل ما حدث ، بل ولعبت وزارتي دورا حاسما في بناء الدولة . ولو انني احصيت المنجزات التي تمت ، لكان أولها هو التشريعات التي صدرت بناء على اقتراحات وزارة العمل ، والتي جسدت المساواة الاجتماعية بحق . وكنت أنا أول من قدم الى الكنيست في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٢ مشروع قانون التأمين الوطني ، الذي مهد لصدور قانون التأمين الوطني ووضعه موضع التنفيذ . كذلك كانت مراكز التدريب المهني التي استطعنا من خلالها تغيير طبيعة الناس وتعليمهم الحرف والمهن . وهناك ايضا تلك القرى الصغيرة التي انتشرت في كل انحاء البلاد ، واستطاع بعضها أن ينمو مثل كيريات شمونة في اقصى الشمال في الجليل الأعلى ، التي ارتبطت بها مشاعري منذ ١٩٤٩ .

وقد بدأت كيريات شمونة كمعبر يضم أكواخا من الصفيح في موقع منعزل بعيد لا تجاوره الا عدة كيبوتزات ثم مستنقع وادي الحولة الذي كانت الحكومة قد شرعت في استصلاحه ، وقررت انشاء مركز سكني فيه ويمكننا على الخرائط والبيانات ان نضع كل التفاصيل اللازمة لكل شيء للمباني .. للمنازل .. بل ولحمام سباحة . لكننا لم نعمل حسا ما لرد فعل المهاجرين الجدد الذين كانوا ينقلون الى هذا المكان مباشرة فور وصولهم . فلا اليهود الغربيون اعجبهم المكان المنعزل ، ولا اليهود الشرقيون راق لهم المكان واعتبروه تكريسا لكونهم مواطنين من الدرجة الثانية . واستمرت دورات الهجرة في كيريات شمونة ، حتى بعد أن اصبحت تلك المدينة المأهولة التي رفض سكانها مغادرتها بعد حرب الأيام الستة اصبحت هدفا مفضلا لصواريخ الارهابيين العرب ، بل وحتى بعد أن دخلها الارهابيون وقتلوا بعضا من أهلها .

وقد يدهش بعض الناقدين لاسرائيل ، اذا قلت لهم اننا وجهنا

اهتماما مماثلا للبناء من أجل اسكان العرب ، صحيح اننا قد استخدمنا منازل العرب الذين فروا عام ١٩٤٨ في اسكان المهاجرين الجدد ، لكنني اسأل ، هل هناك استعمال آخر غير ذلك لهذه المنازل التي بقيت تحت ادارة وصي خاص . وقد اضطررنا ازاء الاحتجاج على اسلوب ادارتنا لاملاك الغائبين ، الى اصدار قانون حيازة الارض عام ١٩٥٣ ، واعدنا بموجبه ثلثي هذه الأراضي الى اصحابها دون ان نطالبهم ولو بحلف اليمين على صحة مطالبهم .

وان الدماء لتغلى في عروقي كلما سمعت ما يقال عن القسوة التي عاملنا بها العرب . واذكر جيدا انني وقفت في شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨ على شاطئ حيفا اناشد العرب الا يرحلوا عنها . وكانت الهاجانة قد احتلتها ، ونصح القادة العرب اتباعهم بمغادرتها . ولم تفلح مساعي الهاجانة في اقناع العرب بالبقاء رغم استخدام مكبرات الصوت على العربات التي جابت انحاء المدينة تردد باستمرار « لا تخافوا » .

وهناك ادعاء آخر بان هناك ملايين من اللاجئين الفلسطينيين .. وهذا ادعاء غير أمين .. فمجموعهم لا يزيد على ٥٩٠,٠٠٠ لاجيء . ولم نكن نريد رجيلهم أولا لنثبت لهم أن حياة اليهود والعرب سويا امر ممكن ، وثانيا لكي لا نحدث هزة اقتصادية خطيرة في البلد . لقد وجد « اللاجئون الفلسطينيون » (كنتيجة) لرغبة العرب ومحاولاتهم لتدمير اسرائيل ، ولم يوجدوا (بسبب) اسرائيل .

وفي عام ١٩٥٥ . كان موعد الانتخابات قد حان ، واراد الما باي تعيين عمدة عمالي لتل أيب ، وقرر الحزب ترشيحي لهذا المنصب رغم انني كنت افضل البقاء في الوزارة . وغضب منى بن جوريون عندما

ناقشته حول هذا الترشيح ؛ لكنني والحمد لله لم أنجح اذا رفض احد
اعضاء المجلس . وهو من الكتلة الدينية . ان يعطي صوته لامرأة .
فبقيت وزيرة للعمل .

وقد استغلت الكتلة الدينية كوني امرأة لتحجب عني هذا المنصب .
وكأنهم نسوا ان جميع مستوطنات اسرائيل ضمت منذ يومها الاول
نساء . بل وان ممثلى هذه الكتلة يجلسون في الكنيس الى جوار
النساء . وصرحت علنا ، دون أن اخفي معي الكلمات ، بأن ما حدث
من الكتلة الدينية ما هو الا تكتيك سياسي انظر اليه بكل احتقار .

وبقيت المسألة الدينية مثار المتاعب طوال الخمسينيات ، وكان ما
لدينا من المشاكل لم يكن كافيا . وكانت تلك المسألة تحدث فرقات
بين الحين والآخر تتلوها ازمات وزارية . ويكفي اننا لم نجد حتى
الآن تحديدا واضحا لموقع الدين في الدولة اليهودية . لقد اوقعنا هذه
المسألة في ورطات كثيرة ، ومازالت حتى اليوم .

وفي عام ١٩٥٦ ، كانت لدى بن جوريون مشاريع جديدة تتعلق
بي .

الفصل العاشر

الحق في الوجود

قبل أن امضى في سرد هذه المشاريع ، لابد ان اذكر ان بن جوريون - خلال عملي كوزيرة - ابلغنا انه قرر الابتعاد عن الحياة العامة ، وانه سيلجأ الى مستعمرة سدى بوكر في النقب ليعود الى العمل الطلائعي مستصلحا الصحراء من جديد هناك . لكن الامر بدا مستحيلا ، فالدولة لم تتعد الخامسة من عمرها ، وتجميع المنفيين لم يتم بعد ، ومازال جيران اسرائيل في حالة حرب معها . ولم تفلح توسلاتنا في اقناعه بالعدول عن قراره . وهكذا استقال بن جوريون من رئاسة الوزراء ووزارة الدفاع ، وحل محله في يناير (كانون الثاني) ١٩٥٤ موسى شاريت مع احتفازه بوزارة الخارجية . وبقي بن جوريون في سدى بوكر حتى ١٩٥٥ عندما عاد وزيرا للدفاع ثم رئيسا للوزراء وعاد شاريت وزيرا للخارجية فقط .

ومع اننا كنا جميعا نحب شاريت اكثر مما نحب بن جوريون ، فاننا - بما فينا شاريت - لم نكن نجد سوى بن جوريون ملجأ نلوذ به بحثا عن النصيحة . واصبحت سدى بوكر بين عشية وضحاها واحدة من اشهر مناطق اسرائيل . وهكذا ظل بن جوريون ، برغم ابتعاده ، يضع يده فوق دفعة الامور في الدولة . غير ان شاريت وبن جوريون لم يتفقا قط ، اذ كان الخلاف اساسا بين نوع

شخصيتهما . برغم زمالة الكفاح بينهما . وبرغم ان كليهما كان اشتراكيا عتيذا وصهيونيا عتيذا .

كان بن جوريون يؤمن بالحركة . وكان يرى ان المهم في النهاية هو ما يفعله الاسرائيليون وكيف يفعلونه . وليس مهما ما يظنه العالم في الخارج أو يقوله عنهم . وكان سؤاله لنا دائما عند عرض اى موضوع عليه : « هل سيخدم في المدى الطويل دولة اسرائيل ؟ » . وكان يرى ان التاريخ سيحكم على اسرائيل بأعمالها لا بعدد المقالات المؤيدة لها في الصحافة العالمية . وكان ينظر الى الرأى العام العالمى بل وحتى الرأى العام على أنها امور غير مهمة .

اما شاريت فكان يولى اهتماما بالغاً للطريقة التى ينظر بها صانعو السياسة في الخارج الى اسرائيل . وللاسلوب الذى يجعل اسرائيل « حسنة » في نظر وزراء الخارجية الآخرين والامم المتحدة . وكان يرى ان المقياس الصحيح للامور هو الاحكام التى يصدرها المعاصرون لاسرائيل . لا التاريخ ولا المؤرخون . وكان يريد لصورة اسرائيل ان تبدو دولة اوروبية تقدمية - معتدلة - متحضرة . لا يخجل من تصرفاتها لا هو ولا اى اسرائيلى آخر .

وكان من حسن الحظ ان الاثنين عملا معا حتى الخمسينيات . فشاريت ولد دبلوماسيا ومفاوضا . وبن جوريون ولد قائدا وطنيا ومقاتلا . ولا شك في ان الحركة الصهيونية بشكل عام . والحركة العمالية بشكل خاص . قد افادتنا بصورة هائلة من اجتماع مواهب الرجلين . بل ومن اختلاف طبائعهما ومواقفهما . ومع انهما لم يكونا صديقين فقد كان يكمل احدهما الآخر . لكنه بعد قيام الدولة طغت الخلافات بينهما على السطح . ثم اصبحت غير محتملة بعد عودة بن جوريون من سدى بوكر عام ١٩٥٥ .

وكانت احدى نقاط الخلاف بينهما هى مسألة الرد الانتقامى على غارات الارهابيين العرب . كان شاريت يحبذ القيام بضغط مكثف على القوى الكبرى لتضغط بدورها على العرب حتى يتوقفوا عن مديد العون الى الارهابيين والمتسللين ، اما الاعمال العسكرية الانتقامية فسوف تؤدى الى حملة من النقد يوجهها العالم الى اسرائيل ، وتزيد من سوء موقفها . وكان محقا في تقديره ، فما ان تقوم قوات اسرائيل بعمل انتقامى ، يروح خلاله بالطبع بعض الضحايا الابرياء ، حتى كانت الاعاصير - لا الحملات - تهب على اسرائيل ، وتتم بقسوة اذانة اسرائيل « لاعمالها الوحشية » .

اما بن جوريون فكان يرى انه ليس مسئولا امام رجال الدولة الغربيين او العالم ، بقدر ما هو مسئول امام المواطن الاسرائيلى العادى . وكان يرى ان المسؤولية الاولى لاي حكومة في العالم هى حماية مواطنيها بغض النظر عن مدى سلبية رد الفعل الذى قد يحدث . وكان من رأيه ان هذا الخليط المتناسك من شعب اسرائيل يجب ان يتعلموا ان الحكومة ، والحكومة فقط ، هى المسؤولة عن أمنهم وكان في مقدورنا ان نسمح بتشكيل جماعات للانتقام ، نغض عنها النظر . ثم نتصل من اية مسؤولية عن « الحوادث » ، لكننا قررنا ان يكون ردنا بلا رحمة اذا ما تهددت ارواح الاطفال الاسرائيليين في قرى الحدود .

وشهد عام ١٩٥٥ بعضا من الغارات الانتقامية ردا على وضع الالغام ونصب الكمائن ضد قوافلنا ومواطنينا . وقد ساعدت هذه الغارات على تعليم الاسرائيليين ان بوسعهم الاعتماد على قواتهم . لكنها للأسف ساعدت على توسيع شقة الخلاف بين بن جوريون وشاريت الذى مضى يبدى اعتراضه على بعض هذه الغارات .

وبعد قليل توقف بن جوريون عن مخاطبة شاريت بإسمه الاول

وبدأ يعامله كغريب . وشعر شاريت بجرح غائر ، لكنه لم يصرح بذلك ، وانما كان يقضى الساعات في منزله وهو يملأ صفحات مذكراته بتحليلات نارية غاضبة لشخصية بن جوريون . ثم احتاج حزب الماباي في عام ١٩٥٦ الى سكرتير عام له ، فاذا بن جوريون يفاتحنى في شغل هذا المنصب ، ويدعو عددا من رفاق الحزب الى منزله في القدس لبحث الموضوع . صحيح اننى لم اكن احب ان اتخلى عن الوزارة ، لكننى كنت اشعر بالقلق على مستقبل الماباي (الذى خسر كثيرا في انتخابات ١٩٥٥) . وكنت ارى من الضرورى توسيع نطاق عضوية الماباي حتى يمكنه التغلب على التهديدات التى يواجهها سواء من اليسار المتطرف او اليمين المتطرف ، شريطة ان تبذل قيادة الماباي جهدا اكبر .

وفجأة انبرى شاريت مازحاً ، وهو يقول « ولماذا لا اكون انا سكرتيرا عاما للحزب ؟ » . وضحكنا جميعا ، فيما عدا بن جوريون ، الذى لم يكن قد سبق ان طلب من شاريت ترك الوزارة ، لكن الفرصة لاحت امامه ، ولم يكن بن جوريون بالرجل الذى تضيع منه مثل هذه الفرص . وعلى الفور قفز قائلا « رائع .. فكرة رائعة . وسوف تنقذ الماباي » . وبهتتنا قليلا ، ثم وجدنا بعد قليل ان الفكرة سوف تنقذ مجلس الوزراء من النقاش والخلاف الساخن بين الرجلين . وبعدها بيومين سألنى بن جوريون عن رأيى في فكرة تولية شاريت سكرتارية الماباي ، فسألته « ومن سيكون وزيرا للخارجية » فأجابنى بهدوء « انت » . وكانت تلك هى ابعد الافكار عن ذهنى ، فلم اكن اريد ترك وزارة العمل ، ولم اكن احب ان استولى على منصب شاريت ، لكن بن جوريون رفض الاستماع الى اعتراضى قائلا « الامر هكذا » . وبالفعل هكذا كان الامر .

وشعر شاريت بمرارة شديدة ، ولعله كان يتخيل اننى لو رفضت عرض بن جوريون على قبول وزارة الخارجية ، لكان شاريت قد بقى فيها بالقطع . لكنه كان مخطئاً ، فقد كان التوتر بين شاريت وبين جوريون قد وصل الى ذروته . ولم يقتنع شاريت بالواقع الا عندما حذر صديقه زلمان آران وبنحاس ساير من ان بن جوريون قد يتركنا وبتقاع مرة اخرى . وهناك قول لليشى اشكول مؤداه « ان بن جوريون كرئيس للوزراء يساوى ثلاثة فرق عسكرية لاسرائيل » . وهو قول اقره شاريت نفسه . وقد حاول بعض خصوم بن جوريون فيما بعد توجيه الاتهام اليه بأنه سعى للتخلص من شاريت حتى يمكنه التخطيط لحملة سيناء متحررا من مواقف شاريت التى قد لا تؤيدها ، لكننى شخصيا على يقين من انه لم يكن هناك مثل هذا (المخطط) . وانسحب شاريت من الحياة العامة بعض الوقت ، ثم اصبح رئيسا للوكالة اليهودية . وعندما انفجرت « قضية لافون » في عام ١٩٦٠ ، فان شاريت - الذى استبد به المرض الى ان قضى عليه في عام ١٩٦٥ - اصبح واحدا من اعلى الاصوات الناقدة لبن جوريون لرفضه ترك « القضية » تموت ميتة طبيعية .

اما قصة لافون فتعود الى عام ١٩٥٤ عندما وقعت غلطة فادحة تتعلق بمهمة للتجسس في مصر (كانت خطأ كبيرا سواء في فكرتها او في تنفيذها) . وكان موشى شاريت آنئذ رئيسا للوزراء ووزيرا للخارجية ، اما وزير الدفاع فكان بنحاس لافون ، عضو الماباى البارز . وكان مشهورا بأنه من « الحمام » الى ان بدأ يعمل في المجال العسكرى فانقلب الى اشرس « الصقور » ، وكنا جميعا نراه غير لائق لهذه المهمة . وحاولنا اقناع بن جوريون بالعدول عن اختياره خليفة له في وزارة الدفاع ، لكنه كالعادة اصر على موقفه ، لكن الرجل الجديد

لم يستطع ان يتمشى مع اثنين من اخلص تلاميذ بن جوريون . هما موسى دبان رئيس الاركان آنثد وموشى بيريز مدير عام وزارة الدفاع . فهما لم يحياه ولم يثقا به . واعلنا موقفهما هذا بوضوح . وفابل لافون ذلك علنا بأنه لن يسير في ظل بن جوريون وانه سبضع جسمانية الشخصية على العمل . وهكذا زرعت بذور المتاعب .

ولست في حل من ذكر التفاصيل الكاملة الان . ولا اريد ذلك . لكنه على اية حال . تم تشكيل لجنة للتحقيق في العملية . وكان لافون قد ادعى انه لا يعلم شيئا عن هذه العملية وان رئيس المخابرات هو الذي دسرها من وراء ظهره . ولم ينته التحقيق الى نتائج ملموسة . وان كان الاتجاه قد سحا الى تحميل لافون جزءا من المسؤولية . وكان اجماعا - رغم ان خطأ قد حدث - على ان نعتبر الموضوع منتهيا . واستقال لافون . واستدعى بن جوريون من سدى بوكر لتولى وزارة الدفاع .

وبعد ستة اعوام انفجرت القضية من جديد في شكل فضيحة سياسية هزت حرب الماباي . وحدثت ضجة في اسرائيل . فقد اعلن سحاس لافون ان المحاكمة الاولى تضمنت شهادة زائفة ووثائق مزورة . والمالب بن جوربون بتبرئته علنا . ولم يكن بن جوريون قد اتهم لافون من قبل ولذا رفض تبرئته . وتم تشكيل لجنة لفحص سلوك لافون الذين اتهمهم لافون . لكن الموضوع عرض على احدى اللجان "تهامة في الكيبنت" . وتسرب بالنالى الى الصحافة .

وقد ادت هذه الفضيحة الى خلافي مع بن جوريون والى استقالته لسمره الثانية . وحاولنا جميعا تهدئة كل الاطراف . لكن بن جوريون كان مصرا على عدم توجيه اى طعن الى الجيش او وزارة الدفاع . غير انه بأن يضر الحرب او زملاءه . واخيرا وافق على اقتراح بتشكيل

لجنة تحقيق من سبعة وزراء ، على امل ان تؤيده اللجنة في تحقيقاتها .
واعلنت اللجنة في نتائج التحقيق ان لافون غير مسئول عن العملية .
وعليه يطوى الموضوع برمته . وكان تعليق بن جوريون على ما انتهت
اليه اللجنة ، ان ذلك يعنى وقوع المسؤولية على المخابرات العسكرية .
واذا فلابد من تحقيق قضائي جديد ، ووصف اللجنة بأنها عار . وفي
يناير (كانون الثاني) ١٩٦١ استقال بن جوريون ، وتم تعيين ليقي
اشكول رئيسا للوزارة بناء على اقتراح بن جوريون ، وبدلا من ان
يطيع اشكول بن جوريون ، فانه اعلن رفضه لفكرة التحقيق القضائي .
وهنا وجه بن جوريون كل نيران غضبه نحو اشكول ورفاقه في
الحزب .

ولا يمكنني ان اغفر لبن جوريون ملاحقته لاشكول او طريقته في
معاملتنا او الحديث عنا جميعا ، بما فيهم انا . وبدا وكأن السنين
التي قضيناها سويا لم يعد لها حساب لدى بن جوريون ، وانقلبنا
جميعا في نظره الى أعداء شخصيين له . وقد بعث الى برسول خاص
لدعوتي لحضور عيد ميلاده الثمانين (الذي استبعد اشكول من
حضوره) في عام ١٩٦٩ ، لكنني لم استطع قبول الدعوة . كان قد الحق
بنا جميعا ضرا كبيرا لا يمكنني التفاوض عنه . لقد قال عنا اننا
اغبياء ، وليس ذنبا ان يولد المرء غبيا ، اما ان يقول أننا فاسدون ..
فهذا اتهام خطير . ولو انه وجهه الى قادة الاحزاب الاخرى لهان
الامر ، اما انا واشكول فلم نكن كما وصفنا .

وعندما قدمت حكومتى الى الكنيست عام ١٩٦٩ ، امتنع بن
جوريون عن التصويت ، وكان عندئذ منفصلا عن الماباي في حزب رافي
(قائمة عمال اسرائيل) مع ديان وييريز . لكن ما بيننا انصلح قرب
نهاية حياة بن جوريون . ففي عيد ميلاده الخامس والثمانين ذهب

الى سدى نوكر . وبلا عتاب رسمى عدنا اصدقاء كما كنا . وقابل هو ذلك بالمجيء الى ريفيقيم عندما أقام لى الكيوتز حفلا بمناسبة عيد ميلادى الخامس والسبعين عام ١٩٧٣ . تلك هى باختصار قضية لافون التى شكلت واحدة من المراحل التى تنتظرنا فى عام ١٩٥٦ . عندما اصبحت دافى وزير للخارجية الاسرائيلية .

وكانت العادة ان تتم مراسم تسليم الوزارة بحضور الوزير السابق والوزير الجديد ، لكن شاريت ذهب بمفرده الى الوزارة وودع مديرى الدوائر ، ثم دعانى لمقابلة استمرت ثلاثة ايام قدم لى فيها تلخيصا لكل شىء . وبعادته كان ملما بكل دقائق العمل بل والعاملين معه وعائلاتهم . ثم ابلغنى انه لن يصحبنى الى الوزارة . وهكذا توجهت وحدى الى الوزارة وانا اشعر بالتعاسة - بل وابدو تعيسة - لاننى لاخلف مدط رجلا اسس هذه الوزارة . وانما رأسها ايضا منذ ١٩٤٨ .

ولم نكن شهورى الاولى فى وزارة الخارجية سعيدة . فقد كنت مستعدة بن خبراء . وكان كبار رجال الوزارة والسفراء من الذين تلقوا تعالما بريطانيا عاليا . كان شاريت يعجب بهم . لكننى لم اكن اعجب بهم . ولم اكن لأخدع نفسى . فقد كان البعض منهم يرى اننى لست الشخص المناسب لمثل هذا المنصب . لكننا بعد فترة اعتدنا على العمل سويا . وربما كان السبب فى ذلك هو كثرة الاخطار التى كانت تواجهنا انشد .

وعندما دخلت وزارة الخارجية عام ١٩٥٦ . كان نشاط الفدائيين (عصابات من المغيرين تدربهم مصر) قد اتسع وكثرت ضحاياه من الاسرائيليين . وكانت هجماتهم تنطلق من قطاع غزة . مع وجود قواعد لهم فى سوريا ولبنان والاردن . وكان العرب قد حددوا مواقفهم منذ وقت طويل . ففى عام ١٩٥١ قال مندوب مصرى فى معرض دفاعه عن

اغلاق قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية « نحن نمارس حق حرب » : « والهدنة لا تضع نهاية للحرب » . وكان البكباشى جمال عبد الناصر ، الذى جاء الى السلطة في مصر عام ١٩٥٢ ، قد اصبح اقوى الشخصيات في العالم العربى وكان يشجع الفدائيين علنا . قائلا « لقد اثبتتم انكم ابطال يمكن لأمتنا ان تعتمد عليهم » . وأخذ راديو القاهرة يمدح الفدائيين ويقول « ابك يا اسرائيل فقد اقترب يوم الفناء » .

ولم تستطع الامم المتحدة ان تفعل شيئا لمواجهة هجمات الفدائيين . ونجح سكرتيرها العام داج همرشولد في ترتيب وقف لاطلاق النار في ربيع عام ١٩٥٦ ، لكنه لم يعد بعد ذلك الى الشرق الاوسط عندما عادت الهجمات ثانية . وكان يأتى الى اسرائيل فيلتقى «بين» جوريون حيث يتحدثان عن البوذية وغيرها من الامور الفلسفية التى يجيدانها . ثم اقبله انا فأحدثه عن جملة يجب تصحيحها في اتفاقية الهدنة مع الاردن او اقدم له شكوى . والأعجب انه كان يرى أن بن جوريون ملاك بينما كنت انا شخصا يصعب التعامل معه . والواقع انه لم يكن صديقا لاسرائيل . بل انه لم يكن محايدا فيما يتعلق بالشرق الاوسط . فما ان يرفض العرب شيئا - وغالبا ما كانوا يفعلون - حتى كان يتوقف عن الحركة على الفور . وليس معنى ذلك ان خلفه يوثانت (السياسى من بورما) كان افضل منه حالا . فعلى الرغم من العلاقات الطيبة بين بورما واسرائيل ، بل وبينه وبيننا ، فقد اتعبنا معه ، وتشدد وايانا الى حد كبير رغم انه لم يقف موقفا متشددا لا من روسيا ولا من العرب .

وفي احدى هذه الهجمات من جانب الفدائيين ، كانت هناك مجموعة من رجال الاثار يعملون في رامات راثيل بالقرب من القدس عندما تعرضوا للنيران من الحدود الاردنية ، فقتل اربعة وجرح كثيرون

غيرهم . وكان من بين الاربعة قتلى واحد من العائلة هو والد ايا زوجة مناحيم (حماه) . وقلت لنفسي ياله من عالم مجنون يقبل « حقوق الحرب » ولا يأبه « لحقوق السلام » . لكن المسؤولية . هنا ايضا . تقع على عاتق الروس .

في عام ١٩٥٥ وقعت مصر وتشيكوسلوفاكيا (اى الاتحاد السوفيتى) اتفاقية تلقت بموجيها مصر كميات هائلة من العتاد الحربى من الفواصات الى حاملات الجنود . كيف حدث اذا ان يؤيد الاتحاد السوفيتى دولة اعلن رئيسها البكباشى عبد الناصر انه سوف يعبد غزو فلسطين ؟ الاجابه ان ذلك حدث نتيجة لسياسة الحرب الباردة في الخمسينيات عندما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا ترايدان على بعضهما لصالح العرب . دون ان ترتاحا الى الود مع مصر . لكن الاتحاد السوفيتى لم تساوره اية هواجس . واندفع بيبير لمصر تحقيق حلمه بالحرب ضد اسرائيل . بل وصلت الامور بالاتحاد السوفيتى الى حد التأكيد على ان الصهيونية شر ينبغي القضاء عليه في كل مكان . وتم اختراع مؤامرة الاطباء في موسكو عام ١٩٥٣ . عندما اعلن ان تسعة من الاطباء (من بينهم ستة من اليهود) حاولوا اغتيال ستالين وجرت محاكمة كانت جزءا من حملة معاداة اليهودية التى انتشرت في كل انحاء الاتحاد السوفيتى .

وبرغم التقارب المصرى السوفيتى . فان بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية رفضتا بيع السلاح لنا . واصمتا اذانهما عن طلباتنا المتكررة . وفي اوائل ١٩٥٦ ابلغت الولايات المتحدة الامريكية كلا من فرنسا وكندا انها لا تمانع اذا باعنا الاسلحة لنا . ولم تنتظر فرنسا الاذن من الولايات المتحدة . اذ كانت قد هرعت لمساعدة اسرائيل . لاسباب خاصة لديها . واصبحت لدينا الاسلحة . ولم نعد وحدنا .

وبينما كنت في صيف ١٩٥٦ ارتب اوضاعى في وزارة الخارجية .
 بما في ذلك التعود على مناداتى باسم « مسز مائير » (وهو اقرب
 الاسماء العبرية الى اسم مايرسون . وحملت هذا الاسم بناء على نصيحة
 بن جوريون بأن احمل اسما عبريا . ومائير بالعبرية تعنى اضاء) .
 كانت الحلقة تشدد حول رقابنا . فقد أقدم عبد الناصر على اكبر خطوة
 له عندما امم قناة السويس في يوليو (تموز) . ولم يكن احد من
 الزعماء العرب قد قام بمثل هذا المشهد الكبير . ولم يعد امام عبد
 الناصر من اجل ان يجعل مصر اعلى قوة اسلامية الا ان يقضى علينا .
 وبينما كانت القوى الكبرى تناقش تأميم القناة . كنا في اسرائيل نشعر
 بالقلق من تزايد القوة العسكرية لمصر وسوريا اللتين اعلنتا توحيد
 قيادتهما . ومرة اخرى وقعت مصر فريسة لوهم الانتصار على
 اسرائيل . لوهم تمجيد النفس . وهو بالصدفة نفس الوهم الذى بلوره
 عبد الناصر نفسه في كتاب فلسفة الثورة .

توجد كتب كثيرة (بعضها حقيقى وبعضها خيال) عن معركة
 سيناء . لذا اعتقد ان مساهمتى ستكون متواضعة . لكننى لابد ان اؤكد
 على شىء واحد . رغم فشل الهجوم البريطانى الفرنسى على القناة . الا
 وهو ان ضربة اسرائيل ضد المصريين كان لها هدف واحد هو منع
 تدمير الدولة اليهودية . كان الخطر واضحا امامنا . وادركنا اغراضه .
 كنا نعلم ان الديكتاتوريات تحافظ دائما على وعودها . بما في ذلك
 الديكتاتوريات التى تفصح عن خططها علنا . وليس في اسرائيل من
 ينسى درس المحارق والابادة الجماعية .. وهكذا وجدنا امامنا احد
 خيارين فاما أن نستعد لنقتل - سواء بالتجزئة او في هجوم مفاجىء -
 أو ان نأخذ المبادرة . ويعلم الله ان اتخاذ القرار لم يكن سهلا . لكنه
 تم . وبدأنا نعد سرا لمعركة سيناء (المعروفة في اسرائيل بعملية
 قاذش) .

وزودنا الفرنسيون بالسلاح ومضوا يعدون خطة الهجوم الانجلو
فرنسى على القناة . وفي سبتمبر (ايلول) وجهو الدعوة الى بن
جوريون ، والى بوصفى وزير للخارجية ضمن وفد يقابل جى موليه
(رئيس الحكومة الاشتراكية الفرنسية) وكريستيان بينو (وزير
الخارجية الفرنسى) وموريس بورج مانورى (وزير الدفاع) . وضم
الوفد المسافر ، الذى لم يعلم بسفره سوى اشخاص يعدون على
الاصابع . كلا من موسى ديان وشمعون بيريز وموشى كارمل (وزير
النقل لدينا ، والقائد البارز خلال حرب الاستقلال) . ولم استطع حتى
التلميح لساره بأننى سوف اسافر . بل ان الحكومة احيطت علما
بالخطة قبل ايام من تنفيذها يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر (تشرين
الاول) . وقام بن جوريون بعد ذلك باطلاع قادة المعارضة ..
باختصار .. لم يكن ناصر وحده هو الذى فوجئ .. وانما فوجئ
لجميع .

وركبنا الطائرة سرا ، وكانت من طائرات الجيش الفرنسى .
وجلسنا صامتين متوترتين . وكاد كارمل وهو يسير داخل الطائرة . ان
يسقط من فتحة القاء القنابل ، لولا ان ثمالك نفسه بحركات عنيفة
حطمت له ثلاثة اضلع . ثم توقفنا في شمال افريقيا حيث نزلنا في دار
للضيافة . وسافرنا من هناك الى مطار خارج باريس ، ومنه الى مقر
الاجتماعات . وكان الهدف من هذه المحادثات وضع التفاصيل المختلفة
للمساعدة العسكرية التى وعدتنا بها فرنسا ، وخاصة حماية سمائنا
بطائراتها في حالة طلبنا . ولم اجرؤ على السير في باريس بل وغضبت
من ديان لانه فعل ذلك . وان لم يتعرف عليه احد .

وبدأنا في يوم ٢٤ اكتوبر وفي سرية مطلقة . في تعبئة قوات
الاحتياطى . وكانت الصورة امام الشعب وامام المخابرات المصرية ، اننا

نعمىء جنودنا لمواجهة الحشود العراقية التى دخلت الاردن (والتى كانت قد انضمت الى القيادة الموحدة) . وكنت قد دعوت الى مؤتمر لسفراء اسرائيل فى الخارج ، عقد فى وزارة الخارجية قبل المعركة بأسبوع ، اردت فيه ان اجتمع ببعض السفراء قبل ان تنعقد الجمعية العامة للأمم المتحدة . وعاد الجميع الى مواقعهم بالخارج دون ان يعلموا شيئا ، حتى شاريت - الذى ذهب الى الهند بعد ترك الوزارة - سمع ان المعركة بدأت خلال جلوسه مع نهرو الذى لم يصدق بالطبع ان محدثه لا يعلم شيئا . لكن السرية المطلقة كانت امرا حيويا .

ولم استطع التخلص من التفكير فى الحرب فى كل مكان اذهب اليه او عمل أؤديه ، كنت افكر فيما سيحدث يوم ٢٩ . ان من اصعب الامور ان يضطر الانسان الى كتم سر يؤثر فى حياة كل الناس المحيطين به ، بل ان ذلك يحتاج الى جهد فوق طاقة البشر . لكنه لم يكن لدينا حيلة ، فقد كان ضروريا التخلص من الفدائيين وافهام مسر ان اسرائيل ليست بالشىء التافه الذى يمكن القضاء عليه . وقضيت عطلة نهاية الاسبوع فى ريفيقيم مع سارة وزكريا والاطفال والاصدقاء . غير قادرة حتى على ان اجذرهم . فمن هنا .. من المقب سيهجم الجيش المصرى قاصدا التدمير فيما لو حدث خطأ فى حساباتنا . واخذت اسأل نفسى « هل يجب علينا حقا ان نمضى هكذا الى الابد . نقلق على الاطفال والاحفاد ، نقتل ونقتل ؟ ! »

وبدأت معركة سيناء ، كما هو مقرر ، بعد غروب يوم ٢٩ اكتوبر (ت ١) ، وانتهت - كما هو مقرر - يوم ٥ نوفمبر واستغرق الامر من قوات الدفاع الاسرائيلية ١٠٠ ساعة لكى يعبروا ويستولوا من المصريين على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ، وهى منطقة تبلغ مساحتها مرتين ونصف مساحة اسرائيل . وكان اعتمادنا على المفاجأة والسرعة واحداث

الفوضى الشاملة في الجيش المصرى . ولم ادرك مدى النصر الذى حققناه الا بعد ان ركبت الطائرة حتى شرم الشيخ في اقصى جنوب شبه جزيرة سيناء وبعد ان طفت قطاع غزة بالسيارة . وكانت هزيمة المصريين كاملة . فقد تم قطع الاتصال بين الفرق المصرية الموجودة في الصحراء . وتم تطهير مخابىء الفدائيين . واصبحت مئات الآلاف من الاسلحة وملايين القطع من الذخيرة . عديمة القيمة . وتم تحطيم ثلث الجيش المصرى . كذلك اسرنا ٥٠,٠٠٠ جندى مصرى . واستبدلناهم بالطبع بالأسير الاسرائيلى الوحيد الذى تمكن منه المصريون .

لكننا لم نكن نريد من معركة سيناء ارضا ولا غنائم ولا اسرى . فقد حققنا ما نريده وهو السلام او على الاقل السلام الموعود . ورغم ان خسائرنا كانت « طفيفة » فقد حدثنا الامال بأن يكون قتلانا (وعددهم ١٧٠ وجرح ٨٠) هم آخر خسائرنا في آخر المعارك . وكان اصرارنا هذه المرة ان يصل جيراننا الى تفاهم معنا وعن وجودنا .

لكن الامور لم تسر على هذا النحو . فقد كسبنا معركتنا لكن البريطانيين والفرنسيين خسروا معركتهم بسبب غبائهم وبسبب رد الفعل السلبي الواسع في كلا البلدين ازاء هجومهما على بلد برى . واعتقد ان رد الفعل ما كان ليصبح بهذا العنف لو نجح الهجوم الانجلو فرنسى على اساس ان هذا امر واقع . ثم تراجع البريطانيون والفرنسيون بمجرد ان طلبت منهما الامم المتحدة - تحت ضغط امريكى وسوفيتى هائل - سحب قواتهما من منطقة قناة السويس . كذلك طلبت الامم المتحدة انسحاب اسرائيل من شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة .

وكانت تلك هى بداية اربعة اشهر ونصف من المحاولات المضنية - التى خسرناها - لاقناع دول العالم بأننا لو انسحبنا الى خطوط هدنة ١٩٤٩ فسوف يتكرر الانهيار في الشرق الاوسط مرة ثانية . وازداد

الضغط علينا فاضطررنا للقبول . وكان حلفاء الرئيس الامريكى ايزنهاور الأوروبيون قد اخفوا عنه كل شىء ، فهدد غاضبا بأن تؤيد امريكا فرض العقوبات على اسرائيل ان لم تنسحب . لكن مصدر الضغط الاكبر جاءنا من الاتحاد السوفيتى ، وكنت لا اصدق ان نيكولاى بولجانين سوف يقود العالم الى حرب كبرى بتهديداته . المهم اننا وجدنا العالم كله تقريبا ضدنا ، ومع ذلك فقد كان رأى الانسلم دون ان نقاتل .

' وتوجهت في ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٦ الى الامم المتحدة . لكننى قررت قبل سفرى ان اقوم برحلة الى شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة .. وبعد هذه الجولة تجسدت امامى ضخامة الاخطار التى كنا معرضين لها على يد الجيش المصرى فى سيناء . وشاهدت منطقة شرم الشيخ التى اعتقد ان زرقه مياهاها تعد اصفى ما رأيت فى حياتى وجبال البحر الأحمر تمتد فى سلسلة تتفاوت الوانها بين الاحمر القانى والبنفسجى والقرمذى . وهناك رأيت المدفعية البحرية الجبارة التى تسببت فى شلل ميناء ايلات . ثم طفت بقطاع غزة الذى كان الفدائيون يشنون منه هجماتهم . وهناك رأيت اللاجئين العرب فى حالة مؤسفة من الفقر والحاجة .. اولئك الذين اصر القادة العرب على ابقائهم فى خيامهم وحياتهم المهينة لكى يجعلوا منهم قضية سياسية . فى حين كان الواجب اعادة توطينهم فى اى من دول الشرق الاوسط . وهى دول يتكلمون لغتها ويشتركون معها فى التقاليد والدين .. ثم يستمر العرب فى شجارهم معنا .

والقيت كلمتى فى الجمعية العامة للامم المتحدة يوم ٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٦ ، محاولة طرح مقترحات ملموسة عن السلام .

وقد مرت الان عشرون سنة ، نكرر فيها نفس الكلام ، دون ان نحصل على اى نتيجة او نحقق اى نجاح .

وفي الجلسة التاسعة للجمعية العامة اقترح المندوب الاسرائيلى ، كمرحلة انتقالية او اولية.. ان تعقد بين الاطراف المعنية اتفاقيات تلزمها بسياسة عدم الاعتداء والتسوية السلمية . وكان الرد رفضا قاطعا . ولا يزال العرض الذى قدمناه قائما من حيث استعدادنا للالتقاء بممثلين عن كل او اى من الدول العربية . ولم نسمع حتى صدى لندائنا يأتينا عبر الحدود .

واخذنا نفكر فيما سيحدث بعد ذلك ، هل نعود الى نظام الهدنة ؟ وهل تعود غزة وكرا للفدائيين مرة ثانية ؟ ام تتجه الجمعية العامة الى التفكير فى المستقبل ؟ . وقبل ان القى كلمتى بأيام تحدث مندوب مصر ، وكان حديثه بعدا عن الحرب . فطلبت نسخة من نص حديثه وانطلقت منها فى كلمتى الى رسم صورة المستقبل فى المنطقة فيما لو وفرنا ثمن السلاح وكرسناه لمحو الامية وتنمية المنطقة ورفاهيتها . وطالبت باحلال السلام مكان الحق من اجل سعادة كل شعوب المنطقة .

لكننى لاحظت ، خلال عودتى الى مقعدى ، انه لا يوجد من يشاركى رأى بين هؤلاء المندوبين ممثلى الاسرة العالمية . وبعد ان جلست لاحظت ان وفدا واحدا صفق لى ، كان وفد هولندا التى تعتبر من الاموات القليلة التى لا تصوت ضدنا . ولم اجد واحدا من الوفود يطالب ولو بمناقشة ما قلته . وعلى اية حال فقد قررت ان اجرى اتصالا مباشرا وشخصيا بالعرب قبل انتهاء الدورة ، لان المستقبل كان مظلما فى نظرى .

وفي أثناء تلك الشهور الرهيبة ، كان انسحابنا يتم على مراحل من غزة وسيناء . لكن احدا لم يقل او يفعل شيئا يجعل مصر تدخل معنا في مفاوضات لفك الحصار عن مضائق تيران او لحل مشكلة قطاع غزة . وهكذا لم نتلق ردا على الاسئلة التي اثارناها في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٦ ، مع اننا اصبحنا في فبراير (شباط) ١٩٥٧ . ولم يجد لا المنطق ولا النداءات بل ولا فصاحة سفيرنا في واشنطن . ابا ايان . وفشلت في اقناع جون فوستر دالاس وزير خارجية امريكا ، الرجل الذي سيطرت عليه فكرة « حافة الهاوية » ، والذي كثيرا ما قال له ان الحرب العالمية إذا نشبت ، ستكون اسرائيل هي المسؤولة عنها بسبب « عدم معقوليتها » .

وكننت اتمنى لو عدت الى اسرائيل وتركت لغيرى مهمة اللاحاح على جون فوستر دالاس وهنرى كابوت لودج ممثل امريكا في الامم المتحدة ، لكننى بقيت ، مبتلعة مرارتى واحساسى بالخيانة . وفي اواخر شهر فبراير (شباط) وبينما آخر قواتنا تغادر مواقعها توصلنا الى حل وسط ، يقضى بأن قواتنا سترحل عن غزة وشرم الشيخ في مقابل « افتراض » ان الامم المتحدة ستتكفل بضمان حق المرور الحر لسفننا عبر مضائق تيران ، وعدم عودة الجنود المصريين الى غزة . ولم يكن ذلك بالطبع ما حاربنا من اجله ، لكنه كان على اية حال افضل من لا شىء .

وفي ٣ مارس (آذار) ١٩٥٧ القيت البيان النهائى ، بعد ان راجعه دالاس في واشنطن ودقق في كل حرف فيه . وقلت ان اسرائيل ، وفقا للقرار رقم ١ بتاريخ ٢٠ فبراير (شباط) ١٩٥٧ ، تعلن ان هدفها الوحيد هو انه بعد اتمام انسحاب القوات الاسرائيلية ان تستمر حرية الملاحة امام اسرائيل والملاحة العالمية في خليج العقبة ومضائق تيران . تم

اضمت من عندى نداء للدول العربية المجاورة لنا بأن تفتح صفحة جديدة بعمل فيها سويا من اجل ازدهار ونمو منطقتنا .

ودهنت لدى عودتى الى مقعدى . عندما وقف هنرى كابوت لودج واحد لكل دول العالم ان ضمان حرية المرور للملاحة سوف يكون محسولا . اما مستقبل قطاع غزة فسيتم معالجته في اطار اتفاقية الهدنة . ربما لم يفهم احد انذ ما الذى يعنيه كابوت لودج . لكننا « نحن » فهماه جيدا . لقد ربحنا وزارة الخارجية معركة ضنا . وسوف تعود الحجوم العسكرية بحاميتها الى غزة . ولم استطع حتى ان انظر الى كابوت لودج . ذلك الرجل الانيق الذى تولى تهدئة المتخوفين من ان تعرض اسرائيل الانسحاب بدون شروط . وجلست اقضم شفتى في لحظة من اسوأ لحظات حياتى .

ولم يكن هناك مفر من مواجهة الواقع . فقد توقف نشاط بعديين . وتم تنفيذ حرية الملاحة عبر مضائق تيران . وتحركت قوات الخطوارى التابعة للأمم المتحدة الى قطاع غزة ومنطقة شرم الشيخ . وجمعنا نفرا دخل التاريخ العسكرى . لنبرهن على مقدرتنا - مع ان الامر لا يحتاج الى برهان - على حمل السلاح دفاعا عن انفسنا .

وعدت الى الامم المتحدة مرة ثانية خلال هذا العام في شهر اكتوبر (تشرين الاول) . وتوجهت بالحديث مباشرة الى العرب دون اى عدد وبدون نص مكتوب . وقلت لهم ان التاريخ قرر ان توجد اسرائيل في المنطقة مستقلة مثلكم تماما . برغم انكم جاربتمونا . فلماذا لا تتعاون سويا لصالح المنطقة . ان اسرائيل ستبقى حتى بدون سلام . ولكن انزعوا الكراهية واقبلوا وجودنا كدولة مستقلة مثلكم . وسأفزع لم يكثر العرب حتى بالتطلع الى وجهى .

وقد زرت الامم المتحدة خلال عملى كوزيرة لاسرائيل مرات

عديدة . على الاقل مرة كل عام كرئيسة لوفد اسرائيل . لكننى للاسف لم انجح في ترتيب اى لقاء مع العرب رغم محاولاتى المتكررة . واذكر اننى في عام ١٩٥٧ رأيت عبد الناصر يجلس عن بعد . فأخذت افكر ترى ما الذى قد يحدث لو توجهت اليه هكذا وبدأت الحديث معه . لكنه كان محاطا بالحراس . وكنت انا ايضا محاطة بالحراس . وبالطبع ما كانت المحاولة لتنجح . لكننى فكرت في ان تيتو - الذى كان موجودا في الدورة - قد يتمكن من ترتيب شيء . فطلبت الى احد اعضاء وفدنا ان يفتح احد اعضاء وفد يوغوسلافيا لعقد لقاء بينى وبين تيتو . وطال انتظارى . بل وأجلت عودتى لاسرائيل . دون ان اتلقى ردا . وفي اليوم التالى لسفري جاءنا الرد بأن تيتو مستعد لمقابلتى في نيويورك . لكننى كنت قد عدت .

وكنت قد تعرفت على زوجة نائب رئيس وفد باكستان التى فاتحتنى في الدور الذى يجب ان تلعبه النساء من اجل السلام . وعندئذ طلبت اليها ان تقيم حفلا تدعو اليه بعض العرب وتدعونى معهم . واقسمت لها بشرفى ان احدا لن يعلم بهذا الاجتماع . وطال انتظارى دون ان يتم شيء . وذات يوم جلست معها في صالة الوفود تناول القهوة . حينما دخل وزير خارجية العراق (وهو الذى اشار الى بإصبعه من فوق المنصة قائلا : يا مسز مائير عودى الى ميلووكى . فهناك مكانك) . وما ان رأته حتى امتقع لونها وصاحت : يا الهى . سيرانى وانا اتحدث معك . وغادرت المكان مفزوعة . وانتهت بذلك القصة .

وكان رؤساء الوفود في الامم المتحدة يعلمون جيذا انهم اذا ارادوا ان يحضر العرب حفلاتهم . فلا يجب عليهم ان يوجهوا اليها الدعوة لحضور نفس الحفل . وحدث ان جاء احد رؤساء الوفود الجدد غير عالم

بهذه اللعبة . فوجه الدعوة الى العرب والاسرائيليين . بل انه جعل مكان مندوب العراق على المائدة في مواجهةي . وهم العربى بتناول طعامه وعندما لمحنى امامه . وقف على الفور وغادر الحفلة . وهكذا اصبح اى عربى يترك المكان بمجرد ان يجد فيه اسرائيليا . ولم يكن بوسعنا شىء نفعله .

غير ان هناك ذكريات لا تنسى في تلك الفترة . لعل ابرزها لقائى بجون كنيدي وليندون جونسون وشارل ديغول . وقد التقيت بكندى مرتين . اولاهما عندما كان عضوا في مجلس الشيوخ عن ماساتشوستس . وكان اللقاء في حفل اقامه الصهيونيون في بوسطن عقب معركة سيناء . وجلست الى جواره . وبدا لى خجولا . لكن حديثه كان طلقا . اما المرة الثانية فكانت قبل اغتياله بقليل . اذ ذهبت اليه في منزله في فيلا فيلادلفيا وجلسنا سويا في الشرفة نتحدث طويلا عن حاجة اسرائيل الى السلاح . وكان من الصعب على ان اتصور ان هذا الرجل الانيق . بأكمام قميصه المرفوعة . ووجهه الصباني . هو رئيس الولايات المتحدة الامريكية . وان كنت اعتقد انه ايضا لم يكن يصدمه اننى وزيرة خارجية . وشارك في الاجتماع إثنان او ثلاثة . من بينهم « مايك » فيلدمان . اليد اليمنى لكيندى . لكنهم لم يشاركونا النقاش .

وبدأت بالحديث عن الموقف الراهن في الشرق الاوسط . ثم قررت انتهاز الفرصة فأخذت احدث كنيدي عن تاريخ اليهود عبر ثلاثة آلاف عام الى ان قامت اسرائيل . مبينة له اننا لو فقدنا استقلالنا هذه المرة . ثانية . فلن نقوم لنا قائمة بعد ذلك ابدا . وبعد ان انهيت حديثى مال نحوى وامسك بيدي قائلا . وهو ينظر في عيني . « لقد فهمت

يا مسز مائير . لا تقلقى لن يحدث شىء لاسرائيل » . واعتقد انه فهم بالفعل .

ثم قابلت كنيدي بعدئذ في حفل اقامته الامم المتحدة . وكان يحيى رؤساء الوفود فتبادلنا التحية فقط ، ولم اره بعدئذ . لكننى شاركت في تشييع جنازته وصافحت چاكلين كنيدي ، التى برغم شحوب لونها ودموعها وجدت الكلمات التى ترد بها على كل منا . وحضرت حفل العشاء الذى اقامه الرئيس الجديد ليندون ب . جونسون . وكنت قد رأيته قبل ذلك خلال اجتماع الجمعية العامة عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، عندما كان رئيسا للأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ وعارض علنا وبقوة فكرة العقوبات التى طرحها ايزنهاور ضدنا ، ولذا فقد كنت اعلم مشاعره نحو اسرائيل . وعندما مددت يدي لمصافحته احاطنى بذراعه لفترة وقال لى « اننى اعرف انك فقدت صديقا ، لكننى ارجو ان تفهمى اننى ايضا صديق » . وقد اثبت ذلك بالفعل .

وكنت دائما ما اذكر الكلمات التى قالها لى جونسون ، طوال حرب الستة ايام عندما ايدنا في رفض العودة الى خطوط ما قبل عام ١٩٤٧ الا اذا تم ذلك في اطار تسوية سلمية ، وساعدنا على تحقيق سائل العسكرية والاقتصادية للحفاظ على موقفنا . ولم اره هو الآخر بد ذلك ، لكننى لم ادهش عندما علمت ان الامور سارت على خير فيه وبين ليشى اشكول عندما اصبح رئيسا للوزراء .. فقد كانا تشابهين في الشىء الكثير . وصحيح اننى اعلم فقد جونسون لشعبيته . في الولايات المتحدة ، لكنه كان بالقطع صديقا يعتمد عليه . وان اسرائيل لمدينة له بالكثير . واعتقد أنه كان القائد الوحيد الذى فهم

الغلطة التي إرتكبتها حكومة ايزنهاور ، عندما اجبرنا على الانسحاب دون ان تبدأ أى مفاوضات مع العرب .

وعندما توفي جونسون في عام ١٩٧٣ ، وكنت رئيسة للوزراء ، ابرقت الى زوجته اعزيتها ، فتلقيت منها ردا يقول « لعلك تعلمين يا مسز مائير ان زوجى كان يتطلع الى زيارتك المقبلة . بل كان يتحدث دائما عن زيارة اسرائيل في يوم من الايام . لقد كان اهتمامه ببلدك حقيقيا وعميقا ، وكان احترامه لشعبك نابعا من اعماق قلبه » .

وكان الجنرال ديجول من بين الشخصيات التي كان لها تأثير حاسم في مستقبل اسرائيل . وقد قابلته في جنازة كنيدي . وكنت قد لقيت من قبل عام ١٩٥٨ عندما اصر السفير الفرنسى في اسرائيل بيرجيلير (وكان ديجوليا وصهيونيا متعصبا) على ان اقابل الجنرال . وقد اصابنى كل ما عرفته بالخوف ، وخاصة توقعه ان يعرف كل انسان اللغة الفرنسية التي لم اكن اعرف منها كلمة واحدة . وقبل ان التقى بالجنرال اجتمعت مع وزير الخارجية كوفى دى مورفيل ، الذى لم يكن موقفه يتسم بالصدقة . وهو اكثر الفرنسيين الذين عرفتهم تشيحا لبريطانيا . وجرى استقبالى رسميا في قصر الاليزية ، وخيل الى اننى استعرض الجيش الفرنسى بأكمله .

وكنت اشعر بقلق شديد قبل ان ادخل الى مكتب الجنرال وها هو شارل ديجول الاسطورى ، بارتفاع قامنه ومجده . وكان بصحبتى چاكوب . تسور المدير العام لوزارة خارجيتنا وسفيرنا فيما بعد الى فرنسا . وتمكنت من تبادل الحديث مع الجنرال بواسطة مترجمه وتسور ، وان هى الا دقائق حتى استرخت اعصابى ، ووجدت ان ديجول صديق وعطوف . وتبادلنا حوارا مرضيا عن مشاكل الشرق الاوسط . وسط تأكيدات بصداقته لاسرائيل .

ثم رأيت بعدئذ في جنازة كنيدي أولا في الكاتدرائية (واطن ان
الوحيدين اللذين لم يركعاهما ديجول وزلمان شازار رئيس دولة
اسرائيل وانا) ، ثم بعدئذ في حفلة العشاء التي سبق ذكرها . وفكرت
ان اذهب اليه . فقال لي مرافقي ان ديجول لا يأتي لأحد وانما
يستدعى الناس اليه . وفجأة بدأ يتحرك والناس تتباعد من طريقه .
وكأنهم البحر الاحمر ينشق لكي يعبره ابناء اسرائيل ، ثم يتجه نحوى
مباشرة ويفعل شيئا لم يسبق ان فعله اذ تحدث معى بالانجليزية ،
معبرا عن سروره بلقائى رغم المناسبة الحزينة . وكنت في تلك الاثناء
قد اصبحت صديقة لكوث دى مورفيل الذى كان يحكى لى عن اعتزاز
ديجول بى . واعتقد انه لم يغفر لنا عصياننا لما نصحنا به في عام ١٩٦٧
(وهو الان فعل شيئا . وكان ديجول قد قال لابا ايبان خلال الايام
التي سبقت حرب الايام الستة « لو تعرضتم لخطر حقيقى ، فيمكنكم
ان تعتمدوا على . اما اذا بدأت بالضربة الاولى ، فسوف تتحطمون
وتجلبون الكارثة على العالم اجمع » .

وقد ثبت ان ديجول مخطيء .. فلم نتحطم ولم تقع حرب عالمية ،
لكن علاقاتنا به وبالحكومة الفرنسية لم تعد كما كانت ابتداء من هذا
اليوم . وكان ديجول الذى رفع في عام ١٩٦١ نخب اسرائيل « صديقتنا
وحليفتنا » . هو نفسه الذى لخص موقفه تجاه اليهود بعد حرب الايام
الستة عندما وصفنا بأننا « متعالون ، واثقون من أنفسنا ، متجبرون » .

اما اهم وابرز مساهمة قدمتها كوزيرة للخارجية فكانت في ميدان
مختلف كلية ، يتعلق بدور اسرائيل الجديد في الدول النامية في
امريكا اللاتينية واسيا . بل وربما في افريقيا خاصة . وبدأ فصل
جديد كلة في حياتى .

الفصل الحادى عشر

صداقات افريقية وغيرها

جاء ارتباطى الأول بأفريقيا نتيجة استجابة عاطفية للموقف الذى وجدنا انفسنا فيه بعد معركة سيناء .. فقد شعرنا بالوحدة ، وبفقدان الشعبية وافتقاد الفهم كانت فرنسا صديقة وحليفة وكانت هناك دولتان اوربيتان تتعاطفان معنا اما علاقتنا مع الولايات المتحدة فكانت متوترة ، وعلاقتنا بالاتحاد السوفيتى اكثر من متوترة ولم تفلح محاولتنا في آسيا لاخترق اسوارها صحيح اننا اقمن بعثات في بورما واليابان وسيلان وقنصليات في الفلبين وتايلاند والهند لكن جمهورية الصين الشعبية رفضت قيام سفارة اسرائيلية في بكين رغم اننا كنا من اول الدول التى اعترفت بها ، واتخذت اندونيسيا وباكستان موقفا معاديا منا باعتبارهما دولتين اسلاميتين اما العالم الثالث الذى لعب فيه نهرو من ناحية وتيتو من ناحية اخرى دورا هاما ، فقد توجه نحو عبد الناصر والعرب وعض الطرف عنا وعلقنا الآمال على ان نتلقى دعوة لحضور مؤتمر الدول الافريقية الاسيوية في باندونج في ربيع ١٩٥٥ غير ان الدول العربية هددت بمقاطعة المؤتمر اذا ما دعيت اليه اسرائيل وهكذا تم استبعادنا من هذا « النادى » ايضا .

واعتدت على ان اجيل النظر حولى في الامم المتحدة خلال عامى ٥٧ و ١٩٥٨ قائلة لى نفسى ليست لنا عائلة هنا فلا يوجد هنا من يشاركنا ديننا أو لغتنا أو ماضينا ان بقية العالم تبدو كتلا وتجمعات نشأت

بسبب التاريخ والجغرافيا واجتمعت لتخلق اهتمامات مشتركة لديهم لكن جيراننا حلفاءنا الطبيعيين ، لا يريدون اى صلة بنا ونحن في الواقع لا ننتمى لاي مكان ولا لاي احد ، سوى انفسنا » لقد كنا اول مولود للأمم المتحدة لكننا عوملنا كطفل غير مرغوب فيه .

لكن العالم لم يكن قاصرا على الاوروبيين والاسيويين ، فقد كانت هناك الدول الافريقية الناشئة ، الساعية الى الاستقلال وكان لدى اسرائيل الكثير مما تعطيه لهذه الدول السوداء . فقد كنا مثلهم حصلنا على استقلالنا بكفاحنا وتعلمنا كل شيء وواجهنا نفس المشاكل . لم تكن لدينا اموال او اسلحة نقدمها لافريقيا لكننا لم نكن مستغلين فقد كنا نريد صداقة افريقيا فقط وقد يقول قائل اننا ذهبنا الى افريقيا لاننا كنا بحاجة الى اصوات مؤيدة في الامم المتحدة ، واقول نعم ا صحيح ان ذلك لم يكن العامل الوحيد لكنه كان عاملا هاما .

واليوم في أعقاب حرب يوم الغفران وقطع العلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل ومعظم الدول الافريقية فقد يقول قائل « كان الامر مجرد ضياع للوقت والجهد والمال ، وكان تحركا في غير محتوم عليه بالانهيار بمجرد ان تزاوّل الدول العربية ضغطها على الافارقة » لكننى اقول لهم ان الدول تصاب بالنكسات مثل الافراد وانه لا يتوقع لكل مشروع ان ينجح كلية او بسرعة .. فالأمر لم يكن مجرد هات وخذ .

لقد ذهبنا الى افريقيا كي نعلمهم ما تعلمناه ولا أظن ان هناك من يحس بمرارة مثلى ازاء موقف الدول الافريقية التى ادارت ظهورها لنا لكن المهم بالفعل هو ما حققناه نحن وهم - سويا وما فعله آلاف الخبراء الاسرائيليين في كل الميادين منذ ١٩٥٨ حتى ١٩٧٣ وما حمله آلاف الافريقين عند عودتهم الى بلادهم بعد تلقيهم التدريب في اسرائيل ستبقى هذه الانجازات ولن يمحوها شيء مهما كانت خسارة

اسرائيل لكنه يبقى ان هذه الحكومات ناكرة للجميل ، وقد تركت لدينا اسوأ الاثر بهجرها لنا في وقت الازمة واننى لفخورة ببرنامج التعاون الدولى الاسرائيلى وبالمعونة الفنية التى قدمناها لافريقيا اكثر من اى مشروع اخر قمنا به .

ان هذا البرنامج في نظرى يمثل تجسيدا للعدالة الاجتماعية والتعمير وهذا هو لب الصهيونية العمالية . واليهودية لقد ذهبنا الى افريقيا بنفس روح الرواد والطلائع التى حملتنا الى مرجافيا في العشرينيات وحملت ابنتى الى ريفيفيم في الاربعينيات . وليس معنى ذلك ان جميع من ذهبوا الى إفريقيا كانوا من الاشتراكيين ، بل بالعكس لكن ما فعلناه في افريقيا لم يضع سدى ولا اظن ان احدا من الافارقة ينظر اليه على هذا النحو .

يضاف الى ذلك اننا والافارقة كنا قد عانينا حتى الامس القريب من الكبت والتفرقة والعبودية وقد كتب ثيودور هرتزل رواية في عام ١٩٠٣ بعنوان (التنيولاند) « أى الارض القديمة الجديدة » تصدرت صفحتها الاولى هذه العبارة « اذا عزمت عليها فإنها ليست حلما » ، وهى العبارة التى اصبحت شعار الحركة الصهيونية ومصدر الهامها . وقد وردت في هذه الرواية فقرة كنت اقولها دائما لاصدقائى الافريقيين تقول هذه الفقرة ان المسألة الافريقية هى المسألة الاخرى التى لم يوجد لها حل حتى الآن فالافريقى يباع عبدا ويستعبد فقط لمجرد ان لونه اسود ويختتم هرتزل الفقرة بقوله « اننى لا اخجل من ان اقول - رغم اننى اعرض نفسى للسخرية بقولى هذا - اننى ما ان اشهد خلاص اليهود ، شعبى ، حتى اتمنى ان اساعد على خلاص الافريقيين »

ولقد كنت مسئولة عن بداية مشاريع التنمية المائتين التى نفذتها اسرائيل في ثمانين دولة افريقية واسيوية وامريكية لاتينية بأيدى ٥٠٠٠

مستشار اسرائيلي ... لكننى بالطبع لم اخترع الفكرة فقد كان أول اسرائيلي يستكشف امكانية التعاون الدولى هو صديقى ريوفين بركات الذى جلب - بوصفه رئيسا للدائرة السياسية في الهستدروت عددا من الافارقة والآسيويين الى اسرائيل ليشاهدوا بأنفسهم كيفية حل المشاكل . وعندما عينت وزيرة للخارجية عام ١٩٥٦ كانت غانا على وشك الحصول على استقلالها وكان الشاب شنان يافور قد عين ممثلا لاسرائيل فيها بناء على ترشيح شاريت وعندما استقلت غانا عام ١٩٥٧ عين ايحود أقريل سفيرا لاسرائيل في غانا وفي ليبيريا واقترح ايحود أن احضر الذكرى الاولى لاستقلال غانا في عام ١٩٥٨ ، وان ازور ايضا ليبيريا والسنگال وساحل العاج ونيجيريا وتقرر أن يصاحبني في هذه الرحلة ايحود ويعقوب تسور ، سفيرنا الى فرنسا فيما بعد .

وكنت قد قابلت افارقة من قبل في اللقاءات الاشتراكية لكننى لم اكن قد زرت افريقيا وكنت اقضى الساعات الطويلة وانا افكر في الدور الذى يمكننا ان نلعبه في هذه القارة العظيمة لدى صحوتها . وبت اشعر بالفرحة وكأننى طفل صغير وبدأت اعد حقائبي (من عيوبى كمسافره - بالمناسبة - ان احمل اكثر مما احتاجه فعلا عندما اسافر) .

وكانت المحطة الاولى في مونروfia ، عاصمة ليبيريا ، حيث حللت ضيفة على الرئيس توبمان . وكانت الصفوة الاشتراكية والثقفة في ليبيريا تعيش في ظروف من الرفاهية الحادة بينما يعيش بقية الشعب في فقر مدقع . لكن ما شأنى ، لقد جئت لاقابل افريقيا لا لكى اعطى وكان الرئيس توبمان صديقا مخلصا لليهود .. والسبب في ذلك انه خلال علاقته الطويلة بالولايات المتحدة كان على صلة صداقة حميمة مع عضو يهودى من اعضاء مجلس الشيوخ هو ايمانويل سيلار . كان

ايمانويل هو الوحيد بين كل من اتصل بهم توبمان في واشنطن ،
الذى فهم مدى الوحدة التى يشعر بها قائد افريقى اسود ، في وقت لم
يكن احد فيه يولى مشاعر السود اى اعتبار . ولم اتمالك نفسى من
الاستجابة لعواطف توبمان الواضحة تجاه اسرائيل ولشعوره بتشابها .
وتمتعت برؤية افريقيا وقطعت مسافات طويلة في ليبيريا
وبرفقتى فتاة من وزارة الخارجية وفي اخر ايام زيارتى جاءتنى الفتاة
ولملمت منى ان اذهب معها لرؤية امها المعجوز التى لم تصدق انها
نرافق نسيفة من القدس قائلة انه لا يوجد على الارض مكان اسمه
القدس وانما القدس في السماء . وذهبت معها وقابلت امها التى اخذت
نعلوف حولى وهى تسألنى ، هل هناك حقيقة قدس على الارض فيها
شوارع ومنازل واناس حقيقيون ؟ ومع انى اكدت لها انى اعيش فيها ،
فابنى اعتقد انها لم تصدقنى .

ولعل ابرز احداث هذه الزيارة هو الاحتفال الذى نصبت فيه رئيسا
أعلى لقبيلة جول (وكانت هذه القصة في اسرائيل مثار دهشة اذ ان
كلمة جول في اللغة العبرية تعنى الشتات ، كان ذلك واحدا من اكثر
لحظات حياتى اثارة ، واعترف اننى وقفت ورجل القبيلة يرقصون
ويغنون حولى ، وانا لا اكاد اصدق ان كل هذا التكريم يجرى من
اجلى انا جولدا مائير . وصممت على ان تأتى تصرفاتى خلال الحفل
وكأنى معتادة على مثل هذه الامور طوال حياتى ثم اقتادتنى مائتان
من النسوة الى داخل كوخ حيث البسنى رداء الرئيس الاعلى المزركش
ولن انسى نظرات الفزع في عيون مرافقى الاسرائيليين عندما اختفيت
في ظلام الكوخ ثم علامات الارتياح التى ارتسمت على وجوههم عندما
خرجت منه سالمة . المهم ان هذا الاحتفال ازال عنى الاحساس بالغربة
في اى مكان زرته في افريقيا بعدئذ

ثم انتقلنا من ليبيريا الى غانا اول دولة افريقية تحصل على استقلالها : حيث التقيت بكوامى نكروما الذى كان بمثابة شبه إله القومية الافريقية انئذ . وكان مستحيلا الا اعجب بنكروما لولا حديثه الطويل عن الاستقلال الرسمى وحرصه على ان يظل هو رمزا للتحرر الافريقى كنا نتحدث على مستويين مختلفين . فكان مهتما بأمجاد الحرية بينما كنت اتحدث عن تطوير ثروات افريقيا والتعليم والصحة وغيره واعتقد اننا بعد ساعات طويلة من الحديث لم يتمكن احدا من اقناع الآخر .

كنت اتحدث عن الامور العمالية بينما كان نكروما يستعرض مواهبه الخطابية واذكر انه حدثنى عن تمثاله الذى وضعه امام مبنى البرلمان في اكرا . وان الاستقلال لا يعنى شيئا لدى سكان الاحراش . فهم لا يعرفون معنى الكلمة . لكنهم عندما يرون صورتى على العملة المعدنية بدلا من صورة الملكة . فإنهم عندئذ فقط سيدركون معنى الاستقلال . ومع هذا الاختلاف بيننا فإن العلاقات الوثيقة نمت إلى حد كبير بين اسرائيل وغانا وتمثلت في برامج التدريب واعمال الانشاء والهندسة . كما ساعدنا على انشاء وإدارة شركة الملاحة الغانية .

وقد التقيت بعدئذ بقيادة افريقيين آخرين . من بينهم الرئيس هوقويه بوانييه رئيس ساحل العاج (وهو من نفس قبيلة نكروما ولا يتحدثان الا بلفتهما القبليه لان نكروما لا يتكلم الفرنسية وبوانييه لا يتكلم الانجليزية) وكان على العكس من نكروما يرى ان التنمية نماثل الاستقلال اهمية . ويدرك الاخطار التى قد يواجهها الافارقة فيما لو اصرروا على الاستقلال دون اعداد كاف . ولكن بوانييه - هو الآخر - استسلم في نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٧٣ وقطع علاقاته معنا . شارحا بحزن انه اضطر للاختيار بين « اشقائه » العرب و « اصدقائه »

الاسرائيليين . لكننا على اية حال نتحدث الآن عن عام ١٩٥٨ ، وكانت الامور حسنة .

وبالرغم من ان لقائى الاول بنكروما كان محزنا ، فإن زيارتى لغانا كانت هامة جدا لكل عملنا في افريقيا فقد كانت غانا تستضيف مؤتمر كل شعوب افريقيا الذى يضم ممثلى كل حركات التحرير الافريقية بما فيها جبهة التحرير الوطنى الجزائرية وكنت قد التقيت بالدكتور جورج بادامور ، وهو شيوعى سابق من الهند الغربية وقد اصبح اهم المفكرين والايديولوجيين لحركات التحرر « التقدمية » وهو صاحب نظرية تنمية افريقيا بالاعتماد اساسا - كما قال - على زواج الولايات المتحدة الامريكية وعلى النداء اليهودى الموحد واصر بادامور على ان التقى بممثلى افريقيا المجتمعين في اكرا في فندق امباسادور .

ودخلت إلى قاعة الاجتماع فوجدت ستين قائدا إفريقيا حَوْلَ مائدة الاجتماع . وقدمنى اليهم بادامور . وما هى الا لحظة حتى وقف مندوب الجزائر ووجه السؤال الى مباشرة لماذا يأتينى السلاح من فرنسا وهى الدولة الوحيدة التى تحارب بشراسة في بلده وضد اخواته الافريقيين . وبهدوء اشعلت سيجارتى وقلت للجميع اننى مضطرة إلى حماية بلدى من جيرانى الذين يأتهم السلاح من الاتحاد السوفيتى وان البلد الوحيدة المستعدة لبيع السلاح لى مقابل المال هى فرنسا . وقلت لهم انه لو كان ديوجول هو الشيطان نفسه لمددت اليه يدى لشراء السلاح . فهل كنتم تفعلون مثلى لو كنتم في مكائى ؟ وسمعت اهات الارتياح .. فقد عرف الافريقيون اننى لا اكذب عليهم ، وانهاالت اسئلتهم على عن اسرائيل

واستمر هذا الحوار مع الآفارقة طوال فترة اقامتى في غانا ، بل وساهم في ارساء قواعد برنامجنا للتعاون الدولى واستطعت ان اكسب

احترام وصداقة الافريقيين الذين اعربوا عن تشوقهم إلى العمل مع الاسرائيليين . ولم يكونوا معتادين على البيض الذين يعملون بأيديهم في مواقع العمل بعيدا عن مكاتبهم .

واعتقد اننا نجحنا مع الافريقيين لاننا لم نتصرف بالاسلوب الذى كانوا يتوقعونه منا كأجانب ولقد ساعدنا بذلك على بناء الثقة بالنفس لدى الافارقة وجعلهم يؤمنون بأنهم يمكن ان يصبحوا جراحين وطيارين وزراع وغيره على عكس ما ادخل في عقولهم من انه حق قاصر على الابيض فقط .

وحاول العرب من جانبهم انئذ ان يقنعوا الافريقيين بأننا لا نختلف اساسا عن غيرنا من « الاستعماريين » غير ان الافريقيين فهموا جيدا ان الخبراء الاسرائيليين عندما عملوا في مزارع الدجاج في زامبيا لم ينتجوا دجاجا « استعماريًا » ، او ان مشروع تعبئة السمك مع مالى لم ينتج سمكا « امبرياليا »

ووضعنا ثلاثة معايير لاي مشروع ، كنا نوجهها في صورة اسئلة لدى طرح اى مشروع جديد ، هل المشروع مرغوب فيه ؟ وهل هناك حاجة اليه ؟ وهل تستطيع اسرائيل المساعدة فيه ؟ وكنا لا نشرع في اى مشروع الا اذا كان الرد بالاجاب على الاسئلة الثلاثة . وهكذا عرفت الدول الافريقية اننا انفسنا قادرين على حل مشاكلهم .

واعتمدت على زيارة افريقيا والتلاؤم مع متاعب الرحلات فيها . وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٩ زرت الكاميرون . ثم عدت إلى غانا ومن هناك توجهت للمرة الأولى إلى توجو (حيث ساعدنا على انشاء حركة للشباب وقرية تعاونية ، . وذهبت إلى غينيا حيث التقيت بالرئيس سيكوتورى ، وهو القائد الافريقى الوحيد الذى لم استطع تكوين صداقة معه رغم اعجابى بقدراته الثقافية وكان مثل نكروما ونيريرى

رئيس تانزانيا ، مهتما بموقف بلاده الدولي اكثر من اهتمامه برفاهيتها . ورغم انه كان تقدما يساريا ، فلم يبد عليه ان لديه مفاهيم اجتماعية ولذا لم يكن هناك الكثير مما يمكننا ان نقدمه له . على اية حال لم تكن غينيا صديقة لاسرائيل ، ولم ادهش عندما قطعت علاقاتها باسرائيل عقب حرب الايام الستة .

وانشأ الهستدروث في اسرائيل المعهد الافريقي الاسوى ، كما اشتركنا في الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة والمهتمة بالدول النامية . وفي صيف ١٩٦٠ ، وبتوجيه من ابا ايبان (الذى كان قد عاد من مهمته الناجحة كسفير لاسرائيل في واشنطن) ، والذى اصبح في ١٩٦٦ خليفتي في وزارة الخارجية) تم عقد المؤتمر الدولي للعلوم واثراها في تقدم الدول الجديدة وذلك في معهد وايزمان للعلوم في رجبوت . وكان الهدف من المؤتمر هو استكشاف الوسائل الكفيلة بأن يقوم العلم والتكنولوجيا بخدمة الدول حديثة الاستقلال وكان نصف المشتركين في المؤتمر من الافارقة والآسيويين والنصف الآخر من العلماء البارزين الاوروبيين والامريكيين . واصبح انعقاد هذا المؤتمر تقليدا كل عامين حيث يتناول واحدا من الموضوعات كالزراعة او الاقتصاد او التعليم . اما المشروع الآخر الذى اعتز به ، ومازال قائما ، فهو مركز جبل الكرمل* للتدريب على الخدمة الاجتماعية . ومازال هذا المركز يخرج النساء الوافدات من دول افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية بعد تدريبهن على اداء دور حيوى في تنمية بلادهن . ويحتل هذا المركز مكانة بارزة في قلبى لاننى ساهمت في تأسيسه بالتعاون مع انجه ثورسون السويدية ومينا بن زئى الاسرائيلية ، ولأننى كنت اكن اعجابا كبيرا لهؤلاء النساء اللائى يتركن عائلاتهم وبلادهن سعيا وراء تلقى علوم تنفعهن وتنفع اولادهن فيما بعد .

ولم يقتصر نشاطنا في تدريب الافريقيين على داخل اسرائيل ، اذ انشأنا بالتعاون بين غانا ومركز جبل الكرمل مدرسة لتدريب العمال الاجتماعيين في كينيا . وقمت بإفتتاح هذه المدرسة في عام ١٩٦٣ في أول جولة لى في شرق افريقيا زرت فيها كينيا ، وتنجانيقا واوغندا ومدغشقر ، على متن طائرة صغيرة كانت تهبط بين الحين والاخر في موقع يعمل به خبير اسرائيلى .

ولم يكن ذلك يعنى ان كل الاسرائيليين نجحوا ، فقد فشلت مشاريع عديدة . لكننى كنت افرح برؤية الافريقيين الذين تدرّبوا في اسرائيل وهم يطوفون بى في مزارعهم او عياداتهم الطبية في افريقيا ، متحدثين معى بالعبرية . وهؤلاء لا اظن انهم يعتبروننى في قرارة انفسهم « عدوة » لهم ، بصرف النظر عما قد يقولونه علنا

وتعلّمت خلال هذه الرحلة الكبيرة في شرق افريقيا شيئا هاما ، هو اننا يجب ان نغير من اسلوبنا في الترفيه عن ضيوف اسرائيل الرسميين ففى كل مكان ذهبت اليه كانوا يصرون على اصطحابى في جولات لمشاهدة المعالم والطبيعة تستغرق كل منها ١٢ ساعة ، تليها ولائم حافلة تتخللها الخطب الطويلة وكنت اجلس في هذه الوائم ، منهكة القوى . افكر في ان نفس ما أنا فيه الآن سوف يتكرر غدا واقسمت على ان اعمل عند عودتى إلى اسرائيل على اختصار جوانب كرم الضيافة والحماس ، واعترف اننى لم انجح في ذلك كثيرا .

ومرضت فاضطرتت إلى اختصار الرحلة رغم ان ذلك كان يعنى الغاء حفل الاستقبال الذى اعدّه لى ميلتون اوبوتى رئيس اوغندا ، الذى اقضاه فيما بعد عيدى أمين . ويخطر لى الآن ان اوبوتى وامين يمثلان طرفى نقيض فعلى عكس امين كان اوبوتى معتقلا ، جادا دوبا ، ومؤثرا . ولم اكن قد عرفت امين عندما كان يتلقى تدريبيه على القفر

بالمظاهرات في اسرائيل لكننى سمعت حينئذ انه كان شاذا غريب
الاطوار . وقد اقمعتنى مقابلتى الاخيرة له في القدس . كرئيسة للوزراء .
انه مجنون بالمرّة . بل ان الحوار الذى دار بيننا يصلح لان يؤديه
شارلى شابلن على المسرح .

بادرنى بقوله بكل جدية. « اريد بعض الطائرات الفانتوم »
فأبدت دهشتى وقلت له اننا لا نضعها ولكننا نشترىها من الولايات
المتحدة .. ثم سألته لماذا يريدونها فأجاب « لاستعملها ضد تانزانيا » بعد
ذلك بعث الى برسالة يقول فيها انه محتاج إلى عشرة ملايين من
الجنيهات الاسترلينية على الفور . ولم يجد جوابا على طلبه . وهنا
غادر اسرائيل على الفور واتجه إلى العقيد القذافى في ليبيا . وقطعت
اوغندا علاقاتها باسرائيل في ١٩٧٢ . اى قبل عام ونصف من حرب يوم
الغفران .

واعتقد ان السر في العلاقة الطيبة بينى وبين كثير من القادة
الافريقيين هو اننى كنت اتصرف وفق ما اقله . وانهم رأونى وانا
اتصرف على هذا النحو ففى ١٩٦٤ . على سبيل المثال . شاركت في
احتفالات زامبيا (روديسيا الشمالية سابقا) بيوم الاستقلال وتضمنت
الاحتفالات زيارة الشخصيات الهامة لشلالات فيكتوريا بين حدود
زامبيا وروديسيا الجنوبية . ووصلنا بالآوتوبيسات إلى الحدود فما كان
من الشرطة الا ان منعت السود من النزول وقال الضابط « البيض
فقط » وعندئذ قلت « اذا فأتا لن ادخل روديسيا الجنوبية . ولن انفصل
عن اصدقائى » وعدنا بالسيارات إلى لوزاكا حيث استقبلنى كاوندنا كما
لو كنت جان دارك . لا كسيدة لم تحتل ممارسة التفرقة العنصرية
بأى شكل .

وكان مقررا ان استقل طائرة خاصة من نيروبي لتقلني إلى
نيجيريا وتلقيت في مطار نيروبي مكاملة من السفير الاسرائيلي يحذرني
فيها من المجيء إلى لاجوس لان زوجات السفراء العرب قرروا القيام
بمظاهرة ضدى ، كما ان معظم الوزراء يقومون بجولات انتخاية
تمهيدا للانتخابات العامة . لكننى مع شعورى بالتعب والارهاق قررت
السفر إلى لاجوس ، وبدلا من ان اجد هناك مظاهرات معادية .
وجدت مظاهرة مؤيدة تضم اولئك الذين تدرّبوا في اسرائيل او درّبهم
اسرائيليون في نيجيريا . واستقبلنى الرئيس ايزكوى قائلا « نحن
نحترمك ونحييك كسفيرة لحسن النية الحقيقى » .

اما في آسيا فقد قضيت فيها وقتا اقل ، وان كنت اقابل دائما
بالترحاب . كانت آسيا بعيدة عن نطاق الاهتمام باليهود والتوراة في
حين ان افريقيا كانت على وعى بالعهد القديم عندما دخلتها المسيحية
بل وكثيرا ما قابلت في افريقيا من يدعون « شاءول » و « موسى » و
« صمويل » (اما في آسيا فكانت هناك ضرورة لان نفسر ونشرح للناس
من نحن ومن نكون . وقد حكى رئيس وزراء بورما الاسبق اونو
لسفيرنا في رانجون ، انه لم يكن يعلم شيئا عنا إلى ان عثر بالصدفة
على كتاب قرأه فعرف من هم اليهود اما سر العلاقة الوثيقة بين اونو
وبن جوربون فسببها ان اهتمام بن جوربون بالبوذية جاء متأخرا
وهو كبير في السن .

وقبل ان احكى عن رحلاتى إلى الشرق الاقصى فإننى اكرر ما
قلته من قبل وهو ان الصين هى الدولة الآسيوية الوحيدة التى لم ننجح
معها . وهناك من يقولون اننا لم نبذل جهدا كافيا لكسب صداقتها
لكننى على يقين من انه لم يكن بوسعنا ان نقبل اكثر مما فعلناه ففى
عام ١٩٥٥ ارسلنا بعثة تجارية إلى بكين ووجهنا اليهم الدعوة

لزيارة اسرائيل ، لكنهم لم يلبوها وفي مؤتمر باندونج في اواخر هذا العام بدأ التقارب المصرى الصينى وكان موقف الصين العنيف بعد معركة السويس ثم التأييد المطلق للعرب والواقع ان الحكومة الصينية مرتبطة بالحرب العربية ضد اسرائيل ، ومازال السيد عرفات ورفاقه يحصلون على الاسلحة والاموال والدعم من بكين وكنت على يقين من اننا سوف ننفذ إلى الصين بمجرد ان نتحدث معهم ولو مرة واحدة .

وهناك صورتان تقفزان إلى ذهنى كلما ذكرت الصين احدهما صورة اللغم المصنوع في الصين والذى اودى بحياة طفلة في احدى مستعمرات الحدود . اما الثانية فأثناء حفل عيد الاستقلال في كينيا اذ جاءت مائدتنا مجاورة لمائدة الوفد الصينى وفكرت في ان جو الحفل قد يساعد على ان اتحدث معهم وطلبت من ايحود اقربيل ان يقدم نفسه للصينيين فذهب ايحود ومد يده لرئيس الوفد الصينى قائلا ان وزيرة خارجيتى تريد الحديث معك واكتفى اعضاء الوفد بأن اداروا انظارهم إلى الناحية الاخرى دون حتى ان يرفضوا

ولكننى لم أياس فقد كان صديقى الاشتراكى الايطالى بترونينى مدعوا لزيارة الصين . وعندما التقينا في القدس طلبت اليه ان يتحدث مع الصينيين عن اسرائيل وقد فعل الرجل ذلك فعلا محاولا شرح ماهية اسرائيل لكن المسؤولين الصينيين كانوا لا يولون الامر اهتماما . وبالطبع وصفونا بأننا « دمية في يد الولايات المتحدة » بل قال له احدهم لو ان كل مجموعة من ثلاثة ملايين انشأت لها دولة ، فلك أن تتصور كيف سيكون العالم .

وكم كنت اتمنى لو ان احدا من اولادى صاحبنى في رحلاتى ، فسارة لم تكن تحب مغادرة ريشثيم ومناheim لم يكن يفضل ترك آيا (واولادهما الثلاثة عمنون ودانييل وجدعون) أو آلة التشيلو وكنت

اعود دائما محملة بالهدايا والأقمشة المشغولة والاقنعة الخشبية لكننى كنت اتمنى ان يروا ما اراه وان يقابلوا من اقبالهم وكنت دائما افكر في الشعور الذى يساور اولادى وأحفادى ازاء هذه الحياة التى اعيشها وانا احب احفادى الخمسة ، واتمنى الا يروا حروبا اخرى .. لكننى لا استطيع ان اعدهم بذلك .

وظللت الح على ساره ومناحيم الى ان وافقا على ان يصطحباني . كل على حدة . في رحلتين . وسافرت معى سارة عام ١٩٦٢ في زيارتي إلى كينيا وإلى اثيوبيا حيث قدمتها للامبراطور هيلاسيلاس . وقد كانت العلاقات بين اثيوبيا واسرائيل قوية وذات طبيعة خاصة . ومع ذلك قطعت اثيوبيا علاقاتها بنا في عام ١٩٧٣ . وكان هيلاسيلاس قد لجأ مع عائلته إلى القدس اثناء الاحتلال الايطالى لبلاده ومكث فيها عاما كاملا كنت اراه خلاله وهو يتنزه مع الامبراطوره في شوارع القدس . ولم يكن لاجئا عاديا . فهو سليل الملوك الاثيوبيين الذين يقولون بأنهم نسل ابن الملك سليمان والملكة سبأ ، وعليه فهم اقرباء لنا

ومع ان اثيوبيا دولة مسيحية فإنها كانت افريقية . وبالتالى وقعت تحت ضغط العرب . واصر هيلاسيلاس على الاحتفاظ بعلاقاته معنا سرا . ولم تكن من جانبنا نعلن عنها كما ساهمت معركة سيناء بفتح مضائق تيران . على تدعيم التجارة بيننا ولم تبهر ساره بهيلاسيلاس مثلى . ومع ذلك تخلى عنا وقت شدتنا وتأكدت - ولم اكن في حاجة إلى دليل - من انه لا يجب لاحد ان يعتمد على احد الا على نفسه .

وفرحتى عندما ابلفنى مناحيم أنه سيسافر معى إلى اليابان وقد استقبلنى هناك كل من الامبراطور ورئيس الوزراء ووزير الخارجية وكان هيروहितو رقيقا دمثا لكن اليابانيين لم يلزموا انفسهم بشيء فيما

يتعلق بالشرق الاوسط ، وكانوا يتناولون الموضوع وكأنه عملية ترتيب للزهور يجب ان تتوازن كل عناصرها بدقة .

وقال يعقوب شيمونى (رئيس قسم الشرق الاقصى) لمناحيم ونحن على متن الطائرة انه نظرا لان جولدا امرأة ووزيرة خارجية فإن اليابانيين لم يدرجوا في برنامج الزيارة حفلا لفتيات الجيشا وفق عاداتهم في الحفاوة بضيوفهم وعندما وصلنا إلى طوكيو طلبت إلى مناخيم ان يبلغ اليابانيين ترحيبى بمشاهدة حفلة الجيشا ، وبالفعل اقيم الحفل في كيتوتو وتمتعت به وقد تأثرت ، كغيرى من الناس إلى حد كبير بجمال اليابان وقدرة اليابانيين على خلق الجمال في كل جوانب حياتهم اليومية 'كما قابلت عددا من اليهود اليابانيين ، او الذين تحولوا إلى اليهودية وكان احدهم - لدهشتى - من افراد العائلة الامبراطورية .

وتوجهنا من اليابان إلى الفلبين ، حيث منحت درجة فخرية من الجامعة الكاثوليكية في مانिला . وجرت مراسيم الاحتفال وسط القساوسة وحملة الصليب وكان بذهنى ان هناك عددا من المعاهد والجامعات لا تقبل حتى الآن الا القليل من اليهود ، بينما انا اليهودية امنح هذه الدرجة من جامعة مسيحية وهنا تذكرت ولم تكن تلك هى المرة الأولى - رسالة شينا التى حذرتنى فيها بقولها « اياك ان تنسى من انت » ولم اكن في حاجة إلى تحذير فقد كنت اعى جيدا اننى لا اتلقى التكريم لجمالى او حكمتى او علمى ، فأنا لم انس اننى من عائلة فقيرة .

ثم زرنا بورما . وكانت العلاقات بيننا قوية منذ ١٩٥٢ . عندما قام وفد من الاشتراكيين في بورما بزيارة اسرائيل كما قام شاريت به عام بزيارة رانجون لحضور المؤتمر الاشتراكى الآسيوى الأول وبحلول عام ١٩٥٥ كانت العلاقات الدبلوماسية الكاملة قد اقيمت بر

بورما واسرائيل وعين دافيد هاكوهين سفيرا ، وجاء اونو رئيس وزراء بورما إلى اسرائيل ضيفا على بن جوريون .

ولا اظن ان هناك علاقة حب عنيفة كالتى نشأت بيننا وبين بورما فلم يبق في اسرائيل شىء الا اعجب به البورميون وترسموا خطاه ونظرا لكونهم الدولة الاشتراكية الآسيوية الوحيدة ، فانهم ارادوا نوعا من الهستدروث ، والكيبوتز والجيش ولما كانت حدود بورما تتاخم حدود الصين فقد كان الحل هو « الناحال » (الحروف الاولى ، للشباب الطلائعى المقاتل) ، حيث نصحتهم ببناء مستعمرات على الحدود يعمل فيها الناس بالزراعة ويدافعون عن انفسهم وعرضت عليهم ايفاد جماعات كبيرة من الجنود البورميين المسرحين إلى اسرائيل لمدة عام للعمل في الموشاف (القرى التعاونية) مع ايفاد الاسرائيليين إلى بورما لانشاء الموشاف هناك .

وكانت هناك عدة مشاريع اخرى منها انشاء صناعة للأدوية في بورما ، وتخريج الاطباء والمرضات - وانشاء نظم للرئى لكننى كنت شغوفة بالذهاب الى منطقة الموشاف في نامسانج . وقد رافقتى في رحلاتى عبر بورما نى وين الذى كان رئيسا لاركان الحرب انئذ . وان هى الا اسابيع قليلة حتى استولى على السلطة واعلن سياسة جديدة مشايعة للروس ومناهضة للامريكيين . صحيح ان ذلك لم يمه العلاقات التجارية بين بورما واسرائيل ، لكنه انهى قصة الحب .

وعدت إلى اسرائيل محتاجة الى الراحة غير انى في الاعوام ٦٤ و ٦٥ و ١٩٦٦ انطلقت ثانية إلى الفضاء الخارجى ، إلى اوربا وافريقيا وامريكا اللاتينية وكنت على الدوام مريضة فقد بدأت اشعر بالتعب من كثرة السفر . ثم اننى لم اعد صغيرة السن كما كنت من قبل ، فقد احتفلت في عام ١٩٦٣ بعيد ميلادى الخامس والستين ولم تكن الطاقة قد انتهت عندى .

لكنى كنت اتمنى لو اتيح لى وقت اخلو فيه الى نفسى او ازور فيه
اصدقائى القدماى دون ان يتبعنى الحراس . وكنت مهما حرصت على
ان ابدأ يوم العمل مبكرا لا انتهى منه الا في الساعات الاولى من صباح
اليوم التالى .

لكن الامر لم يكن يخلو من ترويح عن النفس كتلك الحفلة التى
اقمتها عام ١٩٦١ لزملائى الذين جاءوا معى على ظهر الباخرة إلى
فلسطين منذ اربعين عاما .. اذ كنت اريد ان ارى من منهم قد استقر
في اسرائيل ومن عاد منهم إلى الولايات المتحدة وكان محور الحديث
والنقاش بينى وبين زملائى في الماباى في تلك الايام هو انخفاض
سبة المهاجرين اليهود القادمين الينا من الغرب وكان بعضنا يرى ان
من الصعب عليهم ان ينتقلوا إلى وطن جديد تحوطه المخاطر وان
بضخوا بمستوى معيشتهم الحالى . ثم ان الناس لم يعودوا مثاليين
وعالميين كما كنا بالامس ومع ان الغضب كان يستبد بى ازاء تردد
هؤلاء اليهود في الهجرة . فإنتى لم اكن على استعداد في هذه الفترة من
تاريخ اسرائيل ان اطلب منهم الا يعتبروا انفسهم اسرائيليين وانما
« اصدقاء لصهيون » . وفقا للصيغة المخففة التى اقترحها بن جوريون في
ثورة غضه .

المهم اننى اردت ان اقابل التسعة عشر رجلا وامراة الذين رافقونى
على ظهر الباخرة إلى فلسطين . ولانى لم اكن اعرف عناوينهم فقد
نشرت اعلانا في الصحف ادعوههم إلى حفل في منزلى هم وأزواجهم
وروجاتهم واطفالهم واحفادهم لكن معظمهم لم يأت فإما كانوا قد ماتوا
أو اسبحوا كهلة بينما عاد واحد منهم إلى الولايات المتحدة نهائيا
وحضر سبعة او ثمانية منهم . ورفضت بشدة الحاج الصحفيين ان
يحصروا الحفل ولو لعدة دقائق .. فقد كانت الذكرى شخصية . وبعد
ان انتهى الحفل وانصرف المدعوون . خلوت إلى نفسى في الحديقة .

اسرح بأفكارى عبر هذه السنين الاربعين واتمنى لو ان موريس كان معنا

واحسست في نهاية عام ١٩٦٥ اننى في حاجة إلى التغيير . وكانت الحملة الانتخابية في هذا الصيف قد انهكت قواى وساءت احوال الصداق النصفى الذى يصيبنى وبدأت اشعر ان المسئوليات التى حملتها على كتفى ثلاثين عاما قد بدأت تثقل كاهلى ولم اكن اريد ان احب إلى الابد . لكننى لم اكن ايضا اريد ان احيا نصف مريضة باخضرار كنت في حاجة إلى عملية شحن بعد التعب وكانت الاحوال الداخلية سيئة فالاقتصاد متعب ، والهجرة إلى الخارج تتزايد وفضيحة لافون مازالت اثاثها بادية بين صفوف حركة العمل ولم اكن ارى كارثة تحدث اذا انسحبت من الحياة العامة فالحزب سيضمحل جراحه . وليس بوسعى حل المشكلة الاقتصادية التى كانت نتيجة لقرب انتهاء التعويضات الالمانية في الوقت الذى لم تنخفض فيه لا ميراثه الدفاع ولا المقاطعة العربية

وجاءت احزاني الشخصية لتضيف المزيد إلى هذه الاحزان كانت صحة شينا قد ساءت . وكما حدث مع امى . فإن الكهولة اصابت جسدها وعقلها وحاول ليفى اشكول (الذى اصبح رئيسا للوزراء) وبنحاس ساير (وزير المالية) اقناعى بالعدول عن الاستقالة لخصى لم اكن اجد سببا للتمسك بالوزارة في الوقت الذى كان فيه اما اسان بعد نفسه لتوليها . وعرض على اشكول منصب نائب رئيس الوزراء . لكن العرض لم يستهونى واكدت لاشكول اننى لن اعترل الحياة السياسية وانه خير لى ان اكون جدة طوال الوقت عن ان اكون وزيره بعض الوقت . وقلت له اننى اريد ان اقرأ كتابا او ان استمع إلى الموسيقى . كما اننى لا اريد ان ارى مطارا لعدة سنوات مفصلة .

الفصل الثانى عشر

نحن .. بمفردنا !!

احتججت الى عدة شهور لكى أرتب تقاعدى .. وبادىء ذى بدء
 كان على أن أنتقل من القدس الى منزل فى احد ضواحي تل ابيب ،
 ملاسق تماماً لمنزل مناحيم وأيا . ولم يقتصر الأمر على مجرد الانتقال
 من مدينة الى أخرى ، فقد كان على أن أقرر ما هى الاشياء والهدايا
 التى سأخذها معى وتلك التى سأتركها . وكانت أمامى اكوام من
 مخلفات الرحلات الكثيرة التى قمت بها خلال الخمس والعشرين سنة
 الماضية . وجاءت كلارا من امريكا ، حيث ساعدتنى هى ولو فى
 اختيار الكتب والهدايا واللوحات التى كانت تحمل عندى معان
 خاصة . لكننى كنت على يقين من أننى لن احتاج مرة أخرى الى جمع
 حاجياتى من جديد بعد الآن

وكان منزلى الجديد - وهو الذى مازلت اسكنه - يبلغ من حيث
 الحجم ربع مقر وزير الخارجية الذى شغلته تسعة اعوام ، لكنه كان
 مريحاً ووافياً بحاجتى . ففئة غرفتا معيشة وطعام مشتركتين تحيطهما
 ارفف المكتب ، وتؤديان الى الحديقة التى اشترك فيها مع عائلة
 مناحيم وزوجته ، وهناك درج يؤدي إلى الطابق الأعلى حيث توجد
 غرفة نوم ومكتب كنت استقبل فيه الضيوف احياناً .

ولم تصدق عائلتى أننى سأعتاد على الحياة العادية .. لكننى
 بالفعل كنت أحس أننى حرة ، كالسجين الذى اطلق سراحه . فأنا

أشترى حاجياتي واستقل المواصلات العامة . واطبخ بل . وأنظف المنزل . واعدت قائمة بالكتب التي سأقروها وبالاصدقاء الذين لم اراهم منذ سنين . كنت أحس أنني خرجت في الوقت المناسب قبل أن يقول قائل « أما ان لهذه المرأة العجوز ان تدرك أن الوقت قد حان لكي تتقاعد ؟ » .

واعترف أنني كنت القى من الجمهور احياناً معاملة خاصة . فأصحاب الحوانيت كانوا يرسلون حاجياتي الى المنزل لكي لانحمل وزيرة الخارجية السابقة الاكياس . وسائقو الاوتوبيس كانوا يقفون احياناً عند باب البيت حتى لا أسير طويلاً . المهم اننى تحررت من قيود المكاتب والرسميات . لكننى بقيت ملزمة بكل ما يحدث في البلد . فأنا عضو في الكنيسة وفي اللجنة التنفيذية للماباى . وفي كلا المكانين كنت أعمل وفق ما احب واشتهى . باختصار كنت راضية عن كل شىء ..

وكان مفروضاً ان أتوقع ان هذا الهدوء الجديد الذى سررت به لن يستمر طويلاً . فقد الح زملائي في الحزب على ان اعود للعمل متفرغة طوال الوقت . ولو مؤقتاً كى أعمل على توحيد قطاعات حركة العمل التى اهتزت اخيراً بسبب قضية لافون . وكان هذا هو الوقت الذى تنحتم فيه الوحدة . فقد وصلت الاحوال الاقتصادية حداً من السوء هدد بنهاية قيادة حزب العمل للبلاد ما لم تتحقق الوحدة والحيه الموحدة على الفور . كان حزب الماباى قد انهكه انشقاق حزب رافى . ندى رأسه بن جوربون وديان) . قبل ان تلتئم . جراحة اثر الانشقاق المبكر (عام ١٩٤٤) لحزب احدثوا عفوذا . واثرت تشكيل حزب المابام الماركسى بعد ذلك بأربعة اعوام . ويأتى التأييد للمابام من اعضاء الكيبوتز والمثقفين من الشباب الذين ينادون بنفاز اسرائيل

سوفيتى ويؤمنون بإمكانية تحقيق ذلك لو أن اسرائيل أرادت ذلك بالفعل .

ولم تكن الخلافات بين المabay واحدوت ها عفودا والمابام من الكبر بحيث تمنع قيام جهة عمالية موحدة وتحتم وجود شخص يستطيع أن يوفق بين الاراء ويصلح النزاعات ، بشرط أن يكون هذا الشخص - كما قال لى زملائى - ملتزما بفكرة الجهة العمالية الموحدة القادرة على احتواء خلافاتها ، وأن يكون لديه الوقت لتحقيق ذلك . وقالوا لى أنه ليس هناك سوى للقيام بهذه المهمة ، والا فانها لن تتحقق . واكدوا لى أنه ما أن يتم هذا التوحيد فان باستطاعتى عندئذ أن اعود الى التقاعد وطلبوا منى أن اكون السكرتير العام لحزب المabay ..

ولم يكن بوسعى أن أرفض هذا الطلب . لاثقة منى بنجاحى . ولا رعة منى فى العودة إلى قلب الاحداث . ولا احساساً بالملل . بل لسب بسيط هو أننى كنت على يقين من أن الحركة العمالية فى خطر . واثرت أن أضحي بالهدوء والراحة اللذين نعمت بهما عدة أشهر على أن أخذل زملائى . وهكذا وافقت وعبت إلى العمل والسفر والاجتماعات المستمرة والارتباط بجدول المواعيد . لكننى وعدت نفسى - وأولادى - أن تكون تلك هى اخر وظيفة اقبلها .

وكانت تلك الفترة قد شهدت احداثاً فى الشرق الأوسط أكبر من الحلاوات فى الحركة العمالية . وفى عام ١٩٦٦ كان العرب قد اتخذوا اهتمامهم لجولة جديدة من الحرب . وظهرت الاعراض واضحة . بل بدأيا فى الواقع نرى نفس المقدمات التى سبقت معركة السويس عام ١٩٥٦ . فمثلما فعل الفدائيون فى الخمسينيات . اصبحت عصابات الارهابيين تقوم بعملياتها من غزة والاردن بتشجيع من الرئيس عبد

الناصر . وفي عام ١٩٦٥ تأسست منظمة جديدة تحت اسم فتح . يرأسها ياسر عرفات ، أصبحت أقوى العناصر واشهرها في منظمة التحرير الفلسطينية . وتشكلت قيادة عسكرية موحدة سورية ، وخصص مؤتمر القمة أموالاً طائلة لتكديس السلاح لاستعماله ضد اسرائيل . وتدفقت الاسلحة والاموال من الاتحاد السوفيتي على الدول العربية . وظهرت نية السوريين جلية في تصعيد الموقف ، عن طريق القصف اليومي للمستوطنات الاسرائيلية الواقعة تحت مرتفعات الجولان ، واعمال القناصة .

وفجأة بدأ الاتحاد السوفيتي في اتهام اسرائيل بحشد قواتها من اجل هجوم شامل على سوريا . وكان الاتهام سخيفاً ، اكدت الأمم المتحدة بعد التحقيق فيه انه لا يقوم على أساس . ومع ذلك مضى الاتحاد السوفيتي في اتهامنا بـ « العدوان » المبيت ، واستمرت الغارات السورية على مستوطنات الحدود ، وكلما تزايدت الغارات السورية تكفل سلاح الطيران الاسرائيلي بالهجوم ضد الفدائيين . وفي شهر ابريل (نيسان) ١٩٦٧ اشتبك الطيران الاسرائيلي في معركة مع الطيران السوري سقطت فيها ست طائرات من طراز ميغ . وعلى الفور ، وبتشجيع من الاتحاد السوفيتي ، اثار سوريا ضجة حول الهجوم الاسرائيلي الكبير ضدها ، بل وقدمت شكوى في هذا الصدد إلى أشكول عن طريق السفير السوفيتي شوقاخين . وكان هذا الحادث من اسباب تفجر الموقف وشد زناد الحرب .

وقال السفير الروسي لاشكول ان هناك ، برغم تصريحاتنا الرسمية ، حشوداً هائلة من القوات الاسرائيلية على طول الحدود السورية . وهنا لم يكتف اشكول بالنفي ، بل طلب إلى السفير الروسي زيارة الحدود الشمالية كلها ليرى بنفسه الموقف هناك ، وعرض

عليه ان يصاحبه . لكن السفير السوفيتى اعتذر بأعماله الأخرى . في حين أن الجولة لم تكن لتستغرق منه عدة ساعات . يعود بها بالدليل على انه لا مبرر للانذار السورى . وعندما رفض القيام بهذه الرحلة . كان في الواقع ينفخ الروح في الكذبة التى أدت فيما بعد إلى دخول عبد الناصر في الصورة . ثم الى حرب الايام الستة .

وقام عبد الناصر في اوائل مايو (ايار) بالاستجابة الى ما أسماه « بورطة » السوريين . فأمر القوات والمدركات المصرية بالاحتشاد في سيناء . وحتى لا يسيء احد فهم نواياه . فقد اعلن راديو القاهرة بوضوح « ان مصر بكل مواردها . مستعدة للدخول في حرب تكون فيها نهاية اسرائيل » .

وفي ١٦ مايو (ايار) تحرك عبد الناصر ثانية . لكنه في هذه المرة لم يأمر جيشه وانما أمر الأمم المتحدة . فطلب من قوات الطوارئ الدولية ان تغادر مواقعها التى كانت فيها منذ ١٩٥٦ في قطاع غزة وشم الشيخ . وكان محققاً في طلبه من الناحية القانونية اذ كان البوليس الدولى موجوداً على الأرض المصرية بموافقة مصر . ولا يساورنى ادنى شك في ان ناصر لم يكن يتوقع فعلاً ان تستجيب الأمم المتحدة لاوامره بهذا الخنوع . اذ كان منافياً للمنطق ان تأتى قوة دولية للاشراف على وقف اطلاق النار بين مصر واسرائيل ثم تنسحب لدى أول طلب من أحد الطرفين المتحاربين . واعتقد ان عبد الناصر كان يتوقع جولة طويلة من المناقشات والأخذ والرد . بل انه على الأقل كان ينتظر من الأمم المتحدة ان تصر على عملية متعددة المراحل . على اية حال . استسلم يوثانث السكرتير العام للامم المتحدة لمطالب عبد الناصر على الفور . لاسباب لم يفهمها احد حتى ولا أنا . فلم يستشر أحداً . ولم يطلب رأى مجلس الأمن . بل لم يقترح حتى التأجيل لعدة أيام .

ووافق يوثانت من جانبه على الانسحاب الفوري . وبدأت عملية الانسحاب في اليوم التالي مباشرة . وفي يوم ١٩ مايو (ايار) كانت مصر قد سيطرت بالكامل على حدودها مع اسرائيل .

ولم يشعر أحد مثلى بالمرارة ازاء استسلام يوثانت السخيف لعبد الناصر . وعادت الى ذاكرتى تلك الشهور المفزعة في نيويورك عندما كان العالم كله يطالبنا بالانسحاب الفوري من غزة بصرف النظر عما كنا نتوقع حدوثه . وتذكرت المحاولات الدءوبة الفاشلة مع دالاس وغيره من وفود الدول العظمى في محاولة لاقتناعهم بأن ضمان السلم في الشرق الأوسط لن يتحقق الا عن طريق توقيع معاهدة لعدم الاعتداء بين الدول العربية واسرائيل بواسطة نزع السلاح اقليميا والمفاوضات .

وفي غمرة نشوته بالتخلص من قوات الطوارئ الدولية . قام عبد الناصر في ٢٢ مايو (ايار) باختبار اخر لرد فعل العالم ازاء نواياه المعلنة في شن حرب شاملة ضد اسرائيل . فأعلن أن مصر تعيد فرض الحصار على مضائق تيران . ورغم ان أربع دول ضمننت حق اسرائيل في الملاحة في خليج العقبة (هى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وكندا) كان الأمر تحدياً من جانب عبد الناصر . انتظر معرفة كيفية مواجهته . لكن احداً ايضاً لم يفعل شيئاً هذه المرة . وحدثت احتجاجات غاضبة . فقد وصف الرئيس جونسون هذا العمل بأنه « غير قانونى » وانه يحمل مخاطر تهديد السلام في المنطقة . بل واقترح تشكيل قافلة بحرية تضم سفينة اسرائيلية لاختبار نوايا عبد الناصر . لكنه لم يستطع اقناع بريطانيا وفرنسا بالاشتراك معه . وعقد مجلس الأمن جلسة طارئة . لكن الروس سعوا الى عدم توصله الى اى قرار . وطار رئيس وزراء بريطانيا . صديقى الحميم هارولد ويلسون . الى الولايات المتحدة وكندا لمحاولة اقناعهما بتشكيل قوة عمل بحرية

لحراسة مضائق تيران . لكن مساعيه فشلت . حتى يوثانث . الذى ادرك مدى فداحة الخطأ الذى ارتكبه . تحرك اخيراً إلى القاهرة في محاولة للتفاهم مع عبد الناصر . لكن المحاولة كانت متأخرة جداً .

كان عبد الناصر قد خلص إلى نتيجة مؤداها انه مادامت الضمانات التى اعطتها الدول البحرية لاسرائيل بهذا القدر من التفاهة كما ثبت لان فأتى قوة الآن تستطيع منع المصريين من كسب هذا النصر الرائع والهائى على الدولة اليهودية بحيث يصبح عبد الناصر هو الشخصية الاعلى في العالم العربى ! وتكفل الروس بإزالة أى شكوك لديه في هذا المبدأ . وجاء وزير الدفاع الروسى برسالة في آخر لحظة الى عبد الناصر من كوسيجين تفيد أن الاتحاد السوفيتى سيقف خلف مصر في المعركة . وقال عبد الناصر لشعبه ان هدفه من الحرب هو تدمير دولة اسرائيل . بل قال لمجلس الامة المصرى في الاسبوع الاخير من مايو (ايار) « ليست المسألة هى العقبة او مضائق تيران او قوات الطوارىء .. وانما هى العدوان الذى حدث ضد فلسطين عام ١٩٤٨ » . واحتصار كانت الحرب المرتقبة هى الحرب النهائية للعرب ضد اسرائيل . وكان عبد الناصر مقتنعاً بأنه سيربحها .

وفي يوم أول يونيو (حزيران) كان في سيناء ١٠٠.٠٠٠ جندى مصرى و ٩٠٠ دبابة . بينما تكتلت في الشمال ستة ألوية سورية و ٣٠٠ دبابة . وقرر الملك حسين ملك الاردن اخيراً . بعد تردد طويل . أن يصم الى عبد الناصر في مغامرته . وبعثنا برسائل كثيرة الى الملك حسين نبلغه فيها أنه لن يصاب بأى ضرر اذا ما بقى بعيداً عن الحرب (وكان اشكول قد بعث باخر هذه الرسائل الى الملك عن طريق هيئة الرقابة الدولية صباح نفس يوم اندلاع الحرب) . لكن انغراء المشاركة في النصر . والخوف من تحدى عبد الناصر . دفعا الملك

حسين الى الارتقاء في احضان المصريين الذين استطاعوا ان يضيفوا الى الجهود الحربى سبعة الوية أخرى و ٢٧٠ دبابة وقوة أخرى من الطيران . وكان اخر المنضمين هو العراق . الذى وقع مع مصر اتفاقية للدفاع المشترك قبل الحرب بيوم واحد . وحيث ان الغرب بدأ اما مسئولاً أو غير آبه ، وان الروس ساندوا العرب إلى آخر المدى ، فان عبد الناصر لم يكن ملوماً عندما افترض انه قد وصل أخيراً إلى وضع يمكنه من توجيه ضربة قاضية إلى اسرائيل .

حسن .. هذا ما كان لدى العرب و هذا حلمهم ، فما الذى كان يحدث عندنا ؟ لا اظننى في حاجة - ولا أريد - ان احكى عن حرب الايام الستة بعد كل ما كتب عنها . لكننى لا اعتقد ان هناك من ينسى في اسرائيل تلك الايام العصيبة التى سبقت الحرب ، والتى اسميناها بالعبرية (كونيئات) اى الاستعداد . ولم اكن ايامها عضوة في الوزارة ، لكنه كان طبيعياً في مثل تلك الازمات أن أستدعى لكى اشارك في اتخاذ قرارات بالحياة او الموت .

ولم يكن هناك نقاش .. فسوف نحارب اذا اضطررنا لذلك . وسنكسب . واخذ اشكول يسعى من أجل ايجاد اى تدخل دبلوماسى . وسافر ايبان الى باريس ولندن وواشنطن . في الوقت الذى اعطى فيه اشكول الاشارة بهدوء للامة لكى تأخذ اهبتها للمرة الثالثة خلال تسع عشرة سنة للدفاع عن حقها في الوجود . وتأكدت مخاوفنا ، فلندن وواشنطن متعاطفتان لكنهما لا تريدان اتخاذ اية خطوة ، ونصحتانا بالصبر وضبط النفس . اما ديجول فكان واضحاً وقال لايبان ان اسرائيل لا يجب ان تقوم بالخطوة الأولى ما لم يبدأ الهجوم العربى بالفعل ، وعندئذ ستدخل فرنسا لانقاذ الموقف . وتساءل ايبان عما سيحدث لو لم نبق على قيد الحياة لكى تنقذونا ،

ولكن ديجول لم يجب واكتفى بأن أكد له ان استمرار صداقة فرنسا
يتوقف كلية على مدى طاعتنا له .

وفجأة بدأ وجودنا يتعرض للخطر ، واصبحنا بمفردنا بكل
ما تحمله هذه العبارة من معان مفرقة . فالعالم الغربى الذى طالما
اعتبرنا انفسنا جزءاً منه استمع الينا والى تقييمنا للخطر المحدق بنا ،
ثم ادار ظهره لنا . وهكذا بدأنا الاستعداد للحرب المحتومة . فأعد
الجيش خططه الطارئة ، وأمر اشكول بالتعبئة العامة . وأعد الأهالى
المخابيء ، وقبعت القوات فى النقب تحت سواترها المموهة تنتظر .
وبدا وكأن ساعة جبارة تدق دقاتها لنا جميعاً . دون أن يعرف احد
سوى عبد الناصر ساعة الصفر .

وفى أواخر مايو انتهى شكل الحياة الطبيعية التى نعرفها . واخذت
الدقائق تمر ببطء . وفعلت كما فعل الآخرون فأعددت حقيبة
للطوارئ فيها كل ما احتاجه فى المخبأ اذا ما انطلقت صفارات
الانذار ، وساعدت أيا فى تجهيز منزلها ، وذهبت الى ريفيثيم لرؤية
سارة والأطفال . واستمرت الساعة تدق . وبقينا ننتظر وننتظر . وتم
إخلاء الفنادق لاستخدامها كمراكز للإسعاف العاجل . وجرى تخزين
المواد الغذائية والادوية ، هذا بالإضافة الى الاستعدادات العسكرية
بالطبع . واصبح الجميع الآن مستوعبين لحقيقة اننا نقف بمفردنا ،
وانه لا مخلص من أن نكسب هذه الحرب . ويسترجع ذهنى الآن
ذكرى الروح المعجزة التى سيطرت على كل اسرائيل فى تلك الايام .
والتي حولتنا فى غضون اسبوعين من مجتمع صغير خائف الى $\frac{1}{3}$ ^٢
مليون يهودى يعتبر كل منهم نفسه مسؤولاً عن بقاء دولة اسرائيل على قيد
الحياة ، وكل منهم يعلم جيداً ان عدونا مصمم على القضاء علينا .

ولم تكن مشكلتنا أن نخرج سالمين أو بأقل خسائر . وإنما أن نبقي على قيد الحياة كشعب .. ولم يكن من سبيل اماننا لتحقيق ذلك الا أن ننصر .. وزالت خلافاتنا . واصبحنا باختصار عائلة واحدة . مصممة على الا تتزحزح عن وقفها .. والاهم من ذلك ان يهود العالم تأكد لديهم ان زوال دولة اسرائيل معناه الا يشعروا بالحرية اطلاقاً بعدها . وتوجهت بعد الحرب . أو في يومها الاخير على وجه الدقة . الى الولايات المتحدة في زيارة لعدة أيام أقيمت فيها كلمة في حشد هائل في ماريسون سكوير . ورغم أنني كنت في عجلة من أمري للعودة الى اسرائيل . فقد كانت امنيتي أن أقابل آلاف اليهود من الشباب الذين حاصروا قنصليات اسرائيل يريدون السفر اليها . تماما مثلما فعل اليهود البريطانيون في مطار لندن عندما احدثوا اضطرابات لأن طائرات العال (وهي الطائرات الوحيدة التي كانت تطير الى اسرائيل خلال الحرب) لم تستطع ان تنقل كل المتطوعين الموجودين . ولم يكن هؤلاء الشباب بغافلين عن الاخطار الرهيبة التي تنتظرهم في اسرائيل . والة الحرب العربية الجبارة تقترب من حدودنا شيئا فشيئا على أية حال انتهت الحرب في ستة ايام .

وتم بناء على طلبي . ترتيب اجتماع عاجل لى مع ١٠٠٠ من هؤلاء المتطوعين . وسألتهم لماذا ارادوا الذهاب الى اسرائيل . ؟ هل هم صهاينة ؟ ام لانهم كانوا يبحثون عن الاثارة ؟ او أن تربيتهم هى السبب ؟ ! . ولم تكن الاجابة واحدة لدى الجميع . لكن واحداً منهم عبر عن الآخرين عندما قال لى ان الأمور قد تغيرت كلية بعد الحرب ولم تعد حياته بل ولا علاقاته مع عائلته كما كانت من قبل وفهمت ما يعنيه هذا الشاب . انه يقصد هويته كيهودى وائتماء لعائلة أكبر يمثل فرداً منها . كان الخطر الذى يواجهنا جميعاً . هو خطر الابداء .

وقد حكم عبد الناصر واعوانه على حربهم بالفشل عندما اعلنوا هذا الهدف ، لأننا - جميعا - كنا قد قررنا الا يتكرر « الحل النهائي » لهتلر . والا تحدث مذبحة ثانية .

وقد ساهم هذا التكتاف اليهودى الى حد ما في الدعوة الى قيام تحالف كامل شامل بين كل احزابنا (فيما عدا الشيوعيين) والى تولية وزارة الدفاع لمن هو اكفاً من ليشى اشكول . ولا بد أن أقول اننى لم اكن أوكد كلا الدعوتين . فقد يكون التحالف الوطنى - وهو ما اضطررت الى تجربته فيما بعد - مشمرا في الظروف العادية التى تسمح بوجود الوقت الكافى لعرض وجهات النظر المتباينة . أما في اللحظات التى يتحتم فيها اتخاذ قرارات مصيرية ، ويتوجب فيها توحيد المفاهيم والمواقف ، فان هذا التحالف لا يؤتى ثماره . وكنت ارى أنه لو أريد تقوية حكومة اشكول فان ذلك لا يستدعى القيام بتغييرات كبيرة أو احداث تغييرات كبيرة في الأشخاص . وكنت اعلم جيداً - رغم أن الكثيرين في اسرائيل كانوا لا يعرفون انئذ - ان اشكول بوضعه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، قد عمل كل ما يلزم حتى تستعد قوات الدفاع الاسرائيلية لاداء مهمتها ، دون اية دعاية أو ضجيج ودون ان يلفت اليه الانظار . ولم يكن هناك شك في علاقته بالجيش وفهمه لحاجاته ومتطلباته .

وقد كنا نعرف اشكول واسلوبه ، عندما تحدث الى الشعب خلال اسوأ أيام الاستعداد (كونيئات) ، وقال كل شىء ، لكنه قاله بتردد ، في الوقت الذى كانت الامة تبحث عن قيادة ديناميكية . لكنى كنت أدري ان ذلك ليس هو المهم ، فقد كان اشكول رجلاً حكيماً متفانياً حمل على اكتافه مسؤولية ناء بحملها ، ولم يسبق لاي رجل دولة ان حملها . اما من كان شعوره مختلفاً ازاء هذه الحقيقة ، فلا يعود كونه

وبدأت الحرب في الساعات الأولى من صباح يوم الاثنين ٥ يونيو (حزيران) وعلمنا أن الانتظار قد انتهى عندما سمعنا صفارات الانذار . وما أن حل الليل حتى كانت ابعاد الضربة الاسرائيلية قد اتضحت . والتصقت اذاننا بأجهزة الراديو . في الوقت الذي كانت فيه الموجات المتتالية من طائراتنا تعبر البحر الأبيض المتوسط وتقصف المطارات المصرية وتنسف الطائرات المعدة للهجوم علينا وأعلن قائد سلاح الجو في الليل قصة الساعات الست الخرافية التي تم فيها تدمير ٤٠٠ طائرة للعدو . بما في ذلك الطائرات الموجودة في المطارات السوري والاردنية . ودانت لنا السيطرة الكاملة على الجو من سيناء حتى الحدود السورية . وادركت الحقيقة عندما وقفت على باب دارى اتطلعت الى السماء الصافية مدركة اننا قد نجونا من وهم الغارات الذى كان مسيطر علينا . وتنفس الصعداء .

وفي نفس اليوم . وعلى نفس الطرق الثلاثة في سيناء . تقدمت قواتنا تساندها الطائرات متجهة نحو قناة السويس ووقعت اشتباكات بين اعداد من المدرعات فاقت عدد المدرعات التى كانت متحاربة في الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية . وانقلبت يد اسرائيل الممدودة بالسلام . الى قبضة . ولم تعد هناك قوة توقف تقدمنا . ولم يكن عبد الناصر هو الوحيد الذى تبددت طائراته .

فقد كان هناك حسين ايضاً . الذى وازن بين رسالة اشكول اليه بأن شيئاً لن يصيبه اذا لم يشترك في الحرب . وبين الرسالة التى تلقاها من عبد الناصر في الصباح تبليغه ان المصريين يقصفون تل ابيب . في الوقت الذى لم تكن فيه لدى عبد الناصر قاذفة واحدة . ووقع حسين في الخطأ . مثلما فعل جده من قبل . فأمر قواته في ٥ يونيو (حزيران) بأن تشرع في قصف القدس والمستعمرات الاسرائيلية

على الحدود الاردنية . وكان مفروضا ان تقوم قواته بدور الذراع الايمن في الكماشة التي تحيط بنا . ومع حلول الليل بدا واضحاً انه سوف يخسر القدس الشرقية على الاقل . وكما حدث في عام ١٩٤٨ ، فان القوات العربية في ١٩٦٧ قصفت القدس دون ان تكثرث بالخسائر التي قد تحل بالاماكن المقدسة فيها . اقول ذلك تعبيراً عن رفضنا لما يثار من مخاوف حول قدسية القدس تحت الادارة الاسرائيلية . فلا يحاول احد أن يقنعنى بأن احوال القدس كانت أفضل وهى في يد العرب او اننا غير جديرين برعايتها .

واستغرقت هزيمة المصريين يومين . ودفع حسين ثمن قراره الخاطىء في يومين . فبحلول يوم الخميس ٨ يونيو (حزيران) كان حاكم غزة قد استسلم ، وكانت قواتنا قد قمرزت على الحافة الشرقية لقناة السويس ، وعادت مضائق تيران إلى الإسرائيليين وسيطرتهم . وتم تدمير ٨٠ ٪ من المعدات العسكرية المصرية . واعترف عبد الناصر بأنه فقد ١٠٠٠٠ جندي و ١٥٠٠ ضابط . واسرنا ٦٠٠٠ مصرى تقريباً وأصبحنا نسيطر على كل سيناء وغزة وكل الضفة الغربية التي تعادل نصف المملكة الأردنية . والقدس القديمة . وفي يوم الجمعة ٩ يونيو (حزيران) استدارت قوات الدفاع الإسرائيلية نحو معتد آخر هو سوريا . وعرفت بنفسى السر في الثقة بالنفس التي كان السوريون يتمتعون بها ، فقد زرت المرتفعات السورية بعد الحرب ورأيت المساحات الشاسعة من المخابىء المسلحة المكسوة بالاسلاك الشائكة والمكدسة بالمدفعية والمدافع المضادة للدبابات . وادركت السبب في استمرار المعركة الشرسة لمدة يومين وليلة للاستيلاء عليها . وطلب السوريون من الأمم المتحدة ترتيب وقف لاطلاق النار .

وانتهى الأمر ، وخسر العرب والروس حربهم . غير أن ثمن

انسحابنا هذه المرة لا بد أن يكون أعلى وأعلى بكثير مما كان عليه عام ١٩٥٦ . فالثمن في هذه المرة هو السلام ، والسلام الدائم ، عن طريق معاهدة تقوم على أساس ضمان الحدود الامنة المتفق عليها . كانت الحرب خاطفة ، لكنها كانت قاسية .. وشهدت اسرائيل الجنازات العسكرية من جديد . لكن الأمور لن تعود الى ما كانت عليه .. لن يقول لنا أحد ان الإسرائيليين شعب رائع يحقق نصراً على عشرة اعوام ، وها هم قد عملوها ثانية . الآن وقد ربحنا هذه الجولة ، لن تعود المدافع السورية الى المرتفعات لتقصف القرى الآمنة تحتها ، ولن يعود الجنود الأردنيون الى اسوار القدس لقصفها ، ولن تعود غزة مركزاً للارهاب ، ولن تعود سيناء مسرحاً لانطلاق الوية عبد الناصر .

ولقد طرحت في ذلك الاجتماع في نيويورك السؤال التالي .. « من لديه الشجاعة ليقول لنا هيا .. عودا لوطنكم .. واعدوا اطفالكم الذين في التاسعة والعاشرة للحرب المقبلة ! » .. اننى على ثقة من أن أى انسان عاقل سيقول « لا » . واعذرونى اذا قلتها لكم بوضوح ، المهم اننا جميعاً نقول « لا » .

حاربنا من أجل وجودنا وامننا ، ودفعنا الثمن . وبدا لنا أن فجراً جديداً قد لاح سيوافق العرب فيه - بعد الهزيمة في المعركة - على الجلوس معنا وحل كل خلافاتنا ، وكلها قابلة للحل . وما أن انتهت الحرب حتى منحت جميع العائلات في اسرائيل نفسها اجازة .. بما في ذلك عائلتى . وأخذ الآلاف من الاسرائيليين ، بكل وسائل النقل ، يتنقلون في رحلات لمشاهدة الأراضى الجديدة التى وقعت تحت حكمنا . وكانت القدس بالطبع هى المقصد الأول لجميع اليهود الذين وقفوا امام حائط المبكى يبللون بدموعهم . كذلك رأينا بيت لحم

وجرس والخليل وغزة وشرم الشيخ . وقابلنا العرب واشترينا
منتجاتهم .. وغمرنا الأمل في أن نعيش سوياً في سلام من جديد .
وفعل العرب نفس الشيء .. فذهبوا الى تل ابيب وجلسوا على
المقاهى في الشوارع الرئيسية وشاهدوا نوافذ العرض في دكاكين القدس
الغربية . ولا أريد أن أبدو وكأنى أقول ان العرب . ولسوا وجوههم
شاكرين الله على هزيمتهم فقد كان بعض الاسرائيليين يرون أن
ما يحدث هو احتفال لا يليق في وقت لم تشف فيه بعد جراح
الحرب . لكننى لا أعتقد أن هناك أحداً شاهد اسرائيل في صيف ١٩٦٧
الا وشهد بأن النشوة الطاغية قد استبدت باليهود . كان الأمر في
حقيقته كمثل حكم بالاعدام تم الغاؤه .

ولو أردت ان اختار مشهداً يصور تلك الفترة التى اعقبت الحرب .
لاخترت منظر الاسوار التى كانت تفصل بين شطرى القدس
والبولدوزات تريلها لتعميرها بين ليلة وضحاها مدينة موحدة .. ذلك
مشهد كان يبشر بمولد عصر جديد . وقلت لاحفادى ان الجنود
سيرجعون وسيحل السلام وسنستطيع السفر الى مصر والاردن . كنت
مؤمناً بذلك ، لكنه لم يحدث .

واعاد القادة العرب تقييمهم للموقف . في مؤتمر للقمعة عقد في شهر
اغسطس (اب) في الخرطوم . وانتهوا الى أمر مختلف بالمرة . فأصدروا
« اللاءات » الثلاثة الشهيرة ، انه لا سلام مع اسرائيل . ولا اعتراف
بالدولة اليهودية . ولا مفاوضات . لا ! لا ! لا ! ويجب ان تنسحب
اسرائيل من كل الأرضى التى استولت عليها دون شروط . وكان ذلك
هو جوابهم على نداء الحكومة الاسرائيلية الذى طالب « بأن نجتمع لا
كغالب ومغلوب . بل كمتساويين نبحت عن السلام دون شروط
مسبقة » . بصرف النظر عما بدأ الحرب وعمن ربحها . وهكذا ذوت

ثمار النصر قبل أن تنضج . وتبخرت احلام السلام العاجل . لكننا كنا قد تعلمنا شيئاً هاماً وهو الا نكرر تجربة ١٩٥٦ . فمقبول أن نناقش او نفاوض أو نصل لحلول وسط او نرضخ .. ذلك كله نقول عنه نعم . أما أن نعود الى حيث كنا يوم ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ، فلا وهكذا لم يعد امامنا الا أمر واحد ، هو ان اسرائيل لن تنسحب من أى من الأراضي الى أن تضع الدول العربية نهاية للصراع الى الأبد . وقررنا - ولم يكن القرار سهلاً - ان نضمد على خطوط وقف اطلاق النار مهما كان الثمن . وأن ننتظر من العرب ان يقبلوا حقيقة ان السلام هو البديل الوحيد للحرب ، وان المفاوضات هي طريق السلام .

في نفس الوقت استمرت الحياة بالنسبة لسكان الاراضى المحتلة الذين بلغ عددهم قرابة المليون نسمة . من بينهم ٦٠٠.٠٠٠ في الضفة الغربية لنهر الاردن وقرابة ٣٦٥.٠٠٠ في قطاع غزة وسيناء بالاضافة الى الدروز الذين اختاروا البقاء في مرتفعات الجولان ولم يتدخل الجيش ولا الحكومة العسكرية في حياة العرب اليومية الا بقدر ضئيل . وذلك بفضل مفهوم ديان عن الدور الذي يجب ان تؤديه . وتمت المحافظة على القوانين المحلية وعلى القادة المحليين . وفتحت الجسور المقامة على نهر الاردن ، وعبرها العرب للتجارة مع الدول العربية وللدراسة فيها وزيارة اقاربهم . وكان هذا الاجراء مؤقتاً فقط . فلم يكن هناك اسرائيلي عاقل واحد يتصور ان كل هذه الأراضي سوف تبقى الى الأبد تحت سيطرة اسرائيل .

فستبقى القدس مثلاً موحدة ولكن مع وضع ترتيبات معينة لكي يسيطر المسلمون على الاماكن الاسلامية المقدسة . وستعين رسم حدود جديدة بين الاردن واسرائيل . وليس من المستحسن اعادة مرتفعات الجولان برمتها الى السوريين ، أو أن تعاد سيناء كلها للمصريين .

وبقى قطاع غزة مشكلة على وجه التأكيد . لكنه لم يكن هناك أى داع لرسم خرائط تبين شكل الشرق الأوسط أو حتى ان نتناقص فيما بيننا حول أى من الاراضى نعيدها لمن . وذلك الى أن يعالج هذا الأمر المعنيون به حقاً وهم جيراننا . ثم انك لا يمكن أن تعيد الاراضى في طرد بريدى . وهكذا قبعنا ننتظر رداً على نداءتنا المتكررة بشأن المحادثات .

وأصدر مجلس الأمن قراره الشهير رقم ٢٤٢ ، الذى صاغة البريطانيون . محددا اطار التسوية السلمية « للنزاع العربى الاسرائيلى » . وتم تعيين ممثل خاص . هو الدكتور جونار يارنج ، عهد اليه بمهمة الاشراف على « التسوية السلمية والمقبولة » . ولقد كتب الكثير عن القرار ٢٤٢ ، وتعرض لتشويه كبير من جانب العرب والروس .

ويلاحظ على نص هذا القرار أنه لم يقل ان اسرائيل يجب ان تنسحب من كل الاراضى . او انها يجب أن تنسحب من « الـ اراضى . لكنه يقول ان من حق كل دولة ان تعيش داخل حدود « امة معترف بها » . كما انه ينص على انها حالة الحرب . وفوق ذلك فإنه لم يتحدث عن « الدولة الفلسطينية » . وانما تحدث عن مشكلة اللاجئين .

ولم يكن هذا القرار فقط هو الذى اسىء تفسيره . بل اسىء تفسير موقفنا نفسه . فبعد حرب الايام الستة الف افرام كيشون أكبر كتاب اسرائيل الساخرون . بالتعاون مع رسام الكاريكاتير دوش . كتاباً عنوانه « نحن متأسفون لأننا انتصرنا » . وقد لخص هذا الكتاب باختصار الطريقة التى كنا قد بدأنا نشعر بها بعد ١٩٦٧ ، وهى ان الوصفة الوحيدة لتحسين صورة اسرائيل المتدهورة . هى أن ننسى السلام

بالمرة . وان جريمتنا اننا ظللنا نقول للعرب « دعونا نتفاوض . . بدلا من أن نقول لهم » هذه هي الخريطة الجديدة . تعاملوا ووقعوا على هذه الخطوط » .

واصبحت بهذا الشكل اشرا . ولست افهم لماذا يحصل ولى برانت على جائزة نوبل لاعترافه بخط حدود الأودرنية بذلك مصححاً الخطأ الذى ارتكبه المانيا النازية في حق بولندا . بينما يؤسم اشكول . وانا من بعده . بأننا توسعون لأننا نريد نفس التعديلات بين اسرائيل وجيرانها . ولم يكن التوسع هو المهمة الوحيدة . فكثيرا ما كانوا يسألوننا اذا لم يكن يقلقنا ان تنقلب اسرائيل الى أم عسكرة (او اسبرطه صغيرة) تضطر الى الاعتماد على « وحشية » قواتها المحتلة من أجل السيطرة على الأراضى التى تحتلها . لكنه لا أشكول ولا أنا ولا الغالبية العظمى من الاسرائيليين . كنا نخفى حقيقة أننا لم نكن نهم بتسوية تجلب لنا الثناء على حكمتنا وتعقلنا في الوقت الذى نمرسنا فيه للخطر .

وبقيت المهمة ملقاة على عاتقى في توحيد الحركة العمالية الأمر الذى شغلنى طوال شتاء ١٩٦٧ وبداية ١٩٦٨ . وكنت في نفس الوقت أضع نفسى تحت تصرف أشكول لمساعدته في الارمات الحرة سواء ما تعلق منها بتساعد نشاط فتح والمنظمات الارهابية الأخرى أو ما اتصل بمحاولات الضغط علينا بالفرار ٢٤٢ للانسحاب من كل الأراضى المحتلة . وفي يناير (كانون الثانى) ١٩٦٨ تشكلت حرب العمل الاسرائيلى . وهو اتحاد بين احزاب الماباى واحدوت هاغفودا ورافى وتم انتخابى سكرتيراً عاماً له في فبراير (شباط) . لكن الوحدة بهذا الشكل ظلت جزئية الى ان انضم اليها المابام بعد ستة كامينه وتم تكوين التحالف الاوسع او « الممراخ » كما سمي بالعبرية . وربما ان

الروابط بين الاحزاب الثلاثة كانت واهية ، الا انها على الأقل جمعتها تحت سقف سياسى واحد . وكانت تلك هى المهمة التى عهد بها الى لإنجازها. وأحسست ان من حقى ان أعود بعدها الى التقاعد ، وذلك ما فعلته في شهر يوليو (تموز) .

اصبح عمري الآن سبعون عاما ، وتلك ليست خطيئة أن يصل العمر إلى هذا الحد ، لكنه أيضاً ليس نكتة ، وكنت قد أصبت بالمرض ثانية عام ١٩٦٧ . وشعرت ان من حق نفسى على أن أخلد إلى السلام والهدوء ، وصممت في هذه المرة على أن لا يشينى أحد أو شيء عن عزمى . وذهبت إلى الولايات المتحدة في حملة لترويج سندات اسرائيل . وهناك زرت مناحيم وأيا وأطفالهما في كونيكتيكت . حيث كانت أيا في منحة دراسية جامعية ومناحيم يقوم بتعليم التشييلو . وقضيت لأول مرة في حياتى اجازة كاملة في سويسرا لعدة أسابيع . عدت بعدها إلى اسرائيل في كامل عافيتى .

ولم يكن الموقف قد تحسن في البلد . فقد كانت هناك حرب من نوع ما على قناة السويس ، يمطر فيها المصربون ضفة القناة بالفصف والقنابل بعد أن عوضتهم روسيا عن كل ما فقدوه في الحرب . وكان عبد الناصر يزأر قائلاً سنضرب عندما يحين الوقت » . وبكرر ما أسماه أسس السياسة المصرية ، لا اعتراف باسرائيل ولا تفاوض ولا سلام معها . وفي ربيع ١٩٦٩ بدأ عبد الناصر ما عرف فيما بعد بـ « حرب الاستنزاف » .

وكان الناس ، بعيداً عن الشرق الأوسط ، ينظرون إلى ما يحدث على انه نوع من « الحوادث » ولم يكن هناك أحد في الخارج يأخذ أعمال المصريين في خرق وقف اطلاق النار مأخذ الجد . لكننا اخذناها

مأخذ الجد . لأننا كنا نعرف ما تخبؤه وراءها . وبدأنا نبني خطاً دفاعياً قوياً لحماية قواتنا على ضفة القناة . هو خط بارليف .
واتجهت المنظمات الارهابية الى حرب اسرائيل على بعد الاف الاميال منها . عندما فشلت في تحريض الأهالى داخل الأراضى المحتلة على اتخاذ تحركات ضخمة ، اللهم الا اضراباً في الخليل او مظاهرة في جنين . وحظيت هذه المنظمات بتأييد السعودية وعبد الناصر بل والملك حسين . الذى حاربوه فيما بعد سعياً وراء السيطرة على الاردن . وتراوحت اهداف الارهابيين ما بين الطائرات المدنية والمسافرين المدنيين . وكانوا كلهم من اليهود .

ولم يكن هناك سلام أيضاً في الشمال . فقد تحول جنوب لبنان إلى ما سمي « أرض فتح » . وتعرضت للقصف كل المستوطنات والقرى الاسرائيلية بل وسيارات الاوتوبيس التى تحمل الاطفال . وذرفت حكومة لبنان دموع التماسيح مدعية انها لا تستطيع ان تفعل شيئاً . رغم ان الارهابيين كانوا يتدربون داخل الأرض اللبنانية وينطلقون منها .

لكننا كنا قد قررنا الدفاع عن خطوط وقف اطلاق النار بالرغم من فتح ومن عبد الناصر . وبقي جنودنا في مواقعهم متأهبين . وكانت التضحية كبيرة . فهذا الجيش ليس جيشاً عادياً من جنود يتقاضون رواتبهم . وانما من الاحتياطى .. من الطلبة والسائقين والاطباء واصحاب المحال .. جاءوا يؤدون واجبهم ويتمنون العودة إلى بيوتهم . ليواجهوا التزاماتهم في الحياة . ولا أظن أن هناك جيشاً انتصر وغلبه الحزن كجيشنا . لان الحرب التى خاضها لم تصل الى نهاية حقيقية . فكان الجنود يعودون إلى بيوتهم لعدة أسابيع أو أشهر ثم يستدعون من

جديد ورغم تدميرهم فان الشك لم يخالجهم في الحاجة الى البقاء عند هذه الخطوط الى أن يتحقق سلام دائم .

وفجأة في ٢٦ فبراير (شباط) ١٩٦٩ ، اصيب صديقى الذى عملت معه طويلاً واحببته كثيراً ، ليشى اشكول بأزمة قلبية ثم توفى . وبلغتنى الانباء في منزلى فأصابتنى صدمة شلت حركتى تقريباً ، دون أن أجد أحداً يأخذنى الى القدس - كان غياب اشكول شيئاً يشبه المستحيل ، واخذت أفكر من ذا الذى يحل محله . وتوجهت الى منزل اشكول في القدس ، ثم جلست في احد المكاتب انتظر ما سيسفر عنه اجتماع الوزارة الطارىء من ترتيبات بشأن الجنازة . وعندئذ دخل أحد الصحفيين الاسرائيليين .

وبادرنى على الفور بقوله « اننى أعرف مشاعرك الآن . لكننى عائد لتوى من الكنيست . وكل الناس هناك تقول ان الحل الوحيد هو عودة جولدا » . واجبته بغضب اننى لا أعرف ما الذى يتحدث عنه ، وقلت له ان هذا ليس وقتاً للحديث في السياسة ، وطلبت اليه ان يتركنى وحدى . وكررت اليه الطلب ان يتركنى بمفردى بعد أن أكد لى أن رئيس تحريره يريد التحدث معى هذه الليلة .

وانتهى اجتماع الوزارة ، وتولى مقاليد الامور ايجال الون الذى كان نائباً لرئيس الوزراء . وبعد زيارة مريم ليفى اشكول ، عدت الى تل ابيب . وفي العاشرة مساءً جاءنى رئيس التحرير قائلاً ان الجميع قرروا أننى الشخص الوحيد صاحب السلطة والخبرة والرصيد في الحزب الذى يمكن أن يقبله الجميع . ولولا الحالة التى كنت عليها ، لذكرته بأن اخر استفتاء عن المرشح لمنصب رئيس الوزراء اسفر عن حصولى انا على ٣ ٪ من الاصوات ، بينما حصل ديان على أعلى نسبة في الاصوات ،

وكذلك حصل الون على نسبة طيبة . وصرفت رئيس التحرير بعد ان
لمته على مفاتحتي في امر كهذا بينما اشكول لم يدفن بعد .

وبدا الحزب في غضون ايام يزاوّل ضغطه على . كان الكل . بما
فيهم الون . يلحون على في أن اؤدى اخر خدمة للدولة وللحزب الذي
توحد اخيراً . خاصة وان الانتخابات قد اقتربت والمطلوب فقط رئيس
وزراء مؤقت لعدة أشهر . ولم يكن الكل يحبذون ترشيحي . فحزب
رافى . برئاسة ديان وبيريز . لم يكن متلهفا على ان رأس الوزارة .
وكنت بالطبع اقدر مشاعر الناس الذين كانوا يرون ان جدة في
السبعين من عمرها ليست بالمرشح الكامل لرئاسة دولة عمرها عشرون
عاما .

ولم أكن قادرة على اتخاذ قرار . فعدم موافقتي كان يعنى انفجار
الحرب بين الون وديان . وذلك ما لم تكن اسرائيل في حاجة اليه
عندئذ . فتكفيينا الحرب مع العرب . وعندما تنتهى منها نبداً حرب
اليهود . ولم أكن من ناحية أخرى أريد تحمل اعباء ومسئوليات رئاسة
الوزراء . وأردت ان اتحدث مع العائلة . فطلبت مكالمة تليفونية الى
كونيكتيكت وتحدثت مع مناحيم وأيا . ثم طلبت من سارة وزكريا ان
يوافيانى في القدس . حيث قضينا الليل نتحدث . وفي الصباح ابلغتني
سارة وزكريا ان قرارهما متفق مع رأى مناحيم . وأنهما برغم علمهما
بمدى المشقة التى سأعانيتها فانه لا مفر امامى من ان اقبل .

وفي ٧ مارس (اذار) اجتمعت اللجنة المركزية لحزب العمل
واجرت تصويتا على ترشيحي رئيسه للوزراء . وكانت النتيجة حصولي
على سبعين صوتا . دون اى معارضة . وامتنع حزب رافى عن
التصويت . وكثيرا ما سئلت عن مشاعرى في تلك اللحظة . واتمنى لو

اننى اجبت برد مشاعرى . لقد انهالت الدموع من عيني ، وامسكت برأسى بين يدى عندما انتهى التصويت ، لكن ما اذكره بالفعل اننى كنت مذهولة . لم يكن في خططى ان اكون رئيسه للوزراء ، بل اننى لم اخطط في الواقع لاي منصب . كنت قد خططت للذهاب الى فلسطين ، لبذل النشاط في الحركة العمالية - اما لهذا المنصب الذى سأشغله ، فلم يحدث قط . عرفت الآن ان على ان اتخذ كل يوم من القرارات ما قد يؤثر في حياة الملايين من الناس ، ولعل لهذا بكيته . لكن الوقت لم يكن ليتسع لافكارى حول الطريق الذى بدأ في كييف وانتهى في مكتب رئيسة الوزراء . لقد اصبحت رئيسه للوزراء بنفس الاسلوب الذى اصبغ فيه بائع اللبن عندى قائدا لموقع متقدم في جبل الشيخ . كلانا لم تكن لديه الرغبة في هذه المهمة ، لكن كلانا قام بها خير قيام .

الفصل الثالث عشر

رئيسة الوزراء !!

وهكذا انتقلت مرة ثانية الى مقر رئيس الوزراء في القدس ، الذى عاش فيه قبل بن جوريون وشاريت واشكول ، وبدأت في التعود على وجود الشرطة والحرس الخاص باستمرار ، وعلى يوم العمل الذى يستمر ست عشرة ساعة على الاقل ، وعلى ادنى قدر من الاحساس بالخلوة . كانت هناك بالطبع ايام اقصر واقل توترا ، فلن ادعى ان السنوات الخمس التى قضيتها رئيسة للوزراء كنت فيها من الشهداء او اننى لم اتمتع بوقتي . لكن فترة عملي بدأت بحرب وانتهت بحرب . وكانت اول اوامرى كرئيسة للوزراء ، موجهة الى اسرائيل ليور - سكرتيرى العسكرى - بابلاغى فورا باى تحرك عسكرى ، حتى ولو كان ذلك في منتصف الليل .

وقلت له اننى اريد ان اعرف كل شىء ، موعد عودة الاولاد ، احوالهم ! وفهم ليور ، وقال لى انه لا يمكن تصور ان يوقظنى في الثالثة صباحا خاصة واننى لن افعل شيئا مادامت لم تقع خسائر . واجبرت ليور على اطاعتي . وكم من ليلة قضيتها في هذا المنزل الواسع الخالى اجوب ارجاءه في انتظار حلول الصباح او وصول مزيد من المعلومات .

كانت حرب الاستنزاف المصرية قد بدأت في مارس (آذار) ١٩٦٨ ، ثم ازدادت شراستها حتى صيف ١٩٧٠ . وكان السوفيت قد زدودوا مصر

وسوريا والعراق بما قيمته . مع التحفظ ٣٠ بليون دولار . لكن المستفيد الاول من فيضان الاسلحة والدبابات والطائرات كان عبد الناصر . على امل ان يسفر استمرار اطلاق النار علينا ووقوع الخسائر بين صفوفنا . عن موافقتنا على الانسحاب من القناة دون تحقيق اى سلام او اية نهاية للنزاع .

كان عبد الناصر والروس يعلمون ان كل جندي يسقط لدينا يعتبر بمثابة طعنة في قلب الامة . وعليه فانهم اذا ما واصلوا قصف مواقعنا في القناة فانتنا سوف نستسلم . لكننا لم نفعل ذلك - لم تكن لدينا رغبة في محاربة احد . لكنه لم يكن هناك بديل امامنا . كان الحل الوحيد امامنا لمنع الحرب الشاملة التى اعلن عبد الناصر انها الهدف النهائى لحرب الاستنزاف . هو ان نرد بعنف ضاربين الماشآت العسكرية المصرية . والاهداف العسكرية المصرية . لا على . البوط وقف اطلاق النار فقط وانما داخل مصر نفسها . بل واحيانا عند اللزوم كنا نوصل رسالتنا الى المصريين على ابوابهم في عمق الاراضى المصرية ولم يكن اتخاذ القرار امرا سهلا . خاصة واننا كنا نعرف ان الروس على استعداد لتوسيع تدخلهم في مصر . وهكذا بدأنا استراتيجية الغارات الانتقامية « في العمق » .

وقد اصبحت من القصص المعادة المملة ان نتحدث عن حرب الاستنزاف او عن السفن السوفيتية التى وصلت الى مصر سرا حاملة صواريخ سام ٣ . لكن رجالنا صمدوا بشجاعة على خطوط وقف اطلاق النار . ومنعوا المصريين والروس من اقامة منصات الصواريخ قرب خطوط وقف النار . لكن مقدرتنا على الحفاظ على هذه الخطوط كانت في حاجة الى الدعم والمعاونة .

ولم يكن امامنا الا قوة عظمى واحدة نتجه اليها هي الولايات المتحدة . صديقنا التقليدى الكبير . التى كانت تبيننا الطائرات .
والتي لم تكن متفهمة لموقفنا مما بث المخاوف في نفوسنا ان تقطع عنا مساعداتها في هذا الوقت . وكان الرئيس نيكسون اكثر من صديق .
لكنه لا هو ولا وزير خارجيته وليام روجرز كانا يتعاطفان مع رفضنا لاية حلول مفروضة . ولا مع معارضتى العنيفة لاقتراح روجرز بان يجتمع الأمريكيون والبريطانيون والروسيون والفرنسيون للمحث عن حل وسط للنزاع بيننا وبين العرب . وشرحت لروجرز مرارا ان ذلك قد يرضى الوفاق الأمريكى السوفيتى . لكنه لن يأتى بضمانات حقيقية لأمن اسرائيل . فمن بين هذه الدول الاربع هناك ثلاث مع العرب وواحدة فقط - هي الولايات المتحدة - مع اسرائيل . ولم اكن اتصور امكانية التوصل الى حل اى شئ تحت هذه الظروف . ثم اتنا من ناحية اخرى لو بقينا نغضب نيكسون وروجرز فقد لا نحصل على اى سلاح بالمرة . وتحتم فتح الطريق المسدود .

كان ويليام روجرز رجلا دمثا . سبورا الى اقصى حد . استحوذ على اعجابى الشخصى . ثم انه هو الذى حقق وقف اطلاق النار في اغسطس (أب) ١٩٧٠ . لكننى (وارجو ان يسامحنى على قولى هذا) اشك في انه فهم خلفية الحرب العربية ضد اسرائيل او انه ادرك ان القادة العرب لا يمكن الوثوق بتعهداتهم الشفوية . واذكر حماسه في الحديث معى بعد زيارته الاولى للدول العربية وعن تأثره البالغ « بعطش فيصل للسلام » . ولعله لكونه « جنتيلمانا » قد احسن الظن بكل العالم حوله .

ولم تفلح محاولاتي لاجراء اية اتصالات مع القادة العرب . بل اننى اعلنت يوم تولى منصبى اتنا على استعداد لمناقشة السلام مع

جيراننا في اى يوم . وجاءنى الرد خلال ساعات ، في خطبة لعبد الناصر قال فيها انه لن يعلو صوت فوق صوت المعركة ، ولم يأتنى اى رد مشجع من دمشق او بيروت او عمان ، بل وصفت احدى الصحف الاردنية حديثى بانه يشبه القصص التى تحكيها الجدة لاحفادها قبل النوم .

وظل الناس في الخارج يستفسرون منا اذا لم تكن لدينا نية لاسقاط عبد الناصر ، وكأننا نحن الذين جئنا به ونحن الذين نخطط لاستبداله . وكانوا يسألوننا عما اذا كانت غاراتنا في العمق ضرورية « فعلا » ولازمة للدفاع عن النفس ، وكأنهم يريدون منا ان ننتظر الى ان يتم ذبحنا لتأكد نوايا المجرم .

وورثت عن اشكول حكومة الوحدة الوطنية ، التى ضمت كتلة جاحال المعادية للاشتراكية (وتتكون من حزب حيرت اليميني المتطرف ، وحزب الاحرار المعتدل ، بقيادة مناحيم بييج) . وكانت هناك بالاضافة الى الخلافات الايديولوجية بين اليمين واليسار في اسرائيل ، اختلافات في معالجة الموقف الذى وجدت اسرائيل نفسها فيه . ففي شهر يونيو (حزيران) اقترح روجرز ان تجرى اسرائيل محادثات مع مصر والاردن تحت رعاية د . يارنج ، بهدف الوصول الى سلام دائم وعادل ، على ان يتم ذلك على اساس « العلم المتبادل بسيادة كل دولة وسلامة اراضيها واستقلالها السياسى » وعلى « الانسحاب الاسرائيلى من اراضى محتلة عام ١٩٦٧ » وفقا للقرار ٢٤٢ . واقترح روجرز وقفا لاطلاق النار لمدة ٩٠ يوما . وكان موقف جاحال ازاء ذلك ان هذا يعتبر تغييرا للسياسة المتبعة منذ ١٩٦٧ والتى قضت بوجود الجيش على خطوط وقف النار الى ان يتحقق السلام . ومع ان جاحال

قبلت وقف اطلاق النار فانها رفضت الموافقة على اجراء اية مفاوضات بشأن الانسحاب قبل تحقيق السلام .

وحاولت ان اشرح لمناحيم بيجن الموقف ، دون جدوى . فقد اصر على موقفه ، قائلا ان ما علينا ان نفعله هو ان « نطلب » الاسلحة من امريكا فتصلنا . ولم اكن اشاركه رأيه في ان يهود امريكا سيضغطون على قادتها ، وان امريكا محتاجة اليها اكثر من حاجتنا اليها . وان الضغط الامريكى على اسرائيل سيتوقف طالما استمر دفاعنا عن موقفنا . وليس عندى الا وصف واحد لهذا التفكير ، هو انه « اسطورى » لانه لا يعتمد على حقائق الواقع . ومن يدري ما الذى كان يحدث عام ١٩٧٣ ، لو اننا اتبعنا سياسة تدمير نفسنا وتحدينا امريكا عام ١٩٧٠ . لاشك انه ما كانت لتصلنا اية مساعدات عسكرية امريكية . ولا انتهت حرب يوم كيبور نهاية مختلفة .

ولم افاجأ عندما استقال وزراء جاحال الاربعة في اغسطس (اب) انطلاقا من المفهوم السخيف ان قبول وقف اطلاق النار هو بداية التراجع غير المشروط عن خطوط وقف النار . ورجونا هم البقاء من اجل تجنب المزيد من المشاكل ، لكنهم اصرروا على الخروج .

اما الامر الاخر الذى نفص على حياتى طوال عملى كرئيسة للوزراء ، فهو ما كان الوزراء يسرون به للصحافة . وكانت الشكوك تراودنى حول مصدر تسرب هذه الانباء المثيرة الى من كانوا يسمون انفسهم « المحررين الدبلوماسيين » ، لكننى لم استطع العثور على الادلة التى تؤكد هذا . واعتاد موظفو مكتبى على رؤيتى صباح اليوم التالى لاجتماع الوزراء ، سوداء الوجه ، لان الصحف نشرت انباء مشوهة عن الاجتماع . ولم تكن تلك هى المشكلة ، وانما المشكلة هى البقاء والعيش في سلام ، في مثل هذا الجو .

وقررت بعد عدة اشهر ان اسافر بنفسى الى الولايات المتحدة
لالتقى بالرئيس نيكسون وباعضاء مجلس الشيوخ . ولكى اعرف
بنفسى موقفنا من الولايات المتحدة وموقفها منا . ولم اكن قد افلحت
في اقناع روجرز باستبعاد الروس من اى تسوية للشرق الاوسط .
ولا كان بوسعى ان احقق اكثر مما حققه رجالنا الموهوبون امثال ابا
ايبان وزير الخارجية والجنرال اسحق رابين سفيرنا الجديد في
واشنطن . ووافقت الحكومة على الفكرة . وبدأت الاستعداد للرحلة فور
وصول الدعوة من البيت الابيض .

ولم اكن قد قابلت نيكسون من قبل . ولا عرفت الرجال المحيطين
به . ولعله كان ينظر الى باعتبارى رئيسة وزراء لسد فجوة موجودة .
لكننى قد لا يعاد انتخابى ثانية . لكننى قررت ان اذهب الى الرئيس
الامريكى وان اطرح امامه كل مشاكلنا والمصاعب التى تواجهنا بكل
صراحة . محاولة اقناعه كلية بأننا يمكن ان نتوصل لحلول وسط
وتنازلات . لكننا لسنا على استعداد لسحب جندى واحد من بوصة
واحدة من الارض المحتلة ما لم نصل الى اتفاق مع العرب . اما
احتياجاتنا من الاسلحة . فقد قررت ان اعرضها عليه بنفسى .

واتممت استعداداتى للرحلة . واشترت فستانين وبعض القفازات
وقبعتين . ثم قضيت عدة اسابيع في عمل متواصل مع مستشارى وخاصة
ديان ورئيس الاركان حاييم بارليف . حول « قائمة المشتريات » التى
سأحملها الى واشنطن والتى تضمنت ٢٥ طائرة فانتوم و ٨٠ سكاي
هوك . وانتويت ان اطلب من الرئيس قرضا بفائدة بسيطة قيمته
٢٠٠ مليون دولار لدفع ثمن الطائرات على خمسة اعوام .

ولابد هنا ان ابين ان اول رئيس يسمح ببيع الفانتوم والسكاي
هوك لاسرائيل كان ليندون جونسون . الذى وعد بان يولى اهتماما

خاصًا بالطلب الذى قدّمه اليه اشكول عندما زاره في تكساس . ولم تكن الطائرات قد وصلت بسرعة ، ولذا وجدت نفسى مضطرة الى ان ايبين لنيكسون مدى احتياجنا الشديد اليها، خاصة ازاء انعدام التوازن في التسليح في المنطقة . وكنت على ثقة من اننى سأحصل على الاموال المطلوبة .. فرصدنا ممتاز . ولم يحدث ان تخلفت اسرائيل عن سداد اية اقساط لاحد . راذكر في هذا الصدد ان اقساطا كبيرة استحققت السداد عام ٥٦ - ١٩٥٧ لبنك الاستيراد والتصدير الامريكى . ومع الركود الذى ساد اسرائيل فقد قررنا تحمل العبء على ان نؤجل السداد .

ورادتنى الافكار اثناء رحلتى بالطائرة .. هل ستكون الحفاوة بى مماثلة لما استقبلت به في اعقاب حرب الايام الستة سواء من الرئيس الامريكى او من اليهود الامريكيين . وما ان وصلت مطار فيلادلفيا حتى وجدت عشرات الالاف من اليهود الامريكيين ينتظرون رؤيتى . وقضيت الليلة في فيلادلفيا ، ثم ركبت طائرة هليكوبتر حملتنى الى البيت الابيض . وهناك ركبت سيارة وصلت بها الى مكان الاستقبال ، ووجدت نيكسون يساعدنى على الخروج من العربة . بينما زوجته تقدم لى باقة من الورود الحمراء . وشعرت من اول وهلة باننى في منزلى .. وشعرت بالامتنان لنيكسون وزوجته .

وبدا الاحتفال الرسمى . ولم اتمالك نفسى عندما سمعت السلام الوطنى الاسرائيلى ، فانهاالت الدموع من عينى . ها انذا رئيس لوزراء الدولة اليهودية ، اقف بجانب رئيس الولايات المتحدة الامريكية .. وتمنيت لو ان اولادنا على القناة رأونى الان . ونحن في اسرائيل نولى اهمية كبيرة لهذه الاحتفالات .. فقد كانت نوعا من الاحلام التى

كانت تراودنا عندما كنا نفكر فيما ستكون عليه دولتنا وعندما تكون لنا بزة تشريفة .

وبدأت اجتماعاتي مع الرئيس ، واتسمت بالحرارة والود والصراحة ، كما كنت امل . وكان اتفاقنا تاما حول ضرورة استمرار اسرائيل في موقفها الى ان يتم التوصل الى اتفاق مع العرب ، وحول اهمية ان تحافظ الدولة العظمى على وعودها التي تقطعها لدولة صغرى . كذلك فقد تحدثنا عن الفلسطينيين ، وكان حديثي معه صريحا ايضا في هذه النقطة . فقلت له ان هناك دولتين فيما كان يعرف باسم فلسطين حتى حدود العراق ، احدهما يهودية والاخرى عربية ، ولا مكان بينهما لدولة ثالثة . وستصبح هذه « الدولة الفلسطينية » بين الاردن واسرائيل قاعدة للهجوم على اسرائيل وندميرها . ولذا فان على الفلسطينيين ترتيب أمورهم مع الأردن . واستمع الى نيكسون بكل اهتمام ، لكنه ظل مجندا لفكرة المحادثات الثنائية بين الدولتين العظميين والمحادثات الرباعية . وقد سررت عندما علمت انه في الوقت الذي كنت مجتمعة فيه مع نيكسون ، كان اندريه جروميكو وزير خارجية روسيا مجتمعا في نيويورك مع وليم روجرز . ولا ريب ان جروميكو قد ضايقه ذلك التوقيت للاجتماعين .

والح على الصحفيون حتى كادوا يقتلونى فاكثفت بان ابلغتهم ان الحكومة الامريكية سوف تستمر في سياسة حفظ توازن القوة العسكرية في المنطقة . وخيل الى بعض الصحفيين اننى خرجت خالية الوفاض بسبب عدم صدور بيان مشترك . ولم اكن ارى فائدة لاصدار مثل هذا البيان . ووافقنى نيكسون على ذلك . اما قائمة المشتريات فقد تم تسليمها . وكان ذلك هو المطلوب .

واقام لى نيكسون وزوجته حفل عشاء رسمى فى البيت الابيض .
كان من أسعد الليالى التى مرت فى حياتى كان السبب فى ذلك اننى
لقيت منذ اللحظة الاولى تفهما كبيرا من نيكسون . كما اننى عرفت
بالفعل موقف الولايات المتحدة منا . وكان مما ضاعف بهجتى وجود
عائلتى فى هذا الحفل . وضمت قائمة المدعوين ١٢٠ شخصا من بينهم
اصدقائى من الحزبين الامريكىين . وارثر جولدبرج والسناتور
جاكوب جافيتس ، وروجرز ، وكسينجر ، وايان ورايين ، وبلغ من
روعة العزف الذى اداه اثنان من امهر العازفين اليهود للموسيقى
الاسرائيلية ، اننى نسيت نفسى وقفزت من مكانى احتضنهما بعد ان
انهيا عزفهما .

والقى الرئيس نيكسون كلمة اكد فيها على رغبة شعب اسرائيل فى
اقرار سلام دائم لصالح المنطقة والعالم . ورددت عليه بكلمة شكرته
فيها على كل شئ وخاصة على الفرصة التى اتاحها لى لكى ابلغ شير
ان لنا صديقا كبيرا فى البيت الأبيض . وقبل ان يغادر الحفل تبادلنا
القبلات مع زوجة نيكسون وكأننا اصدقاء قدامى .

وقضيت فى واشنطن أربعة أيام زرت فى خلالها مقبرة الجندي
المجهول ، وقابلت ويليام روجرز وزير الخارجية وملثين ليرد وزير
الدفاع واعضاء لجنة الشؤون الخارجية فى الكونجرس . ودعيت الى نادى
الصحافة حيث قابلت اعلى الصحفيين الأمريكىين وأجبت على كل
اسئلتهم ببساطة واختصار ، ولم يكن فى اسئلتهم جديد .

لكن سؤالين جديدين طرحا على . أولهما ، هل تستخدم اسرائيل
الأسلحة الذرية اذا ما تعرض بقاؤها الى الخطر ؟ ، وأجبت بقولى أننا ن
نجننا حتى الآن بالأسلحة التقليدية . ولقيت الاجابة تصفيقا وضحكا .
أما الثانى فقال لى ، يقول حفيدك جدهون انك أحسن من يطبخ

السماك المشوى فى اسرائيل ، فهل لك أن تذكرى لنا طريقة عمله؟
وأجبت بقولى اننى فى زيارتى القادمة سأدعوكم جميعا الى تناول هذه
الأكلة . وتصادف بعد عدة اشهر ان عرض التلفزيون فى لوس انجلوس
لقاء معى ورد فيه اننى سوف ارسل الى محدثى طريقة عمل الحساء
(الشوربة) . وفى الأسبوع التالى تلقى البرنامج ٤٠,٠٠٠ طلب لهذه
الوصفة .

وادلى نيكسون وقبل سفرى ، ببيان الى الصحفيين باسمه ونيابة
عنى قال فيه ان التفاهم تام بيننا ، وأنا سنحاول البحث عن طريق
نحو السلام . واضاف انه ليست لدينا اية مبادرات جديدة ، لكننا
تفاهمنا على اسلوب العمل فيما بيننا من الآن فصاعدا .

ثم سافرت الى نيويورك حيث اہتلعتنى دوامة من المقابلات
والاجتماعات والحفلات . وكان مفروضا ان اعود الى بلادى يوم ٥
اكتوبر (تشرين الأول) ، لكننى اجلت سفرى يوما كى البى دعوة
اتحاد العمال الأمريكى ، الذى تربطه بالهستدروث روابط وثيقة وامام
هذا الحشد من العمال وقادة الاتحادات احسست انى اقف فى ارض
بلادى .

ولم استطع بعد عودتى الى اسرائيل ان اعلن عن حصولنا على
الفانتوم . وكان الموقف على ما هو عليه .. فحرب الاستنزاف مستمرة
والارهابيون نشطون ، والخبراء السوفيت يزدادون عددا فى مصر بما فى
ذلك طيارو المقاتلات رجال الصواريخ الأرضية

ثم جرت الانتخابات ، السابقة منذ قيام الدولة واسفرت - كما
كان متوقعا - عن فوز المعراخ ب ٦٥ مقعدا من ١٢٠ مقعدا فى الكنيست
وتقدمت الى الكنيست بحكومتى « الائتلافية » التى خرجت منها كتلة
جاحات فيما بعد فى الصيف ،

واصبحت الان رئيسة للوزراء عن جدارة وبحق . وبدأت اعمل على حل المشاكل الاقتصادية التى كانت تخلق شقاقا بين قطاعات المجتمع المختلفة . كانت هناك « اسرائيل الثانية » التى تتكون ممن جاءونا في اعوام ٤٨ و ٥٠ و ١٩٥١ من اليمن ومختلف بلاد الشرق الاوسط ، والذين ازدادت احوالهم تدهورا في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات . كان هناك عشرات الالاف ممن لا يجدون مأوى ولا لباسا ولا طعاما لائقا . لكنه كان هناك هؤلاء الذين يملكون كل ما يحتاجون . بل وكل ما يريدون . اى ان هناك فقرا في اسرائيل . وهناك ثروة .. لكن كلاهما لم يكن كبيرا .

كان هناك . ومازال . اسرائيليون يعيش كل عشرة منهم في غرفتين ، واطفالهم لا يذهبون الى المدارس ، ونظرا لخوفهم من ان يتحولوا الى مواطنين محرومين من الدرجة الثانية . اصبحوا ينظرون الى المهاجرين الجدد على انهم سيسببون لهم مزيدا من التعاسة وسوء الحال . كذلك فان هناك اسرائيليين - ممن يحيون حياة مرفهة ويقودون افخر السيارات وكل مستلزماتهم مستوردة من الخارج ، اى انهم لا يحيون حياة المجتمع ولا طبقا لظروفه . وفيما بين هاتين المجموعتين يقع العمال والفنيون الذين يعيشون على مرتباتهم . والذين اعتبرهم مسؤولين عن تفشى ظاهرة الاضراب والمطالبة برفع الاجور .

كانت تلك هى الطبقة التى وجهت اليها اهتمامى ، دون ان احقق نجاحا يذكر . لكن الهستدروث كان يمر بمرحلة غريبة . فلم يكن به من يؤمن مثلى بان من حق بل وواجب اتحاد العمال ان يدافع عن حقوق العمال ويحميها وان يدعو للاضراب اذا لم تسفر المفاوضات عن اية اتفاقات .. لكن الاتفاقات التى يتم توقيعها لم تكن تلقي احتراما . وكانت تليها على الفور مطالبات اخرى برفع الاجور صحيح ان اطباء

اسرائيل وممرضاتها ومدرسيها يعانون من الناحية الاقتصادية . لكن محليهم ان يفهموا ان هناك من اصحاب المرتبات المنخفضة، من يطحنهم التضخم وارتفاع الاسعار الى حد اهلاكهم . لكننى على وجه العموم كنت اعارض بشدة اية اضرابات في الخدمات العامة . وخاصة في دول تعيش حالة الحرب .

وخرجت على الشعب بحديث قلت لهم فيه اننى لا استطيع ان افعل كل شيء في وقت واحد .. فلا يمكننى ان اقضى على الفقر بدون فرض ضرائب . وان اكسب حروبا . واصلح الاحوال الاقتصادية . واستوعب المهاجرين . ثم اعطى كل واحد حقه بعد ذلك كله . وطلبت الى الفقراء الا يتحولوا الى ادوات سلبية . بل ان ينشطوا من جانبهم . حتى يمكننا تحقيق الاندماج الاجتماعى .

وقمت بتشكيل لجنة خاصة لدراسة طرق التغلب على مشاكل الشباب . استمر عملها سنتين بدلا من عدة اشهر كما كنت اتوقع . وبدأنا في تنفيذ توصياتها قبل ان تطبع . ومن ذلك مثلا اننا عندما كنا نصطر الى رفع اسعار المواد الاساسية . كنا نعطى اصحاب الدخول المنخفضة تخفيضات ضريبية . واوليت اهتماما خاصا بانشاء الوحدات السكنية . المهم اننا كنا ننفذ ذلك في وقت استمرت فيه الحرب واعمال الارهاب . ولو ان جيراننا وافقوا على السلام لامكننا ان نبني مجتمعا افضل .. لكن انى لنا بالسلام !!

وفي اغسطس (آب) ١٩٧٠ تحقق وقف اطلاق النار الذى دعا اليه روجرز . واعلن عبد الناصر من جانبه ان هذا الوقف سيستمر وقتا مدته ثلاثة اشهر . وكأنما كان الوقت رمزا للقدرة . فقد توفى في سبتمبر (ايلول) واصبح انور السادات رئيسا لمصر . ولم يكن السادات فقط - كما بدا - اكثر تعقلا في تفكيره في الفوائد التى ستعود على شعبه من

جراء انتهاء الحرب ، وانما كانت هناك اشارات ايضا على انه لم يكن على وفاق مع الروس . اما الملك حسين ، فقد وجد ان الفلسطينيين يشكلون تهديدا عليه ، فانقلب عليهم وسحقهم . وربما كان ايلول (سبتمبر) أسودا بالنسبة لفتح ، اما بالنسبة لى فقد بدا وكأن هناك فرصة ضئيلة متاحة امام المبادرة الامريكية والدكتور يارنج . ولم ينبر العرب من تصريحاتهم بالنسبة لاسرائيل ولا من مطالبهم بانسحابها الشامل ، لكن الحديث بدأ يتردد عن اعادة فتح قيادة السويس وتعبير مدنها ، الامر الذى بعث بعضا من التفاؤل في اسرائيل ، واستمر وقف اطلاق النار ، وخبا التفاؤل في اسرائيل ، ولم تحدث الحرب في ١٩٧١ ولا في ١٩٧٢ ، لكن السلام ايضا لم يحدث ، واستمرت اعمال الارهاب وازدادت عنفا وشراسة .

ولم يوافق احد بالطبع في كل العالم المتحضر على اجبار الطائرات على النزول في مطار اللد ، او خطف وقتل الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ ، ولا على قتل الاطفال في قرية معالوت . وفي كل مرة كانت تنهال على التعازى ومشاعر التعاطف . ولكن كثيرا كانوا يتوقعون منا ان نتوصل الى تفاهم مع اولئك الارهابيين الذين يريدون ابتزازنا واجبارنا على الركوع امامهم . لقد ثبت ان الاستسلام امام الارهاب لا يؤدي الا الى مزيد من الارهاب .

لكننا تعلمنا ان نصمد امام الارهاب ، وان نحصى طائراتنا وركابنا ، وان نحول سفاراتنا الى قلاع صغيرة ، وان تطوف الدوريات بشوارعنا لحمايتها . وكنت اسير في جنازات الضحايا وازور اسر المنكوبين ، وانا اشعر بالفخر لانتمائى الى امة لم تخضع للارهاب او تستسلم له . هذا في الوقت الذى استسلمت فيه حكومات اخرى لهؤلاء الارهابيين الذين اسماهم اليسار الجديد بـ « الفدائيين » و « المدافعين

عن الحرية » . وبقي هؤلاء الارهابيون في نظرنا مجرمين لا ابطالا . بل اننى اصبت فعلا بالمرض عندما تم الافراج عن قتلة الرياضيين الاسرائيلين في ميونيخ وارسلوا الى ليبيا .

وكان السلام الدائم والمشرف ، هو الحل الوحيد والممكن . وكانت الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هى الاستمرار في اقناع اصدقائنا بصحة موقفنا . مادام اعداؤنا يرفضون الحديث معنا . وتحدى كل احتمال قد يؤدى الى المفاوضات .

وسيبقى الكثير من رحلاتى ومحادثاتى سرا وان كنت قد تعلمت من احدى رحلاتى انه لا يمكن الحفاظ على سرية اى تحرك . فقد كنت في ربيع ١٩٧١ في جولة بين الدانمرك وفنلندا والسويد . وفكرت في ان اقضى يومين في عطلة بين زيارتى لهلسنكى وستوكهولم .. وقررت قبول دعوة لزيارة لابلاند في اطراف فنلندا . وثار الجمع ضدنى سواء لوكدار او حرسى الخاص او رجال الامن الفنلدين ، فهذه المنطقة بعيدة جدا وليس فيها الا الثلوج ولا تبعد عن الحدود الروسية كثيرا . لكننى صممت وذهبت . وهبطنا الى مطار لا تزيد مساحته على مساحة ملعب التنس حيث كان في استقبالنا عمدة لابلاند ومعه بعض سيارات التاكسى . وتصادف ان كان بالمطار احد الصحفيين الذى لاحظ ان زوجة العمدة تحمل زهورا .. اذا فلا بد ان هناك ضيفا هاما ستقدم اليه هذه الزهور النادرة في هذه المنطقة .. ولحنى وانا اهبط من الطائرة فابرق بالخبر على الفور الى رئيسه . وقضيت اليومين في راحة وسعادة اطوف بالبحيرات المتجمدة واشترى الهدايا . ثم عدت الى ستوكهولم لاكتشف ان العالم كله يتحدث عن رحلتى السرية الى قرب الحدود الروسية ويتساءل عن قائلته من المسؤولين الروس هناك .

ولقد مرت بى فترات خلال هذه السنوات الخمس . كنت أتمنى فيها لو تركت كل شىء . لا لارهاق صحى او تعب وانما للملل من تكرار نفسى وأضطرابى الى ان اقول نفس الاشياء في كل مكان تعبت من الحديث عن العقد التى تحكمنى . مع اناس كانوا يرون ان الحل هو ان تسلم اسرائيل اما الى السادات او الى عرفات . نعم ان لدى عقد .. ان لم تكن هذه العقد قد بدأت في كيب ، فقد بدأت في مؤتمر ايفيان عام ١٩٣٨ . ولم يحدث شىء من ايامها يخفف من حدتها . بل ان اناسا في اسرائيل نفسها اخذوا يتهمون الحكومة بانها لا تبذل جهدا « كافيا » للتوصل الى تفاهم مشترك مع العرب .. لكنهم لم يقترحوا علينا شيئا في هذا الصدد .

كما حدثت احتجاجات مستمرة . من قطاع صغير من الاهالى . حول القرار الذى اتخذته الحكومة عقب حرب الايام الستة . بالسماح لعدد من اليهود بالاستيطان في مدينة الخليل . التى كانت عاصمة للملك داود قبل ان ينتقل الى القدس . وكان الصليبيون قد طردوا اليهود منها . ثم عاد بعضهم اليها تحت الحكم العثمانى . واصبح بالمدينة مجتمع يهودى ظل موجودا بها الى ان اقتلعت منها الاضطرابات والمذابح العربية عام ١٩٢٩ . وعندما جاءت سنة ١٩٤٨ لم يسمح الاردنيون لليهود حتى بزيارة كهف ماكفيل المقدس لاداء الصلاة على ارواح الانبياء اليهود .

وبعد حرب الايام الستة . وفي عيد الفصح في ١٩٦٨ قامت مجموعة من اليهود المتعصبين باحتلال مركز الشرطة في الخليل دون استئذان . متحدثين بذلك قرار الحاكم العسكرى بمنع الاستيطان في الضفة الغربية . ولم يكن هناك خلاف على ان هذا التصرف غير لائق ويشوه « صورة » اسرائيل . واقام العرب الدنيا واقعدوها حول « الضم

اليهودى « للخليل . وكان واضحا ان المستوطنين الجدد ارادوا خلق « امر واقع » لاجبار الحكومة الاسرائيلية على اتخاذ قرار بشأن سياسة الاستيطان اليهودى في الضفة الغربية . ولقد اسفت على الطريقة التى نفذوا بها القانون بايديهم ، لكننى كنت ارى ان هناك شيئا اهم من ذلك .

فسألت نفسى وزملائى ، هل من المنطق ان تصدر حكومة يهودية تشريعا يمنع اليهود من الاستيطان في اى مكان على الارض ؟ وقلت اننى سافترض اننا سنوقع معاهدة سلام مع الاردن و « نعيد » الخليل ، فهل يعنى ذلك عدم السماح لليهود بالعودة للعيش فيها ثانية ؟ بالطبع لم يكن في سلطة اى حكومة اسرائيلية ان تمنع اليهود من الاستيطان في الارض المحتلة .. ناهيك عن الخليل التى تعنى الكثير للمتدينين اليهود . واخيرا ، وبعد استعراض كافة الجوانب ، قررنا في عام ١٩٧٠ السماح ببناء عدد من الوحدات السكنية في كريات عرابه (اى مدينة الاربعة ، وهو الاسم العبرى للخليل) . وجرت محاولات للاستيطان ، لدينا استعملنا الحزم ازاءها . وكم كان مؤلما ان يؤمر الجنود الاسرائيليون باخراج اليهود من الاراضى التى ارادوا استيطانها في الضفة الغربية . وقد سمعنا على اية حال لليهود بالاستيطان في الاراضى المحتلة في المواقع التى تمتش مع مصالحنا السياسية والعسكرية .

وكانت الاماكن المسيحية المقدسة في الضفة الغربية ، واحدا من مرائر الاهتمام الدولى . ولا اظننى في حاجة الى التعبير عن سعادتى ببقاء البابا بول السادس في الفاتيكان عام ١٩٧٣ في جلسة استمرت ثمانين دقيقة . يلتقى فيها لأول مرة برئيس وزراء اسرائيل . وكان البابا قد زار اسرائيل عام ١٩٦٤ خلال رحلته للحج ، والتمى خلالها بالرئيس شاراز واشكول وكل

اعضاء الوزارة تقريبا . لكن الجدل الاعظم كان حريصا على ان يؤكد ان الزيارة لا تعنى باى حال اعتراف الفاتيكان بدولة اسرائيل . بل انه جعل الاردن مقرا له خلال الرحلة . وحرص على ان يوجه برقيته من الطائرة الى تل ابيب لا الى القدس .

وقد كانت العلاقة بين الفاتيكان والحركة الصهيونية دقيقة على الدوام . حتى منذ ايام ثيودور هرتزل الذى التقى به البابا بيوس العاشر عام ١٩٠٤ وقال له « اننا لا نستطيع ان نمنع اليهود من الذهاب الى القدس .. لكننا لا يمكن ان نعطي اذنا بذلك .. فاليهود لم يعترفوا بسيدينا . ونحن لا نستطيع الاعتراف باليهود » . لكن هناك باوات آخرون كانت لهم مواقف اكثر صداقة وودا . فقد استقبل البابا بيوس الثانى عشر موسى شاريت مرتين (احدهما بصفته وزيرا للخارجية) . وكان البابا يوحنا الثالث والعشرون ودودا نحو اسرائيل ومتعاطفا . واستقبل بول ابا ايبان عام ١٩٦٩ . كما ان لسفيرنا في روما علاقات طيبة مع شخصيات الفاتيكان الكبيرة . ولم يعترف الفاتيكان باسرائيل حتى الان رغم اعترافه بكل الدول العربية . ومازال موقفه من مسألة القدس في حاجة الى توضيح . لكننى اعتقد ان الفاتيكان اصبح الان مؤمنا بوجود الدولة اليهودية .

وقد بدأت قصة لقائى بالبابا في باريس . فقد كنت في طريقى الى فرنسا لحضور مؤتمر الاشتراكية الدولية (الذى اشغل فيه منصب نائب الرئيس) . ويشترك في هذا المؤتمر القادة الاشتراكيون لحكومات اخرى منها النمسا والدانمرك وفنلندا والسويد بالاضافة الى زعماء احزاب المعارضة وكانت الانتخابات الفرنسية على الابواب . ففوجئت بجورج بومبيدو يتهمنى باننى حضرت لكى ادفع بالاصوات اليهودية في فرنسا الى حانب الاشتراكيين . وكان من نتيجة ذلك ان حصل

مؤتمر الاشتراكية الدولية على قدر من الدعاية . وكان سفيرنا في روما .
امبل نجار . قد اقترح على ان انتهر فرصة رحلتى الى باريس كى
امر بروما والتقى بالبابا . ووافقت . وتمت الاتصالات . ثم تلقيت
رسالة تبلفنى ان البابا قرر مقابلتى يوم الاثنين ١٦ يناير (كانون
الثانى) ١٩٧٣ .

وهزنى النبأ . فسوف اقابل البابا بكل بساطته وعظمته ونظرات
عينيهِ الثاقبتين . ولا ريب ان عصبيتى كانت ستزداد لولا انه بادرنى
بقوله انه يجد من الصعب عليه ان يصدق ان اليهود . دوناً عن
غيرهم . يمكن ان يتصرفوا بهذه « المظاهرة » في بلادهم . خاصة وانهم
قاسوا كثيراً . اه ! هذا هو نوع الحديث الذى لا يمكننى ان احتمله .
حاسة وانه غير صحيح . فلم يحدث اننا اسأنا معاملة العرب في
الاراضى المحتلة . فليست هناك في اسرائيل عقوبة الاعدام . وكل
ما فعلناه اننا وضعنا في السجون اولئك الذين يشجعون الارهاب او
نسفنا منازلهم بعد تحذيرهم مرارا . او طردنا بعضهم . وكدت اسأل
البابا عن مصدر معلوماته . لكننى لم افعل . واكاد اسمع الان صوتى
المرتعش وانا اقول له « هل تعلم يا صاحب القداسة ان اول ذكريات
حياتى هى انتظار مذبحه في كيبف . دعنى أؤكد لك ان شعبنا يعرف
معنى « المظاهرة » وقد تعلمنا معنى الرحمة ونحن نساق الى غرف
العاز النازية .

ولم تكن تلك هى الطريقة المتبعة في مخاطبة البابا . لكننى
احسست اننى اتحدث بالنيابة عن اليهود في كل مكان . الاحياء
منهم او الذين هلكوا في الوقت الذى اصر فيه الفاتيكان على حياده
اثناء الحرب العالمية الثانية . وشعرت اننى اقف في مواجهة تاريخية .
وحملق البابا في عينى لموهله . وبادلتها النظرات بنفس الاسلوب

واخذت اشرح له . بكل الاحترام . اننا لم نعد « تحت رحمة » احد بعد ان اصبحت لنا دولة . وكان كمن يقرأ افكارى عندما قال لى « انها لحظة تاريخية » .

ومضينا نتحدث عن وضع القدس ومشكلة الشرق الاوسط عموما . فاشار البابا الى « الحوار المستمر » بين الكنيسة وبيننا لتحديد شروط معينة بشأن الاماكن المقدسة . واعرب عن تقديره لرعاية اسرائيل لهذه الأماكن . واكدت للبابا استعدادنا لاتخاذ اية اجراءات لادارة الأماكن المقدسة والاسلامية ايضا . وطلبت منه ان يستخدم نفوذه لتحقيق تسوية في الشرق الأوسط ولإطلاق سراح الأسرى الاسرائيليين الذين بهوا في ايدي المصريين والسوريين منذ حرب الاستنزاف .

وما ن مرت الدقائق الصعبة الاولى . حتى ساد الجو ود واسترخاء . وكانت الجلسة في مكتبة البابا في الطابق الثانى من القصر البابوى . وكم دهشت بعدها لما حدث . فقد طلع البروفيسور اليساندريني . المتحدث بلسان البابا . بمذكرة شفوية على الصحفيين - على غير العادة . وظهر جليا ان المقصود من وراء ذلك هو تهدئة العرب بعد اجتماعى بالبابا . وقال اليساندريني ان اللاتاء لم يكن تعبيرا عن التفضيل او المعاملة الخاصة . وانما قبل البابا طلب مسز مائير ابمانا منه بان واجبه الا يضيع ادنى فرصة من اجل البحث عن السلام . دوعا عن كل المصالح الدينية الضعيفة . وعن اللاجئين الفلسطينيين .

واجرى نجار اتصالا تلفونيا بالفاتيكان اعرب فيه عن الاحتجاج الشديد على البيان المضلل . وعقدت مؤتمرا صحفيا في السفارة الاسرائيلية بعد ظهر اليوم نفسه قلت فيه اننى لم اقترح الفاتيكان . وان هذه المقابلة مع البابا . رغم محاولة الفاتيكان السبقيل .

اهميتها . فانها كانت موضع تقديرى وتقدير شعبى . واكدت
للصحفيين انه فيما يتعلق بالسعى نحو السلام وحسن النية في العالم
كله . فان هناك تطابقا كاملا في الاراء بين العرب واليهود .

وتلقت في اليوم التالى عدة هدايا من الفاتيكان . كما تلقت لو
وسيمحا ميداليات . كانت الزيارة تجربة هائلة ومثيرة . وامل ان
تكون قد قربت الفاتيكان الى فهم اسرائيل والصهيونية ومشاعر اليهودى
امثالى عن انفسهم .

اننى لا اشعر بالسعادة عندما اذكر ربيع عام ١٩٧٣ . ففى تلك
الايام كنت اوى الى فراشى في الساعة الثانية صباحا . قائلة لنفسى
اننى قد جننت . فها انذا في الخامسة والسبعين من عمري ومع ذلك
فاننى اعمل واسافر اكثر مما كنت اعمل واسافر في شباسى . وحاول
الجميع اقناعى بتغيير نظام حياتى . بما في ذلك الاطفال ولو وسيمحا
. وكلاهما (التى أصبحت تأتى من الولايات المتحدة حيث تقضى معى
اسبوعين كل مرة) . لكنى لم اكن قادرة على تغيير طبيعتى . فاذا
ما قدر لى ان استمر رئيسة للوزراء . فيجب ان اتحدث مع من يريد
الحديث معى واستمع الى من يريد نقل شىء الى .

فلم اكن لاذهب الى ندوة للمعلمين على سبيل المثال . دون ان اعد
بنفسى الكلمة التى سألقياها . وكلما بحثت في موضوع الكلمة كلما
وجدت مزيدا من الاسئلة تطرح نفسها دون جواب عليها . فقد اردت
ان اعرف عدد الاطفال المتسربين من المدارس . ولم استطع العثور على
عددهم لا من رئيس اتحاد المعلمين . ولا من الوزارة . ولو ان كل معلم
ابلق ناظره عن الغائبين . وابلغ النظار وزارة التعليم بذلك . لكان
العدد الحقيقى للمتسربين معروفا . ثم تنور الاسئلة حول الطريقة التى

تعمل بها المدارس ، وحول الحياة في المدن ومستوى التعليم فيها . هكذا كانت الحصيلة تتجمع امامى لكى اطرحها بالفعل في هذه الندوة .
 وكنت اعطى كل وقتى لكل الناس . فاليهود المهاجرون من روسيا من حقهم مقابلة رئيسة الوزراء وقضاء وقت معها . وقادة الاحزاب كانوا يأتون لمقابلتى فلا اختصر اللقاء معهم . وكنت التقى بممثلى الطوائف والمهن وبالزائرين من الخارج او المستثمرين الاجانب . وغيرهم . اى اننى كنت احب مقابلة الناس سواء في المكتب او البيت . ولكن ذلك كان على حساب البريد والاوراق التى انغمس فيها طويلا بعد ذلك . وكنت اعمل جاهدة على تناول طعام الغداء في المنزل مع لو . ثم اعود الى مكتبى مباشرة . وكانت لدى خادمة تنصرف بعد تقديم الغداء . لكننى نادرا ما كنت اجد وقتا اشاهد فيه فيلما قديما في التلفزيون أو ارتب فيه الارفف .

وكان هناك بعض اعضاء الحكومة الذين يأتون لزيارتى في المنزل حيث نتبادل حديثا وديا حول عدد من الموضوعات . ولم تكن هناك اية قرارات تصدر في هذه الاجتماعات الودية التى كنا نجلس فيها حول مائدة المطبخ نتناول شيئا من القهوة او الطعام . فكان بنحاس ساير ، وزير مالىتى (ورئيس الوكالة اليهودية الان) يأتينى كل اسبوعين او ثلاثة لبحث بعض الامور قبل ان يطرحها امام الحكومة . ويمتلك سبير قدرة هائلة على العمل ، كما انه انجح من ينظم حملات التبرع . وقد عملنا طويلا سويا ، رغم اننا كنا كقطبين متنافرين في عدد من الامور السياسية لكننى لم اكن اتصور ان اراس حكومة لا يكون هو عضوا فيها .

وهناك عضو اخر لا غنى عنه في حكومتى هو اسرائيل جاليلى . وزير الدولة ، الذى كنت اعتمد على نصائحه الى حد كبير . وهو رجل

يتميز بالحكمة والتواضع ، والمقدرة على النفاذ الى لب الامور وصياغة حلولها في اسهل الصور .

كنت ، بشكل عام ، سعيدة الحظ ان اناسا رائعين احاطوا بي . ومن هؤلاء مدير عام الوزارة المرحوم يعقوب هرتزوج ، الذي كان واحدا من اكبر المثقفين ، بالاضافة الى اناس اخلاصهم منقطع النظير امثال موردخاي جازيث ، ويسرائيل ليور ، وايلي مزراحى ، وبالطبع ، سيمحا دنيتس ولو .

وقررت سارة ان تحصل على اجازة من الكمبيوتر لمدة عام تقضيها في دراسة الادب الانجليزي في الجامعة العبرية ، وكان ذلك من دواعي سرورى . فلن اقضى الليل بمفردى . لكن العقبة كانت اننا كنا نفنى كل الوقت نتحدث في امر واحد هو هل ارأس قائمة الحزب في الانتخابات المقبلة . واينما توجهت كنت اسمع نفس المناقشات والحجج التى سمعتها عام ١٩٦٩ ، فالموقف العسكرى قد يتدهور في اى لحظة ، وعلاقنى الرائعة مع نيكسون ليس من السهل على احد غيرى ان يحققها . وكما حدث بعد وفاة اشكول ، ثار نفس التساؤل حول من ي خلفنى في منصبى . وانشغل زملائى في الحزب بالنقاش معنى حول هذا الموضوع ، وانشغلت الصحافة به بالتالى ، وكأنه ليس هناك من مشاغل في اسرائيل سوى . واقول لنفسى الان اننى حتى لو كنت قد قررت انئذ ان اتخلى عن رئاسة قائمة الحزب في الانتخابات ، فاننى كنت سابقى رئيسة للوزراء في اكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، فقد كان موعد الانتخابات مقررا في شهر نوفمبر (تشرين الثانى) .

وفعمت في شهر مارس (آذار) بزيارة لواشنطن ، سبقها حادث مؤسف . فقد اسفطت طائراتنا طائرة ليبية من طراز بوينج ٧٢٧ ضلت طريقها في شبه جزيرة سيناء . وراح ضحبتها ١٠٦ اشخاص . وكان

الحادث واحدا من الماسى التى تحدث في دولة اضطرت الى ان تعيش في حالة استنفار دائم . ليلا ونهارا . ضد الارهاب . فقد نعى الى علمنا ان الارهابيين سيحاولون انزال طائرة محملة بالمفرقات . ولم يكن في وسعنا ان نخاطر للحظة . وكان التراجع ممكنا لو ان الطيار ادلى بهويته . لكنه رفض وثبت ذلك من الصندوق الاسود بعد العثور عليه . واستمع الى الرئيس نيكسون . واعضاء لجنة الشئون الخارجية . وانا اشرح لهم كيفية وقوع هذا الحادث . وفي نهاية لقائى مع نيكسون الذى استمر تسعين دقيقة . اكد لى من جديد استمرار المساعدة الامريكية لاسرائيل واستمرار تأييدها لمطلب المفاوضات مع جيراننا . وكنت اريد لصوتنا ان يصل الى اوربا . فبادرت على الفور الى قبول الدعوة التى وجهها الى رئيس المجلس الاوروبى لحضور جلسات المجلس في ستراسبورج . ولم اكن في حاجة الى دعوة رسمية من فرنسا . وطلبت من سفارتنا في باريس الاكتفاء بابلاغ وزارة الخارجية . وتوجهت مباشرة الى ستراسبورج .

وسمعت أنباء صاعقة قبل مغادرتى اسرائيل . ففد نجح الارهابيون في « اقناع » الحكومة النمساوية باغلاق معسكر الترانزيت في قلعة شاناو . التابع للوكالة اليهودية والذى استخدم لعدة أعوام كمحطة في منتصف الطريق لاغنى عنها لليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتى الى اسرائيل . وقبل ان احكى عن قصة الاستسلام لهذا الارهاب . فلا بد ان اتحدث قليلا عن المهمة التى كانت شاناو تؤدبها . فالمعروف ان من يجرؤ على طلب الهجرة من الاتحاد السوفيتى ينتظر اعواما طويلة قبل ان يأتية رد مقتضب بأن عليه ان يغادر الاتحاد السوفيتى فى غضون اسبوع أو عشرة أيام على الأكثر . وخلال هذه الفترة يقوم المهاجر بترتيب حاجياته التى سيسمح له بأخذها الى اسرائيل وسعى الى

الجمارك لتخليصها ، ثم يفوص في سلسلة من الاجراءات اللازمة لسفره . بالاضافة الى توديع الناس الذين قد لا يراهم في حياته مرة ثانية . كانت المعاملة سيئة وغير انسانية ولا لائقة . لكنها كانت الأسلوب الوحيد لمغادرة الاتحاد السوفيتى .. كأنهم مجرمون يجرى ترحيلهم .

وكانت القطارات التى تحمل المهاجرين الى العالم الحر . تتوقف عند الحدود التشيكية النمساوية . حيث يتولى النمساويون منحهم تأشيرات الدخول . ويتولى رجال الوكالة اليهودية تسجيل اعداد واسماء المهاجرين الجدد . ثم تكتمل الرحلة في فيينا حيث تحملهم سيارات الأوتوبيس الى معسكر الترانزيت في قلعة شاناو التى استأجرتها الوكالة اليهودية من كونتيسة نمساوية . ولم يكن المكان مجرد محطة في الطريق الى اسرائيل ، وانما كان يتم فيه اعطاء المهاجرين معلومات عن اسرائيل . وتصنيفهم وفقا لمهنتهم . واعدادهم ولو بقدر ضئيل للحياة الجديدة ولم تكن فترة بقائهم في شاناو تتعدى اليومين أو الثلاثة . ينقلون بعدها بطائرات العال الى اسرائيل . وقد قمت بنفسى بزيارة شاناو قبل ذلك بعامين . وشاهدت سوء الحالة العقلية والجسدية للمهاجرين القادمين من الاتحاد السوفيتى . المهم ان النمسا كانت هى المنفذ الوحيد لهؤلاء المهاجرين . وكانت شاناو بالنسبة لهم رمزا للحرية والامل

وكان الارهابيون العرب يعرفون ذلك ايضا . وفي نهاية شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٧٣ اقتحم رجلان مسلحان واحدا من هذه القطارات . واحتجزوا سبع رهائن . وابلغوا الحكومة النمساوية انها ما لم تدفع حدا للمساعدات التى تقدمها للمهاجرين وتغلق شاناو ، فانهم لن يقتلوا هذه الرهائن فحسب . بل ان اعمالا انتقامية اخرى

ستحدث ضد النمسا . واصبنا بالدهشة والفرع . اذ استسلمت على الفور
الحكومة النمساوية برئاسة المستشار برونو كرايسكى . وعلى الفور تم
ترحيل الرجلين الى ليبيا . واعربت الصحافة العربية عن ابتهاجها لما
اسمته « ضربة الفدائيين الناجحة ضد حركة هجرة اليهود من روسيا » .
كنت اعرف كرايسكى معرفة قديمة وجيدة . وقد قابلته مرارا في
الامم المتحدة عندما كان وزيرا للخارجية النمساوية . وكان اشتراكيا .
والتقيت به في مؤتمر للاشتراكية الدولية في فيينا ، وما ان دعوته لزيارة
اسرائيل حتى بدأ يتمم ويهمهم . فقلت له اننى اعلم ما ستقوله وهو
انك ستضطر لزيارة الدول العربية ايضا ، ونحن لا نرى ضررا في
ذلك . وعندئذ فقط قبل الدعوة وزار اسرائيل . ورغم ان كرايسكى
يهودى . فانه لم يبد اى اهتمام باسرائيل . وزار اسرائيل في عام ١٩٧٤
على رأس وفد من زعماء الاشتراكية الاوروبيين . وادرت ان اشرح له
وجها لوجه مدى التعقيدات التى سيخلقها اغلاق شانوا ليهود روسيا .
وطلبت الى سفيرنا في فيينا ان يستفسر منه عما اذا كان بوسعه مقابلتى
وانا في الطريق الى ستراسبورج .

ولابد لى من ان اشير . حتى اكون منصفة . الى اننى رغم اقتناعى
بانه لا يوجد سبب واحد للخضوع امام الارهاب . فان القرار النمساوى
كان معقولا في بعض جوانبه . فقد كانت شانوا قد اصبحت معروفة
للجميع . رغم حرصنا على ابعاد الزائرين وحجب الصحفيين عنها .
وثارت شائعات بان الارهابيين قد يهاجمونها . وكانت اجراءات الامن
من الجانب النمساوى رائعة . فالقطارات تجرى حراستها جيدا هى
وقلعة شانوا . لكن اى مكان اخر سوف يكون معرضا لنفس الهجمات .
المهم اننى اردت ان احادث كرايسكى شخصا فعلى انجح في اقناعه
بالعدول عن قراره . وانتظرت الرد على احر من الجمر . وعندما

ومضى الرد علمت انه لن يستطيع مقابلتى في رحلة الذهاب الى
سنراسورج ، لكنه سيقابلنى في طريق العودة .

وكنت قد اعددت كلمتى في المجلس الاوربى ، شكرت فيها
الاحرار، الأوربية على تأييدها للسماح بهجرة اليهود السوفيت ، وعلى
توفعاتنا للتعايش السلمى مع العرب - من وجهة نظرنا . وناشدت
المجلس في ختام هذه الكلمة ان يساعد الشرق الاوسط « على تبنى
النموذج الذى ارسى المجلس قواعده » . ووجدت ان خير ما اختتم به
الامنى قول رجل الدولة الاوربى الشهير جان مونييه ، « لا يعتمد
السلام على المعاهدات والوعود فحسب ، ولكنه يعتمد اساسا على خلق
الظروف التى ان لم تغير طبيعة الانسان ، فانها على الاقل سوف تقود
حظواته نحو طريق السلام » . واحسست ان هذه الكلمات تعبر خير
تعبير عما يمكن ان اقله عن مشاعر اسرائيل وما تطلبه من العرب ومن
العالم .

وبدا نوعا من البله ان اقرأ ما كتبتته من قبل امام المجلس
الاوربى . فقلت لهم ان احداث اليومين الماضيين فرضت على ان اغير
الامنى التى اعددتها والموجودة امامكم . وارتجلت كلمة تحدثت فيها
عن القرار النمساوى قائلة ان الارهابيين قد نقلوا نشاطهم الى اوربا
بعد ان فشلوا في اسرائيل نفسها . واكدت اننى افهم موقف الحكومة .
التى قد تقول انها لا دخل لها بهذا النزاع . والتى قد
تسائل عن السبب وراء اختيسار ارضها بالذات مسرحا لهذه
العمليات . والتى قد تجد لها مخرجا في منع اليهود (وبالتالى
الاسرائيليين ، والارهابيين من استخدام اراضيها . وقلت ان ما حدث في

قيينا هو ان حكومة قد توصلت لاول مرة الى تفاهم واتفاق مع الارهابيين اعطتهم بمقتضاء كل ماطالبوا به . وقلت ان ذلك قد وضع مبدأ حرية تنقل الشعوب موضع التساؤل وخاصة بالنسبة لليهود .. وجعلت من الارهاب نصرا للارهاب والارهابيين .

وقضيت في ستراسبورج يومين . توجهت بعدهما الى قيينا والى مكتب كرايسكى مباشرة . واخذ رئيس الوزراء يعدد لى اسباب خضوع حكومته للعرب . ثم تساءل لماذا اختيرت النمسا بالذات لتكون فيها مشكلة اليهود الروس ولماذا لا تكون هولندا مثلا هي هذا المكان . فقلت له ان الهولنديين لاشك يرحبون بمشاركته هذا العبء . لكن الامر يعتمد اساسا على الروس الذين لا يسمحون بالهجرة الا عن طريق النمسا . وعندئذ قال كرايسكى شيئا لم يكن في استطاعتي قبوله فعلا . اذ قال لى « انت وانا ننتمى الى عالمين مختلفين » . ولو ان الظروف كانت عادية لما عاد هناك شىء اقله . لكننى لانى لم اكن هنا ممثلة لشخصى فقط . فقد اضطرت الى مواصلة النقاش .

واصر كرايسكى على موقفه من اغلاق شانوا مكررا « اننى لم اسمح باراتة الدماء على الارض النمساوية . ويجب عمل ترتيبات اخرى » . وحاولت ان اوضح له باغلاقه محطة الترانزيت في شانوا . فانه يعطى الروس الحجة في منع هجرة اليهود . فاجابنى بانه لا يسعه عمل شىء في هذا الصدد . واقترح ان يقوم رجالنا بنقل المهاجرين فور وصول القطارات . فقلت له ان ذلك مستحيل حيث اننا لا نعرف عدد اليهود في كل قطار . لكنه بدا واضحا أنه لا فائدة ترجى من وراء مواصلة الحديث .

فقد كان كرايسكى حريصا على تجنب المتاعب مع العرب . وهكذا شكرته على استقبالي ورحلت .

وقمنا الى غرفة اجتمع فيها الصحفيون تمهيدا لعقد مؤتمر صحفى ، وما ان فتح لى كرايسكى الباب حتى هزرت رأسى قائلة « لا . ليس لدى ما اقلوه للصحفيين . انا لا اريد الدخول » . ولا اعلم حتى اليوم ما اذا كان قد تحدث للصحفيين بمفرده ام انه الغى المؤتمر . لكن ما اعرفه جيدا هو اننى احسست وكأن فمى قد امتلأ بالرماد . « نحن » ننتمى الى عالمين مختلفين ؟ .. وظلت الاشياء التى قالها لى كرايسكى تدور فى رأسى وتدور . ولم تكن لدى بالطبع اية فكرة عما ينتظرنى فى اسرائيل .

الفصل الرابع عشر

الهزيمة ١

ليس أشق على نفسى في الكتابة ، من بين كل الموضوعات التى كتبت عنها في هذا الكتاب ، قدر أن اكتب عن حرب أكتوبر (تشرين الاول) ١٩٧٣ ، حرب يوم كيبور .

لكنها حدثت ، ومن هنا فلا بد أن اكتب عنها - لا من الناحية العسكرية ، فذلك أمر أتركه للآخرين ، وانما ككارثة ساحقة ، وككابوس عشته بنفسى ، وسيظل باقيا معى على الدوام .

فقد وجدت نفسى في موقف كنت في قمة المسؤولية في الوقت الذى واجهت فيه الدولة أكبر خطر عرفته

وما زال هناك ، حتى على الصعيد الشخصى ، الكثير مما لا يمكن قوله الان ، ولذا فان ماسأقوله ليس هو كل شيء .. لكنه الحقيقة في كل ما عرفته وشعرت به خلال مجرى هذه الحرب ، التى كانت الحرب الخامسة خلال سبعة وعشرين عاما من قيام اسرائيل !

ولا بد من أن أؤكد هنا للعالم بشكل عام ، ولأعداء اسرائيل بشكل خاص ، أن الظروف التى أودت بحياة ٢٥٠٠ اسرائيلى قتلوا في حرب يوم كيبور ، لن تتكرر مرة ثانية .

لقد بدأت الحرب يوم ٦ اكتوبر (ت ١) ، لكننى لا بد أن اعود بالذاكرة أولا الى شهر مايو (ايار) عندما وصلتنا معلومات عن تعزيز القوات المصرية والسورية على الحدود

ولم ير رجال مخابراتنا أن الحرب قد تندلع ، لكننا مع ذلك قررنا معالجة الموقف بجدية . وذهبت بنفسى ائذ الى مقر القيادة العامة ، حيث التقيت بوزير الدفاع ورئيس الاركان دافيد اليعازر « المعروف باسم دادو » ، واستعرضت معها درجة استعداد القوات المسلحة ، واقتنعت بأن الجيش مستعد لكافة الطوارئ ، بما في ذلك الحرب الشاملة .

وأحس عقلى بالراحة ازاء مسألة الانذار المبكر بوقت كاف .
ولسبب ما زال التوتر .

وبدأنا في شهر سبتمبر (ايلول) نتلقى معلومات عن احتشاد القوات السورية في مرتفعات الجولان ، وفي اليوم الثالث عشر من هذا الشهر وقعت معركة جوية تم فيها اسقاط ١٣ طائرة سورية من طراز ميغ .

ورغم ذلك أكد لنا رجال المخابرات أنه ليس من المتوقع أن يقوم السوريون برد فعل كبير .
غير أن التوتر استمر في هذه المرة ، وامتد الى المصريين .

وظلت تقديرات المخابرات على ما هي عليه .. بل انهم قالوا لنا ان التفسير للحشود السورية هو خوف سوريا من أن نقوم نحن بالهجوم .

وظلت هذه التفسيرات تتردد الى عيشة سفرى الى أوروبا .

واتصل بى يسرائيل جاليلى تليفونيا في استراسبورج يوم ١ أكتوبر (ت ١) ، وكان من بين ما أبغله لى أنه تحدث مع ديان ، وانهما يشعران أننا يجب أن نناقش بجدية الموقف في الجولان عند عودتى .
وأبلغته اننى سأعود في اليوم التالى ثم نلتقى في اليوم الذى يليه .

وبالفعل عقدت اجتماعا صباح الاربعاء مع كل من ديان والون وجاليلي وقائد سلاح الطيران ورئيس الاركان ورئيس الابحاث العسكرية في المخابرات نظرا لان رئيس المخابرات كان مريضا يومها .

واستهل ديان الاجتماع ، وتلاه رئيس الابحاث العسكرية في المخابرات حيث قدما عرضا مفصلا للموقف على الجبهتين .

وكانت هناك أمور تثير قلقهما لكن الموقف العسكري ما زال يتلخص في اننا لا نواجه خطر هجوم مصرى سورى ، والاكثر من ذلك هو أنه لا يبدو أن سوريا ستهاجمنا بمفردها .

اما حشود القوات المصرية وتحركاتها في الجنوب فهى على الأرجح المناورات التى تجرى في مثل هذا الوقت من العام وبقي نفس التفسير بالنسبة لانتشار القوات السورية في الشمال على ما كان عليه . وتم تفسير نقل الوحدات السورية من الحدود السورية - الاردنية على أنه نوع من الوفاق بين الدولتين واطهار من سوريا لحسن نياتها تجاه الاردن .

ولم يجد احد من المجتمعين ضرورة لاستدعاء الاحتياطى ، ولم يفكر أحد في أن الحرب وشيكة الوقوع .

وتقرر ادراج موضوع مناقشة الموقف في جدول اعمال اجتماع الحكومة يوم الاحد .

وذهبت كالعادة ، الى تل ابيب يوم الخميس . وكانت عادتى ، لعدة أعوام ، أن اقضى يومى الخميس والجمعة في مكتبى في تل ابيب ، وايام السبت في منزلى في رامات افيف ، ثم اعود الى القدس اما في مساء السبت أو صباح الأحد ، ولم يكن هناك سبب يدعو الى تغيير عادتى هذا الاسبوع . وكان هذا الاسبوع بالذات قصيرا ، لوقوع يوم

كيبور (يوم الغفران) فيه مساء يوم الجمعة ، وهكذا فان عطلة نهاية الأسبوع لدى معظم الناس في اسرائيل كانت طويلة .

واعتقد أن هذه الحرب قد جعلت الكثيرين من غير اليهود ، والذين لم يسمعو من قبل عن يوم كيبور ، يعرفون انه اكثر ايام التقويم اليهودي خشوعا وقداسة ! انه اليوم الوحيد في السنة الذى يتحد فيه كل اليهود في كل انحاء العالم في نوع من العبادة حتى ولو لم يكونوا من الورعين الاتقياء .

ويمتنع المؤمنون من اليهود كلية في هذا اليوم عن الطعام والشراب والعمل ، ويقضونه في المعبد في الصلاة والاستغفار عن الخطايا التي ارتكبوها خلال العام .

ويبدأ هذا اليوم كغيره من الاعياد اليهودية ، بل وكيوم السبت ، اعتبارا من مساء اليوم السابق له وينتهى في مساء اليوم التالى .

أما اليهود الآخرون بما فيهم من لا يصومون فانهم يحتفلون بيوم كيبور على طريقتهم ، فلا يذهبون الى العمل ، ولا يتناولون طعامهم علانية ، ويذهبون الى المعبد ولو ساعة لسماع الصلاة الافتتاحية عشية يوم كيبور ، أو يستمعون الى نفخ البوق (الشوفار) ايدانا بانتهاء الصيام . لكن يوم كيبور ، بالنسبة لمعظم اليهود في كل مكان ، بصرف النظر عن طريقة احتفالهم به ، لا يشبه غيره من الايام .

وفي اسرائيل ، فان الحياة تتوقف كلية في هذا اليوم . فلا توحيد بالنسبة لليهود اية صحف أو تليفزيون أو اذاعة ، وتغلق كل المدارس والمحال والمطاعم والمقاهى والمكاتب لمدة أربع وعشرين ساعة . لكنه نظرا لانه ليس لدى اليهود ما هو أهم من الحياة ذاتها ، ولا حتى يوم كيبور ، فان الخطر الذى يتهدد الحياة يفوق كل شئ

آخر . ولذا فان كل الخدمات العامة الضرورية تعمل خلال هذه الساعات الاربع والعشرين ولو بالقليل من الموظفين
ولسوء الحظ . فان الجيش هو اهم الخدمات العامة الضرورية .
لكن اكبر قدر من الجنود يمنحون اجازات لقضاء هذا اليوم في بيوتهم
مع عائلاتهم .

وتلقينا في يوم الجمعة ٥ اكتوبر (٢١) تقريراً اثار قلقى !
ان عائلات المستشارين الروس في سوريا تحزم امتعتها وترحل على
عجل .

وتذكرت ماحدث قبيل الايام الستة . ولم يعجبنى الامر .
لماذا العجلة ؟ وهل هى عملية احلاء ؟ واستوقفتنى هذه المعلومة
البسيطة من بين فيضان المعلومات المنهمر على مكتبى . وبقيت عالقة
بذهنى ..

ولما لم اجد احدا يقلقه هذا الموضوع فقد حاولت الا ابدو موهومة .
ثم ان الالهام أمر اما ان يتصرف الانسان بناء عليه مباشرة . أو قد
يكون مجرد اعراض للقلق وعندئذ قد يؤدى الى عواقب وحيمة .
وسألت وزير الدفاع ورئيس الاركان ورئيس المخابرات عما اذا
كانت هذه المعلومة تعتبر هامة .. فوجدت انها لم تغير من تقديرهم
للموقف .

وتلقت تأكيداً بأن لدينا انذاراً كافياً لاي متاعب .. كما ان
تعزيزات قد تم ارسالها الى الجبهات لصد اية عمليات عند اللزوم ..
وقد تم اتخاذ اللازم . فوضع الجيش في اقصى حالات التأهب
وخاصة الطيران والمدركات ..

وبعد أن انصرف رئيس المخابرات بقيت مع لوكدار فربت على
كتفى قائلاً لا تقلقى . لن تكون هناك حرب .

لكننى كنت قلقة ، ولم أكن لافهم سر تأكده من أن الامور تسير سيرا حسنا .

ما الذى يحدث لو انه كان على خطأ ؟ فلو ان هناك ادنى احتمال لقيام الحرب فلنستدعى الاحتياطى على الاقل .
واردت أن اعقد اجتماعا على الاقل مع الوزراء الذين سيمضون عطلة يوم كيبور في تل أبيب لكنه تبين أن القليل منهم هم الموجودون .

وترددت في ان اطلب من وزيرى الحزب القومى الدينى اللذين يقيمان في القدس أن يوافيانى في تل ابيب لعقد اجتماع عشية يوم كيبور ، خاصة وان كثيرا من الوزراء سافروا الى « كيبوتراتهم » البعيدة ..

مع ذلك فقد كان هناك تسعة وزراء في المدينة ، فطلبت من سكرتيرى العسكرى أن يرتب اجتماعا طارئاً ظهر يوم الجمعة .

وعقدنا الاجتماع في مكتبى في تل ابيب .. واشترك فيه بالاضافة الى الوزراء ، رئيس الاركان ورئيس المخابرات . واستعرضنا كافة التقارير مرة أخرى بما فيها ذلك التقرير الخاص بالرحيل العاجل - والذى كان لا يزال غير مفهوم بالنسبة لى - للعائلات الروسية من سوريا ..

لكن أحدا لم يبد عليه الانزعاج ..

ومع ذلك فقد قررت أن اعبر عما في نفسى فقلت ، « اسمعوا - ان لدى احساسا مخيفا بان ذلك كله قد حدث من قبل . ان ذلك يذكرنى بعام ١٩٦٧ عندما اتهمنا بحشد قواتنا ضد سوريا ، فذلك بالضبط هو ما تقوله الصحافة العربية ، .
وأنا اعتقد أن ذلك يعنى شيئا .

وكان من نتيجة ذلك أن اتخذنا قرارا - باقتراح من جاليلي - بأن أقوم أنا ووزير الدفاع باستعداد الاحتياطي وإعلان التعبئة العامة إذا ما كان ذلك ضروريا .
هذا على الرغم من أن مثل هذا العمل يحتاج الى قرار من الحكومة كلها .

وقلت كذلك اننا يجب أن نتصل بالأمريكان لكي يبلغوا الروس بوضوح أن الولايات المتحدة ليست في حالة تسمح لها بقبول المتاعب .

وانفض الاجتماع ، لكنى بقيت في مكتبي برهة أفكر .
كيف يمكن أن يظل العرب مسيطرا على من اندلاع الحرب ، في حين ان هناك رئيس اركان حاليا ، واثنين من رؤساء الاركان السابقين (هما ديان وحاييم بارليف الذي كان وزيرا معى للصناعة والتجارة) ورئيسا للمخابرات ، وكلهم يقطعون بأنها احتمال بعيد ؟
انهم فوق كل شيء ليسوا جنودا عاديين ! لقد كانوا جميعا من الجنرالات ذوى الخبرة العالية ، ومن الرجال الذين قادوا الآخرين في معارك وانتصارات وكان لكل منهم سجل عسكري حافل ، اما مخابراتنا فمعروف عنها أنها من بين احسن المخابرات في العالم .
ولم يقتصر الامر على ذلك فحسب ، بل ان المصادر الاجنبية التى كنا على اتصال مستمر معها قد وافقت بصورة مطلقة على تقديرات خبرائنا . فلماذا اذن ما زلت أشعر بالقلق ؟ ولم أستطع الاجابة على سؤالى .

اما اليوم فاننى أعلم ما الذى كان 'ينبغي على ان افعله . كان يجب على أن أتغلب على ترددى . لقد كنت أعلم كغيرى ما الذى تعنيه التعبئة العامة ومقدار الاموال التى تتكلفها . وكنت أعلم أيضا

أننا منذ عدة اشهر ، في مايو (آيار) تلقينا انذارا وقمنا باستدعاء الاحتياطى ، ولم يحدث شئ .

لكننى فهمت أن الحرب ربما لم تقع في مايو (آيار) لنفس هذا السبب وهو أننا استدعينا الاحتياطى .

كان يجب على في صباح يوم الجمعة هذا ان استمع الى انذار قلبى واستدعى الاحتياطى وامر بالتعبئة أن هذه الحقيقة – بالنسبة لى – لا يمكن أن تمنحى ، وليس هناك أى عزاء فيما قد يقوله احد أو في كل التهذئة والتحجج بالعقل الذى حاول زملائى تهدئى به .
ليس المهم هو ما يمليه المنطق .

المهم هو أننى ، أنا التى تعودت على اصدار القرارات ، والتى اصدرتها فعلا خلال الحرب ، قد فشلت في اتخاذ هذا القرار .

وليست المسألة شعورا بالذنب ، اننى أنا أيضا استطيع أن احتكم الى العقل واقول لنفسى إن في مواجهة مثل هذا اليقين الكلى من جانب مخبراتنا العسكرية – والقبول الكلى بقدر مساو لتقديراتها من جانب ابرز رجالنا العسكريين – فان اصرارى على الامر بالتعبئة كان سيبدو أمرا غير مقبول .

لكننى أعلم أنه كان على أن افعل ذلك ، وسوف احيا بهذا الحلم المفزع بقية حياتى ، ولن أعود مرة أخرى نفس الشخص الذى كنته قبل حرب يوم كيبور .

على اية حال ، بقيت في مكتبى الى ان اصبح ضروريا أن أعود الى منزلى . وكان مناحم وأبا قد دعيا بعض الاصدقاء الى زيارتهما بعد موعد العشاء

وفي العادة فان اليهود يتناولون العشاء مبكرين ليلة يوم كيبور ، باعتبارها اخر وجبة لهم خلال اربع وعشرين ساعة .

وجلسنا لتناول العشاء . ولكنى كنت قلقة وفاقدة لشهيتى . ورغم الحاحهما على فى ان ابقى مع اصدقائهما فقد اعتذرت واويت الى فراشى . لكنى لم أستطع النوم .
وكان الليل ساكنا حارا . وكانت اصوات مناحم وأبا وهما يتحدثان مع اصدقائهما فى الحديقة تسيل الى مسامعى عبر البافذة المفتوحة .

وفىما عدا المرات التى نبح فيها الكلب . فقد كانت الامسية ساكنة كأمسيات يوم كيبور بالضبط .
ورقدت مستيقظة غير قادرة على النوم . ولا بد اننى غفوت قليلا بالطبع .

ثم دق جرس التليفون الى جوارى فى حوالى الساعة الرابعة صباحا . وكان المتحدث هو سكرتيرى العسكرى ! وكانت المعلومات التى وصلت تفيد أن المصريين والسوريين سوف يشنون هجوما مشتركا « فى وقت متأخر من بعد ظهر اليوم » .
ولم يعد هناك مجال للشك .

لقد كانت مصادر المخابرات موثوقة . وابلغت ليور ان يطلق من ديان ودادو والون وجاليلى أن يكونوا فى مكتبى قبل الساعة السابعة صباحا .

وبدأ الاجتماع فى الساعة الثامنة . وكان كل اهتمام ديان ودادو موجها نحو حجم الاستنفار .

فأوصى رئيس الاركان بتعبئة كل سلاح الطيران وأربع فرق وقال : انه إذا تم الاستدعاء فورا فسيكون بإمكان هذه القوات أن تتحرك وتعمل فى صباح اليوم التالى . أى الاحد أما ديان فكان يحبذ من ناحية أخرى . استدعاء سلاح الطيران

وفرتين فقط (احدهما للشمال والاخرى للجنوب) ، وبرر ذلك بأننا لو أعلننا التعبئة العامة قبل اطلاق رصاصة واحدة ، فسوف نعطي العالم الحجة لاتهامنا بأننا « معتمدون وكان يرى ، الى جانب ذلك ، أن سلاح الطيران وفرتين في مقدورهما معالجة الموقف ، فاذا ماساء الموقف في المساء فان بإمكاننا استدعاء المزيد خلال ساعات » وقال ، « هذا هو اقتراحى ، لكننى لن استقيل اذا قررتم عكس ذلك » .

وهالتنى الفكرة !! فأنا التى يجب أن تقرر ايهما على صواب !
ولكننى قلت أن هناك معيارا واحدا ، فما دامت هناك حرب ، فليكن موقفنا في أقصى حالات الاستعداد الممكنة ، ويتم الاستدعاء وفق ما أقترحه دادو . لكن هذا اليوم كان بالطبع هو اليوم الوحيد الذى خذلتنا فيه قدرتنا الاسطورية على التعبئة بسرعة .

وكان من رأى دادو أن نبدأ بضربة أجهاضية مادام قد بات واضحا أن الحرب لا مفر منها ،

وقال ، « اريدكم أن تعلموا أن سلاح طيرائنا يمكن أن يكون جاهزا للضرب عند الظهر . لكن عليكم أن تضئوا الى الضوء الاخضر الان » .

لكننى كنت قد اتخذت قرارى ، فقلت له ، « يادادو ، اننى اعرف كل مبررات الضربة الوقائية لكننى ضدها . فكلنا لا يعلم الان ما الذى يخبئه لنا المستقبل ، لكنه يبقى هناك احتمال ان نحتاج الى المساعدة ، فاذا ما بدأنا بالضربة الاولى فلن نحصل على شئ من احد .

وكم كنت احب أن اقول نعم لاننى اعرف مالذى تعنيه ، لكننى سأقول لا بقلب كسير » .

ثم توجه ديان ودادو الى مكتيبيهما ، وطلبت من سمىحا دنيتر

(سفيرنا الان في واشنطنون الذى تصادف وجوده في اسرائيل) ان يعود على الفور الى واشنطنون . واستدعيت مناحم بيجين لا بلاغه بما يحدث .

وطلبت عقد اجتماع للحكومة عند الظهيرة . كما طلبت الى سفير امريكا انئذ . كنيث كيتنج أن يأتى لمقابلتى ... وابلغته امرين ، انه طبقا لتقارير مخابراتنا فان الهجوم سوف يبدأ في ساعة متأخرة من بعد الظهر ، واننا لن نبدأ الضربة الاولى .

كذلك فربما يكون هناك شيء يمكن عمله من اجل منع وقوع الحرب سواء بتدخل امريكى مع الروس او حتى مع المصريين والسوريين مباشرة .

وفي كل الاحوال ، فاننا لن نقوم بضربة اجهاضية وقائية وادرت ابلاغه بذلك لكى ينقله على الفور الى واشنطنون . ولقد كان السفير كيتنج صديقا حميما لاسرائيل ، سواء في مجلس الشيوخ الامريكى او في اسرائيل نفسها ولقد شعرت بالعرفان له بالجميل في هذا الصباح الرهيب لمساعدته وتفهمه

واستمعت الحكومة ، عند اجتماعها ظهرا الى وصف كامل للموقف بما في ذلك قرار تعبئة الاحتياطى وكذلك قرارى بشأن الضربة الوقائية ولم يعارض احد بالمرة .

وفجأة ، وبينما نحن مجتمعون ، دفع سكرتيرى العسكرية باب غرفة الاجتماع حاملا الانباء بأن الضرب قد بدأ وسمعنا في نفس اللحظة تقريبا نعيق صفارات الانذار في تل ابيب وبدأت الحرب .

لم يقتصر الامر على اننا لم نتلق انذارا في الوقت المناسب ، بل اننا كنا نحارب في نفس الوقت على جبهتين ونقاتل اعداء كانوا يعدون انفسهم للهجوم علينا منذ سنين .

كان هناك تفوق ساحق علينا من الناحية العددية - سواء في الاسلحة او الدبابات او الطائرات او الرجال ، وكنا نقاسى من انهيار نفسى سحق .

ولم تكن الصدمة في الطريقة التى بدأت بها الحرب فحسب ولكن ايضا في حقيقة ان عددا من افتراضاتنا الاساسية قد ثبت خطأها !
فقد كان احتمال الهجوم في اكتوبر ضئيلا وكان هناك يقين بأننا سنحصل على الانذار الكافى قبل وقوع الهجوم وكان هناك ايمان بأننا ستقدر على منع المصريين من عبور قناة السويس .

ولم يكن ممكنا ان تكون الظروف اسوأ مما هى عليه الآن
اننى لئن احاول حتى أن اصف كيف كانت تلك الايام بالنسبة لى واطن انه يكفى ان اقول اننى لم أستطع ان ابكى عندما انفردت بنفسى ..

وكان من النادر أن ابقى بمفردى . فقد كنت امكث في مكتبى طوال الوقت ، او اذهب بين الفينة والاخرى الى غرفة الحرب ، وكانت (لو) احيانا تأخذنى الى المنزل لكى استلقى قليلا الى أن يستدعيني التليفون للعودة .

وكانت الاجتماعات مستمرة طوال الليل والنهار ، تتخللها مكالمات تليفونية من واشنطن او انباء سيئة من الجبهات .
وكانت الخطط توضع وتحلل وتناقش .

ولم تكن فترة غيابى عن المكتب تزيد على الساعة فقد كان ديان وداود ورجال وزارة الخارجية والوزراء يأتون الى باستمرار ، اما لاطلاعى على آخر التطورات او لطلب مشورتى في مختلف الامور
لكننا حتى في احلك الايام تلك التى عرفنا فيها مدى الخسائر التى لحقت بنا ، لم نفقد ايماننا بجنود جيش الدفاع الاسرائيلى .

لقد كنت اعرف ان كل تقرير حول امكانية مواجهة المصريين يحمل في طياته الثمن الباهظ الذى ندفعه من الارواح البشرية . وكان بمثابة سكين تغمد في قلبى
ولا اظننى سوف انسى ذلك اليوم الذى سمعت فيه اسوأ التنبؤات المتشائمة .

ففى عصر يوم ٧ اكتوبر (ت أ) عاد ديان من احدى جولاته على الجبهة وطلب مقابلة على الفور . وعندما قابلته ابلغنى ان رأيه هو ان الموقف في الجنوب قد وصل الى درجة من السوء الى حد اننا يجب ان نقوم بانسحاب جذرى . وتقييم خطا جديدا للدفاع واستمعت اليه في فزع .

وكان بالغرفة كل من ألون وجاليل وسكرتيرى العسكرى . فطلبت من دادو ان يحضر ايضا فوجدنا لديه اقتراحا اخر هو اننا يجب ان نستمر في الهجوم في الجنوب وتساءل عما اذا كان في مكانه ان يذهب الى القيادة الجنوبية ليشرف بنفسه على سير الامور . وان يسمح له باتخاذ اية قرارات قد يراها على الطبيعة فوافق ديان ورحل دادو .

ودعوت الحكومة الى اجتماع في ذلك المساء وحصلت على موافقة الوزراء على القيام بهجوم مضاد ضد المصريين يوم ٨ اكتوبر . وعندما اصبحت بمفردى في الغرفة اغلقت عيني وبقيت بلا حراك تماما لمدة دقيقة

واعتقد اننى لو لم اتعلم خلال كل هذه الاعوام كيف اكون قوية لكنت قد تحطمت كلية انئذ
كان المصريون قد عبروا القناة ، وكانت قواتنا في سيناء قد تحطمت

وكان السوريون قد تغلغلوا في عمق مرتفعات الجولان .
 وكانت الخسائر على كلا الجبهتين مرتفعة للغاية وثار سؤال حارق ،
 هل نبلغ الامة عند هذا الحد مدى السوء الذي بلغه الموقف . وكان
 لدى احساس بأننا يجب ان ننتظر قليلا .
 كان اقل ما يجب ان نفعله من اجل جنودنا ومن اجل عائلاتهم ،
 ان نحافظ لانفسنا بالحقيقة عدة أيام اخرى .

ومع ذلك فقد كان من الضروري اعلان أى بيان على الفور .
 وهكذا تحدثت في اول ايام الحرب الى مواطنى اسرائيل .
 وكانت واحدة من اشق المهام في حياتى لاننى كنت اعلم اننى لا
 يجب ان اقول كل الحقائق

وتحدثت الى شعب لبس لديه ادنى فكرة عن الضريبة الرهيبة التى
 يدفعها في الشمال وفي الجنوب . أو عن الخطر الذى تواجهه اسرائيل إلى
 ان سم تمنحه الاحتياالى كلبه ويدفعون إلى المعركة ، فقلت انه ليس
 هناك شك في اننا سوف ننصر واننا فعلنا كل ما يجب من اجل منع
 اندلاع الحرب . لكن الهجوم المصرى السورى قد بدأ .

وحاء ديان الى مكتبى يوم الاحد . واغلق الباب خلفه ثم وقف
 امامى وسألنى « هل تريد منى ان استقيل ؟ فقلت له ، « اننى على
 استعداد لذلك لو انك وجدت ان ذلك يجب ان يحدث من جانبى
 ومالم احصل على تقتك ، فلن استطيع الاستمرار

ولم اندم على انه اضطر للبقاء وزيرا للدفاع . وقررنا ارسال بارليف
 الى الشمال لكنى يضع تقييما شخصيا للموقف .
 ثم بدأنا محادثات حول الحصول على معونة عسكرية من الولايات
 المتحدة .

وكان من الضروري اتخاذ القرارات بكل سرعة وان تكون هذه القرارات صحيحة . فلم يكن هناك وقت للاخطاء .

وفي يوم الاربعاء ، خامس ايام الحرب ، دفعنا السوريين الى العودة عبر خطوط وقف اطلاق النار عام ١٩٧٠ ، وبدأنا هجوما على سوريا اما في الجنوب فقد سكن الوضع نسبيا وفكرنا في قيام جنودنا بعبور القناة

لكن ما الذي سيحدث لو ان قواتنا عبرت ثم وقعت في مصيدة هناك ؟

كذلك كان على ان افكر في امكانية ان تكون الحرب طويلة وان نجد انفسنا بدون ما نحتاجه من طائرات او دبابات او ذخيرة .
كنا في ميسس الحاجة الى كل ذلك وكانت هذه الاشياء تأتينا في البداية ببطء

وقد تحدثت مع دنيترز في واشنطن في كل ساعات النهار والليل ، اين الجسر الجوي ؟ لماذا لم يبدأ بعد ؟

واذكر اننى تحدثت معه ذات مرة في الساعة الثالثة صباحا فقال لى ، (لا يمكننى يا جولدا ان اتحدث مع احد ، ان الوقت مبكر للغاية !

لكننى لم أكن لاستمع الى صوت العقل
كنت اعلم ان الرئيس نيكسون قد وعد بمساعدتنا واعلم من خلال تجاربى السابقة معه انه لن يخذلنا .

واسمحوا لى . عند هذه النقطة ان اقول شيئا طامحا كررته (الى حد انه ضايق اصدقائى الأمريكيين)

مهما كان حكم التاريخ على ريتشارد نيكسون .. وهو حكم اعتقد انه سيكون قاسيا - فانه يجب ان يسجل الى الابد انه لم يخلف وعدا واحدا قطعه لنا اذا لماذا التأخير ؟ .

وصرخت في دنيتر بغضب : « لا يهمنى ما هي الساعة الان .
اطلب كينسجر حالا . في وسط الليل . نحن في حاجة الى النجدة
بسرعة اليوم لانها قد تكون متأخرة جدا غدا »

ولقد نشرت قصة هذا التأخير وكيف تمنعت وزارة الدفاع
الامريكية عن ارسال المعدات العسكرية اليها على طائرات امريكية
والمشكلة التي ثارت عندما بدأنا كالمحمومين نتسوق الطائرات . في
الوقت الذي كانت شحنات الاسلحة الروسية تنهال فيه على مصر
وسوريا وفي الوقت الذي كنا نخسر فيه الطائرات بمعدل مزعج .

وكانت كل ساعة من ساعات الانتظار تنقضى وكأنها قرن بالنسبة
لى . ولم يكن امامنا خيار الا ان نصمد أملين ان تحمل اليها الساعة
المقبلة اخبارا افضل .

وابلغت دنيتر تليفونيا اننى على استعداد للسفر الى واشنطن سرا
لمقابلة نيكسون اذا كان في وسعه ترتيب ذلك وقلت له « ابلغنى حالا
فأنا اريد السفر بأسرع ما يمكن » .

لكن ذلك لم يكن ضروريا فقد أمر نيكسون بنفسه - اخيرا -
بارسال الطائرات الجبارة جالاكسى ووصلت اولى رحلاتها في اليوم
التاسع من الحرب ١٤ اكتوبر

ان هذا الجسر الجوى لا يمكن تقدير قيمته ! انه لم يرفع فقط من
روحنا المعنوية وانما ساهم في توضيح الموقف الامريكى امام الاتحاد
السوفيتى وساعدنا من الناحية العسكرية . وبكى لأول مرة منذ
بداية الحرب عندما علمت ان الطائرات قد حطت بمطار اللد . وكان
ذلك هو اول يوم نعلن فيه قائمة خسائرننا ، فقد مات لنا في المعركة
٦٥٦ اسرائيليا .

ومع أن هذه « الجالاكسى » قد احضرت لنا الدبابات والذخيرة
والملايس والامدادات الطبية وصواريخ الجو ، فانها لم تجلب لنا كل ما
نحتاجه :
ماذا عن الطائرات ؟ .

كان من الضروري اعادة تموين الفانتوم والسكاى هوك في الطريق
فكانت اعادة تموينها تتم في الجو .

وجاءت . وجاءت الجالاكسى ايضا التى كانت تهبط في مطار
اللد . بمعدل طائرة كل خمس عشرة دقيقة احيانا .

وفي الربيع . وعندما كان كل شىء قد انتهى . جاء الى اسرائيل
الكولونيل الامريكى الذى كان مسئولا عن الجسر الجوى . في زيارة
لها مع زوجته . وجاءا لرؤيتى .

وكان من الاشخاص الظرفاء المتحمسين للبلد ولرجالنا .
وأذكر أننى ذهبت مرة لمشاهدة الطائرات الجالاكسى أثناء
وصولها .

وبدت أمامى كنوع من الوحوش الطائرة الهائلة فيما قبل التاريخ
وقلت لنفسى ، حمداً لله أننى كنت مصيبة في معارضتى لفكرة الضربة
الوقائية الاجهاضية ، صحيح أنها كانت - ستنقذ أرواحنا في البداية .
لكننى على ثقة من أنها لم تكن لتجلب لنا هذا الجسر الجوى ، الذى
ينقذ الآن الكثير من الارواح .

وكان دادو في هذه الاثناء يتنقل من جبهة الى أخرى .
وعاد بارليف من الشمال . فأرسلناه الى الجنوب لكى يقضى على
الفوضى التى نشأت هناك نظرا للاختلافات الحرجة بين آراء
الجنرالات على الطبيعة حول التكتيكات التى يجب استعمالها وطلب
اليه أن يبقى هناك طالما كان ذلك لازما .

واتصل بى تليفونيا من سيناء يوم الاربعاء . مباشرة عقب معركة الدبابات الرهيبة وما أن قال لى ، بأسلوبه البطيء . في الحديث « ج - و أ - د - ا » ، علمت أن الامور تسير سيرا حسنا . رغم أن معارك دموية أخرى حدثت بعد ذلك وراحت ضحيتها مئات الارواح من الصغار والكبار ايضا . ولعل ذلك هو ما جعل الناس بعدئذ يقترحون تسميتها لا بحرب يوم كيبور ، وانما حرب الاباء والابناء الذين حاربوا بالفعل غالبا جنبا الى جنب .

وقضيت عدة ايام والعذاب يمزقنى خوفا من أن تفتتح علينا جبهة ثالثة وتنضم الاردن الى الهجوم علينا . لكنه بدا واضحا أن الملك حسين تعلم من درس حرب الايام الستة . وكانت مساهمته في حرب الايام الستة لحسن الحظ هى ارسال فيلق أردنى مدرع لمساعدة السوريين . لكننا كنا عندئذ نهجم اهدافا استراتيجية في داخل عمق سوريا . وكانت مدفعيتنا قد وصلت الى ضواحي دمشق . ولذا فان دبابات حسين لم تكن ذات فائدة .

وفي يوم ١٥ أكتوبر بدأت القوات الاسرائيلية في عبور قناة السويس من أجل اقامة رأس جسر على الجانب الاخر . وقضيت تلك الليلة في مكتبى . وأنا أظن أنها لن تنتهى . وكان مقررا أن يتم العبور أصلا في الساعة السابعة مساء . وكنت قد قررت دعوة الحكومة الى اجتماع لكى أحيط الوزراء علما بما يحدث قبل ساعة من وقوعه .

ثم أبلغت أن العبور قد تأجل الى الساعة التاسعة فقررنا عقد الاجتماع في الساعة الثامنة .

ثم تأجل العبور حتى العاشرة .

وتأجل مرة ثانية بسبب عجزنا من إقامة الجسر ..

وكان الوزراء في هذا الوقت قد حضروا الى مكتبى . وجلسوا فيه ينتظرون معى طوال الليل أنباء العملية .
وبين كل عشر دقائق أو ربع ساعة . كان احدهم يدخل ليقول :
« سيتم الامر حالا . فقط ربع ساعة أخرى »
وهكذا انقضى الليل في عذاب وتوتر واستطاع المظليون العبور . أما المشاة والمدفعية والدبابات فقد تعطل نتيجة لقتال وحشى واجهناه .
وتحدثت في اليوم التالى أمام الكنيست . ورغم شعورى بالتعب فقد تحدثت لمدة أربعين دقيقة . اذ كان لدى الكثير لاقوله .

كذلك اردت أن أعلن على الملأ مدى امتناننا للرئيس والشعب الامريكى . ومدى غضبنا من تلك الحكومات . وخاصة الفرنسية والبريطانية . التى اختارت فرض حظر على شحنات الاسلحة أثناء القتال دفاعا عن أرواحنا .

وأردت فوق كل شىء أن يعرف العالم ما الذى كنا سنواجهه لو اننا انسحبنا الى خطوط ما قبل حرب الايام الستة لعام ١٩٦٧ . تلك الخطوط التى حدث أنها هى نفسها لم تمنع وقوع حرب الايام الستة .

ان الشك لم يخالجنى ولو للحظة أن هدف الدول العربية كان . وما زال . هو تدمير دولة اسرائيل . واننا حتى لو كنا تراجعنا الى ما هو وراء خطوط ١٩٦٧ الى بقعة صغيرة لما توقفوا عن محاولة اجتثاث شأفتها وشأفتنا .

كذلك لم اكن من السذاجة بحيث أصدق أن الخطب والكلمات يمكن ان تقنع كل فرد بكل شىء .

لكننى رأيت من واجبى في يوم ١٦ أكتوبر أن أذكر الدول الأعضاء في الأمم المتحدة والعرب بالسبب الذى دعانا الى التمسك بعناد

بالأراضي التي استولينا عليها في عام ١٩٦٧ ، ألا وهو انتظار محادثات السلام .

وقلت أمام الكنيست في هذا اليوم ان الانسان لا يحتاج الى خيال خصب لكي يتصور موقف اسرائيل فيما لو أنها كانت قد عادت الى خطوط ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

ففي الشمال كانت سوريا تريد ارسال بطاريات من مدافعها وصواريخها الى مرتفعات الجولان لكي توفر غطاء لجيوشها عند اقتحامها لقلب اسرائيل .

وفي الجنوب كانت مصر تريد توزيع قواتها في كل سيناء لكي تصل الى حدود اسرائيل .

ها هي الحرب تشن مرة أخرى ضد وجود الدولة والامة .
لقد ادعى الحكام العرب أن هدفهم هو الوصول الى خطوط ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ . لكننا نعلم جيدا أن هدفهم الحقيقي هو اخضاع دولة اسرائيل كلية .

وواجبنا أن ندرك الحقيقة بكل خطورتها حتى يمكننا الاستمرار في تعبئة أنفسنا وتعبئة كل الموارد اللازمة من الشعب اليهودي لكي نهزم الذين يهاجموننا .

وأردت أيضا أن أسجل اللوم للاتحاد السوفيتي والدور الشرير الذي يلعبه في المنطقة فقلت ان الاثر السوفييتي واضح سواء في المعدات أو المعائد العسكرية التي تتبناها الجيوش العربية .. بالإضافة الى شحنات الاسلحة جوا وبحرا الى مصر وسوريا والعراق .
عدت الى مكتبي لكي أواجه واحدا من أقسى واجباتي . وهو مقابلة الاباء الذين فقدوا ابناءهم في القتال .

ولعل واحدا من أفظع الجوانب في حرب يوم كيبور ، أننا بقينا
لعدة أيام غير قادرين على تحديد مصير الجنود الذين فشلوا في الاتصال
بعائلاتهم ، منذ بدء القتال .

فاسرائيل دولة صغيرة وجيشها - كما يعلم الجميع - جيش
مواطنين يتكون من قوة دائمة محدودة ثم من الاحتياطيين .

ولم يكن قد سبق لنا أن حاربنا بعيدا عن حدودنا ، ولذا فقد كان
من السهل المحافظة على الاتصالات مستمرة بين الجنود وعائلاتهم .

لكن الحرب كانت قد استمرت فترة أطول من أى حرب أخرى -
باستثناء حرب الاستقلال - وكنا قد أخذنا بالمفاجأة على حين غرة .

وكان استدعاء الاحتياطيين قد تم وهم في المعابد ، بعيدا عن
منازلهم ، فلم يستطع بعضهم من فرط العجلة ان يعثر على وحدته .

والتحق الاحتياطيون بالمدرعات دون تدريب كاف .

وقد شنت علينا هذه الحرب بأسلحة مفزعة مثل الصواريخ المضادة
للدبابات التى زودت روسيا بها مصر وسوريا ، والتى كانت تحيل
الدبابات الى لبيب مشتعل ، وتعجن أطقمها بداخلها لدرجة يستحيل
معها التعرف على هوياتهم .

وليس واحدا من التقاليد التى تفخر بها قوات الدفاع الاسرائيلية ،
ان قتلانا وجرحانا لا يتركون للعدو ، لكن الايام الاولى من حرب
يوم كيبور لم تسمح بأى خيار .

وهكذا استبد القلق بمئات الالباء الذين بداوا يتساءلون عن
ابنائهم ، هل مات ؟

اذا كان الامر كذلك ، فأين جثته ؟

هل هو اسير حرب ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا لا يعرف أحد
ذلك ؟

وكنيت قد عانيت مثل هذا العذاب مع اهالى الذين اسروا خلال حرب الاستنزاف .

ومرت ايام في شتاء ١٩٧٣ لم أكن فيها أقدر على الوقوف أمام جماعة أخرى من الاهالى . علمى أننى لا أملك شيئاً أقوله لهم . اذ كان المصريون والسوريون قد رفضوا تسليم الصليب الاحمر قوائم بالاسرى بعد نهاية الحرب بعدة أشهر . أو حتى السماح لحاخامات الجيش بتفتيش أرض المعركة بحثاً عن الموتى .

لكن كيف كان في استطاعتى أن أقول لا للأباء والزوجات الذين كانوا يظنون أنهم ما أن يقابلونى حتى يجدوا عندى بطريقة سحرية جواباً على تساؤلاتهم رغم أننى كنت أعلم . أنهم في قرارة أنفسهم يلوموننى على هذه الحرب وعلى نفس الاستعدادات ولذا فقد كنت أقابلهم جميعاً .

وكانوا لا يريدون منى الا جزءاً من معلومة أو حقيقة أو اثنتين يتعلقون بهما مهما كانت مرارة هذه الحقيقة فقط شيئاً ملموساً يهدىء الالم .

لكننى بقيت عدة أسابيع لا اجد شيئاً أقوله لهم وقضيت معهم الساعات الطويلة . وكان كل ما قلته لهم اننا لن نوافق على أية ترتيبات ما لم تضمن عودة الاسرى ؟

لكن كم هو عدد الاسرى ؟
لا أعتقد أننى أردت شيئاً في حياتى بالحاح قدر ما أردت قوائم الاسرى هذه .

وأنا شخصياً لن أغفر للمصريين وللسوريين أشياء كثيرة . لكننى فوق كل شيء لن أغفر لهم منع هذه المعلومات أياماً عنا ، لمجرد سوء

القصد ولمحاولة استخدام غضب الاهالى الاسرائيليين ضدنا كورقة سياسية في اللعبة .

وأخيرا ، وبعد وقف اطلاق النار ، وبعد شهر من المفاوضات التي انتهت بالفصل بين القوات على الجبهتين ، عاد اسرانا من مصر وسوريا .

وكلما جلست مع مجموعة من هؤلاء الاباء أو الزوجات أو الاخوات المذعورين ، وكلما تذكرت قولى لهم اننا نفعل كل ما في وسعنا للحصول على هذه القوائم ، قلت لنفسى ان الموت أهون وأخف من أن يعذبنا أعداؤنا .

وفي ١٩ أكتوبر ، وهو اليوم الثالث عشر في الحرب ، جاء المستر كوسيجين الى القاهرة في زيارة عاجلة . في محاولة لانقاذ ماء وجه بلاده .

وبدأ الروس في عمل ما كانوا يعملونه دائما في مثل هذه المواقف ، وهو حملة واسعة النطاق من أجل وقف اطلاق النار .. بغض النظر عن بدأ الحرب وعمن خسرها .

على أية حال لقد كان لدينا هدف واحد ، هو السلام . وكان مطلبنا هذه المرة أن يقابلنا العرب . لا في أرض المعركة وانما على مائدة المفاوضات . وأن يجدوا معنا حلا للمشكلة التي أزهدت بسببها الالاف من الارواح - من عندنا ومن عندهم - عبر السنين الثلاثين الماضيات .

لقد ظللنا سنين ننادى (السلام) لكى نستمتع الى صداها .. بجانب الآخر (الحرب) وظللنا سنين نرى أولادنا يقتلون ونتحمل موقفا يتعدى حدود المعقول .. وكانت المرة الاولى التي أبدت فيها الدول العربية استعدادها للاعتراف بوجود دولة اسرائيل ، هى المرة التي هاجمتها بهدف محوها .

وأذكر في إحدى الليالي أنني كنت عائدة من مكتبي في شوارع تل أبيب المظلمة . وكانت محادثات بريجنيف - كيسنجر قد بدأت في موسكو للوصول الى وقف لإطلاق النار أنني أقسمت في صمت أنه على قدر تعلق الامر بى فلن هذه الحرب لا بد أن تنتهى بمعاهدة سلام . مواجهة (اللاءات) الثلاثة العربية التى اعلنوها في الخرطوم عقب حرب الايام الستة والتى قضت ب (لا) للتفاوض معنا و (لا) (للاعتراف) بنا و (لا) للسلام .

وأقسمت في تلك الليلة أن أبذل كل ما في وسعى لتحقيق السلام مع العرب . عن طريق المفاوضات .

وكنت قد عقدت مؤتمرا صحفيا قبل ايام يوم ١٣ أكتوبر سألنى فيه أحد الصحفيين عما اذا كانت اسرائيل توافق على وقف اطلاق النار على اساس الخطوط التى كانت قائمة يوم ٥ أكتوبر قبل الهجوم العربى بيوم واحد . فأجبته بأنه لا فائدة من التكهن بما قد تقبله اسرائيل أو ترفضه طالما لم يبد جيراننا في الشمال وفي الجنوب اية رغبة في وقف القتال .

وسنذكر بجدية عندما نصل الى اقتراح وقف اطلاق النار ونقرر ما يجب . لأننا نرغب في انتهاء هذه الحرب بأسرع ما يمكن . وأضفت قائلا انه برغم تفوق العرب علينا في الاعداد والسلاح والذخيرة . فاننا نتميز عنهم بشئين : كراهيتنا للحرب وكراهيتنا للموت .

وشعرت بضرورة التفاوض مع العرب . في أى وقت ومكان يختاره العرب وذلك في مواجهة الضغط الشديد الذى سيقع علينا بهدف الوصول الى وقف لإطلاق النار

صحيح أنني لم أستخف بحظر تصدير النفط الذى استعملته

السعودية وليبيا والكويت وغيرها ضد العالم . لكنه كان واجبا أن نضع حدودا معينة لتصرفاتنا .

ولكن صرحاء .. فمصير الدول الصغيرة يعتمد في النهاية على القوى العظمى التي دائما ما تكون لها مصالح تريد حمايتها . وكنا نريد مواصلة الحرب لايقاع الهزائم بالمصريين والسوريين وربما لو حصلنا على مزيد من الوقت لتمكنا من تحقيق ذلك . لكن موقف السادات كان بالطبع أقوى منا وكذلك كانت لديه الوسائل لاقناع روسيا وكانت المراهنات عليه في موسكو مرتفعة جدا حقا . ولذا فأننى لم أفاجأ عندها عقد مجلس الامن جلسة طارئة فجر ٢٢ اكتوبر وأصدر قرارا يدعو الى وقف اطلاق النار خلال اثنتى عشرة ساعة .

وقد دعا هذا القرار ، رقم ٣٣٨ ، الى (أن تبدأ المفاوضات بين الاطراف المعنية تحت الرعاية المناسبة بهدف اقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ، لكنه لم يبين كيفية تحقيق ذلك . وطار وزير خارجية الولايات المتحدة من موسكو الى القدس لاقناعى بأننا يجب أن نقبل وقف اطلاق النار واعلنا أننا سنفعل ذلك .

لكن السوريين رفضوه بالمرة .

ومع أن المصريين أعلنوا قبوله فإنهم لم يتوقفوا عن اطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر ، واستمر القتال .

وادليت بيانا أمام الكنيست يوم ٢٣ اكتوبر عن وقف اطلاق النار .

وحاولت أن اقنع شعب إسرائيل باننا لم تقبله لضعف عسكري . واننا لم نطلبه ، وقلت انه اذا لم يلتزم المصريون به فلن نقف ساكتين .

وكان متوقعا أن يتحسن موقفنا على الجبهتين عما كان عليه عندما بدأت الحرب . صحيح أن مصر سيطرت على الضفة الشرقية للقناة . لكن بعض قواتنا كانت متمركزة على الضفة الغربية . أما في سوريا فقد سيطرت قواتنا على كل الاراضى التى كانت تحت يدها قبيل الحرب وأصبح لنا جيب داخل سوريا . ومع ذلك فقد قلت ، وأنا أعنى كل كلمة ، ان اسرائيل تريد لمباحثات السلام أن تبدأ في نفس الوقت مع وقف اطلاق النار . لتحقيق سلام مشرف داخل حدود آمنة .

ودخلت الحرب يومها التاسع عشر بأزمة جديدة . فقد طلب السادات أمرا كان يعلم أننا لا يمكن أن نوافق عليه . وهو أن تقوم قوة أمريكية سوفيتية مشتركة بالاشراف على وقف اطلاق النار . وبدأ الروس استعدادات نشيطة للدخول في المنطقة . أما قصة الاستنفار الأمريكى الذى تلا لذلك . فلست أنا الذى أتحدث عنه .

لكن هناك شىء واحد أريد أن أقوله عنه ، اننى أعلم أن هناك أناسا في الولايات المتحدة في ذلك الوقت افترضوا أن نيكسون (اخترع) هذا الاستنفار لكى يحول الانظار عن فضيحة ووترجيت . لكننى لم أصدق ذلك في حينه . وما زلت لا أصدقه الان . وأنا لا أدعى أن لدى قدرة غير طبيعية على فهم الناس . لكننى في هذه المرحلة من عمري أستطيع أن أعرف متى يتحدث الانسان بايمان صحيح .

وتحضرنى الان ذكرى مناقشة حية جرت بينى وبين الرئيس نيكسون عندما قام الارهابيون بقتل اثنين من الدبلوماسيين

لامريكيين في الخرطوم . وكنت مدعوة لتناول العشاء في تبيت
لايضر في الامسية التي سقت قتلها .

ووقعت قبيل لعشاء أن ورئيس بيكسور وروحه واسحق ريب
(سفيرنا آنذا في واشنطن) تحدث عما يجري في الخرطوم . عندما
بادرنى نيكسون بهدوء قائلا (يجب أن تعلمى ياسر ماثير لى أن
أخضع للابتزاز . ولو تبنى ساومت لاره بيتن على حل وسط الآن .
فاننى أخاطر بتعرض أرواح كثيرة للخطر في المستقبل .
وكان عند كلمته .

وعندما زارنا في اسرئين عام ١٩٧٤ . عندما كان الغضب شديدا
بشأن مقتل الاطفال في معالوت على يد الارهابيين - عاد الى ثورة
الموضوع . فقال لى عندما زارنى في مسرى في القدس (لقد تربيت على
كرهية عقوبة الاعدام . فجدادى من الكويكرز . لكنه لا يمكن
التعامل مع الارهابيين بطريقة أخرى . فلا يجب أن تخضعى
للابتزاز .

وكنت على يقين مطلق . في هاتين المناسبتين . من أن الرجل الذى
يتحدث معى . بعيدا عن الصحافة وكاميرات التليفزيون - كان
يتحدث باخلاص كامل .

واننى ما زلت على ثقة من أن الرئيس نيكسون أمر بالاستنفار
الامريكى لانه - بصرف النظر عن الوفاق واللاوفاق - لم يكن
مستعدا للخضوع للابتزاز السوفيتى .

وأعتقد أن هذا القرار كان قرارا خطيرا . وكان قرارا شجاعا . وكان
قرارا صائبا .

لكنه أدى الى تصعيد في الازمة . وتحتم على أحد أن يدفع من أجل
تهديئة التوتر .

وكان الثمن ، الذى تحتم بالطبع أن تدفعه اسرائيل ، يتضمن السماح بوصول الامدادات الى الجيش المصرى الثالث ، وأن نوافق على وقف ثان لاطلاق النار يتم تنفيذه تحت اشراف قوات الامم المتحدة . ولم تكن مسألة تقديم الطعام والماء الى الجيش الثالث مسألة انسانية ، فقد كنا نرحب بتقديم ذلك كله اليهم لو أن المصريين كانوا على استعداد لالقاء سلاحهم والعودة الى بيوتهم .

لكن الرئيس السادات لم يكن يريد أن يتم ذلك ، في الوقت الذى كانت النشوة تسيطر على المصريين لانتصارهم علينا .

وقلت للحكومة في ذلك الوقت ، دعونا على الاقل نسمى الاشياء بأسمائها ، فما هو ابيض أبيض وما هو أسود أسود ! ليست هناك سوى دولة واحدة يمكن أن نتجه اليها وأحيانا نستسلم لها ، رغم علمنا أن ذلك لا يجب أن يحدث .

لكنها الصديق الوحيد لنا ، وهى صديق قوى . وليس هناك ما يخلج في أن دولة صغيرة كاسرائيل ، عليها في هذا الموقف ، أن تستسلم أمام الولايات المتحدة .

ولكننا لم نوافق على كل شيء ، فقد كان هناك حد أدنى من المطالب من جانبنا ، فيما يلى بيانها كما ذكرته أمام الكنيست يوم ٢٣ أكتوبر ،

• أن نوضح ونؤكد أن وقف اطلاق النار ملزم لكل القوات النظامية في أرض الدولة التى تقبله ، بما في ذلك قوات الدول الأخرى مثل جيوش الاردن والعراق في سوريا ، والقوات التى أرسلتها الدول العربية الأخرى واشتركت في العمليات .

• يكون وقف اطلاق النار ملزما للقوات غير النظامية التى تعمل ضد اسرائيل من اراضى الدولة التى تقبله .

• يكون تقرير الاشراف على وقف اطلاق النار ، بواسطة اتفاقيات .

• اطلاق سراح الاسرى موضوع هام . وقد قررت حكومة اسرائيل طلب تبادل الاسرى .

عند هذا الحد كانت الشخصية البارزة في الشرق الاوسط هي شخصية وزير خارجية الولايات المتحدة ، الدكتور هنرى كيسنجر ، الذى يمكن وصف جهوده من أجل السلام . في المنطقة بأنها فوق طاقة البشر ، وقد تراوحت علاقته مع هنرى كيسنجر بين الصعود والهبوط ، فكانت تتعقد في بعض الاحيان ، وكنت أعلم أننى في بعض الاحيان قد ضايقته بل وربما أغضبته ، والعكس بالعكس .

لكننى أعجبت بمواهبه الثقافية ، وكان صبوراً الى ما لا حد ، وفي النهاية أصبحنا أصدقاء حميمين ، وقد قابلت زوجته وقضيت معها وقتاً طويلاً في اسرائيل ، وأعجبت بها الى حد كبير . وأعتمد أن واحداً من أبرز صفات كيسنجر هي مقدرته الرائعة على تناول أدق التفاصيل في أية مشاكل يعهد اليه بحلها .

وقد ابلغنى أنه لم يكن منذ عامين قد سمع عن مكان يدعى القنيطرة . لكنه عندما اشترك في مفاوضات فك الاشتباك بين القوات السورية والاسرائيلية على الجولان ، لم يكن هناك شيء واحد لا يعرفه عن كل طريق أو بيت أو حتى شجرة هناك . وقد قلت له آنئذ ، انه باستثناء الجنرالات السابقين الذين أصبحوا الان وزراء في الحكومة ، فأنا لا أعتقد أن لدينا وزيراً واحداً يعرف الكثير عندما بدأنا في الطريق الوعر الذى أدى الى فض الاشتباك على مرتفعات الجولان ، كنا قد قلنا اننا لا نستطيع أن نتخلى عن بعض

المواقع على التلال القريبة من القنيطرة والاعرضا المستوطنات الاسرائيلية تحتها للخطر .

عندئذ أبدى كيسنجر تشككه وقال لى : (انكم تتحدثون عن هذه التلال وكأنها جبال الالب أو الهيمالايا) .

(لقد ذهبت الى مرتفعات الجولان ولم أر جبال الالب هناك) .
لكنه كعادته ، كان يستمع بكل اهتمام ، ويعرف بنفسه كل التفاصيل الطبوغرافية ، وعندما يشعر بالرضى ويقتنع بكلامنا ، فانه كان يقضى أياما وأياما في محاولة اقناع الاسد بأن السوريين يجب أن يتركوا هذه المنطقة أو تلك .. وذلك ما كانوا يفعلونه في النهاية .
لكن كيسنجر ظل طوال الوقت يغدو ويروح وكأنه لم يسمع مطلقا عن كلمة اسمها (التعب) .

وكادت المفاوضات مع السوريين تنهار في بعض الاحيان ، فكان كيسنجر يشرع في كتابة مشروع البيانات التى سيصدرونها ونصدها حتى يقال على الاقل انها قد تأجلت ولم تنته كلية ..
ثم جاءنا في اليوم الأخير بطلب جديد من الاسد ، فرفضناه وعندئذ قال لنا ، « حسن . هذه هى النهاية . وسيذهب سيسكو الى دمشق بتعليمات منى ليقول لهم انه لم تعد هناك أى مفاوضات واننا نقترح اصدار بيان مشترك » ..

وجاء كيسنجر لزيارتي عصرا ، وكان مفروضا أن يسافر في الليل وقال لى ، « حسن . هذه هى النهاية » ..
ثم نظر الى قائلا ، « هل تظنين أنه يجب ان اذهب الى دمشق بدلا من سيسكو ؟ »

فاجبته بأننى « لم اجرؤ على أن اطلب ذلك منك . فقد ابلغتني انك لن تلتقى مع اجروميكو في دمشق ، وهو الان هناك » .

واعمل كيسنجر فكره لمدة دقيقة ثم قال : « يجب أن أقابله حتى ولو في لقاء مجاملة قصير . ماذا ترين ؟ اننى سأفعل ما تقترحينه » ..

فقلت له « اظن اننى اعرف شيئا واحدا . لو انك ذهبت بنفسك فان هناك فرصة في ان تنجح هذه المرة ، والا فلن تكون هناك فرصة على الاطلاق » .

واعرب جوزيف سيسكو الذى كان موجودا في الغرفة ، على موافقته ..

وعندئذ نهض كيسنجر قائلا ، « اوكى . سأذهب ، فربما فعلت شيئا بعد كل هذا » ..
وانصرف على الفور ..

ثم عاد الى اسرائيل في حوالى الواحدة والنصف صباحا ، وابرق من طائرته انه يريد منا ان نجتمع في الساعة الثانية والنصف صباحا . وجاء نشطا كأنه قضى الشهر الفائت في مصيف ، رغم ان كل المحيطين به كانوا ذابلين .

وقفز صائحا « كل شيء على ما يرام . لقد فعلتها » . ولو ان كيسنجر ، مع ذكائه اللامع ومقدرته المدهشة على العمل الشاق كان وزيرا لخارجية جابون لما توصل الى اية نتيجة مع السوريين .. لكنه كان يمتلك كل شيء ، الذكاء والمثابرة ، والجلد بالاضافة الى حقيقة أنه كان يمثل اكبر قوة في العالم ، الامر الذى شكل توليفة مؤثرة حقا .

اما كونه يهوديا ، فلا أعتقد أن ذلك قد ساعده أو اعاقه في كل شهر المفاوضات ..
فاذا ما كان مرتبطا بنا عاطفيا ، فان هذا الارتباط لم يعكس

نفسه - ولا لدقيقة واحدة - سواء فيما قاله لنا أو ما فعله بالنيابة
عنا ..

وقد التقى عليه فيصل محاضرة في أول زيارة له للسعودية عن
« الشيوعيين ، الاسرائيليين ، اليهود » .. وهى نظرية فيصل ، التى لم
يتردد في شرح تفاصيلها لكيسنجر ..

وتتلخص النظرية في أن اليهود هم الذين خلقوا الشيوعية من أجل
قهر العالم ..

وقد اصبح جزء من العالم ملكا لهم أما الاجزاء التى لم يستطع
اليهود قهرها ، فقد وضعوا يهودا في المناصب الحكومية الهامة ..
وقال له فيصل ، « هل تعلم أن جولدا مائير قد ولدت في كيف ؟
» فأجاب كيسنجر بالايجاب . فسأله فيصل ، « الا يعنى ذلك شيئا
بالنسبة لك ؟ فقال « لا ليس بالضرورة وهنا قال فيصل ، « كيف ،
روسيا ، الشيوعية ، هذه هى المعادلة » ..

وقد خضت مع كيسنجر مناقشة أو اثنتين بخصوص الادعاءات
الروسية والمصرية بأننا قد خرقنا وقف اطلاق النار ..
كان من الواضح أن كيسنجر يميل الى تصديق ذلك . وفي احدى
المرات اتصل بهى دنيتز تليفونيا من واشنطن ليرجوني ان اقدم
لكيسنجر تأكيداتى الشخصية بأننا لم نفعل ذلك .

وكانت المراسلات مستمرة طوال هذا الاسبوع بيننا .. وكان
الرئيس نيكسون وكيسنجر يطلبان منا فيها ان نتنازل - عن شيء ، ثم
عن شيء آخر ثم عن ثالث - ، وكنت برغم فهمى جيدا للموقف
الامريكى فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتى ارى أن هذا الوابل من
الطلبات قد وصل الى حد مزعج ..

وكتبت خطابا الى كيسنجر اطلب منه فيه أن يبلغنا بكل شيء
يريده منا مرة واحدة حتى يمكننا أن نجتمع ونتخذ القرارات
بأنفسنا ، بدلا من أن نتلقى طلبا جديدا كل عدة ساعات ..
ولهذا فما ان تحدث دنيتز في هذه الحالة حتى قررت ان ارفع
سماعة التليفون واتحدث مع كيسنجر ، بدلا من ان اكتب له رسالة
أخرى .

وقلت له ، « يمكن لك أن تقول أى شيء تريده عنا وأن تفعل أى
شيء تريده لكننا لسنا كذابين ، والادعاءات غير صحيحة » ..
وتوجهت في ٣١ أكتوبر الى واشنطن لمعالجة ما شاب علاقتنا معهم
، ولكى اشرح لهم بنفسى السبب في اننا نرى بعض المطالب غير عادلة
فقط بل وغير مقبولة ..

وذهبت قبلها بيوم الى « افريقيا » مع ديان ودادو لكى ازور القادة
هناك واقضى مع القوات بعض الوقت ..
وتحدثت مع الجنود في الخيام وفي المخابىء تحت الارض واجبت
على اسئلتهم ثم طرت الى مرتفعات الجولان في زيارة مماثلة ..
ووجه الى بعض الجنود اسئلة لم احب عليها بطريقة ترضينى !
فقد كان الغضب مسيطرا على ازاء رفض رفاقى الاشتراكيين في اوروبا
السماح لطائرات الفانتوم والسكاى هوك بالهبوط للتزود بالوقود
كجزء من عملية الجسر الجوى .

واجريت ذات يوم ، بعد عدة اسابيع من الحرب ، اتصالا هاتفيا
بويلى براندات (الرجل الذى يحظى باحترام كبير في الاشتراكية
الدولية) وقلت له ، « انه ليست لدى مطالب من احد ، واريد فقط أن
اتحدث مع اصدقائى ! أريد فقط أن اعرف لنفسى ما هو معنى
الاشتراكية اذا لم تكن دولة اشتراكية واحدة من كل اوروبا مستعدة

لمساعدة الدولة « الديمقراطية » الوحيدة في الشرق الاوسط ! هل من المعقول الان تطبيق الديمقراطية والاخوة على حالتنا ؟ على أية حال اردت أن اسمع بنفسى وبأذنى ، ما هو الذى منع رؤساء هذه الحكومات الاشتراكية من مساعدتنا ؟ » ..

وتمت دعوة الاشتراكية الدولية الى الانعقاد في لندن ، وجاء الجميع ، وتتكون هذه الاجتماعات في العادة من رؤساء الاحزاب الاشتراكية ، سواء من كان منها في الحكم أو أولئك الذين في المعارضة البرلمانية .

ولكونى أنا التى طلبت عقد هذا الاجتماع فقد افتتحت الحديث فأبلغت زملائى الاشتراكيون كل تفاصيل الموقف ، وكيف أخذتنا المفاجأة ، وكيف خدعتنا النوايا الطيبة وايماننا بالتفسيرات التى قدمتها لنا تقارير مخابراتنا ، ثم كيف حاربنا .

وقلت ، « اننى اريد أن افهم ، في ضوء ذلك كله ، ما الذى تعنيه الاشتراكية اليوم .

ها انتم الآن أمامى ، ولم توضع بوصة واحدة من أرض بلادكم تحت تصرفنا من أجل اعادة تمويل الطائرات التى انقذتنا من الدمار ولنفترض الآن ان نيكسون قال لنا انه لا يستطيع عمل أى شئ من اجلنا مادام لم يجد مكانا واحدا في اوروبا لاعادة التمويل فما الذى كنتم فاعلين من اجلنا ؟ ...

انكم تعرفوننا - ونحن اصدقاء قدامى .
ما الذى فكرتم فيه ؟ وعلى أى أساس رفضتم السماح لهذه الطائرات بالتمويل ؟

اننى آخر انسان يستهين بحقيقة أننا دولة يهودية صغيرة واحدة وأن هناك عشرين دولة عربية كبيرة المساحة ولا حدود لنفطها أو

ملايين دولاراتها . لكننى أريد أن أعرف منكم اليوم ما اذا كانت هذه الاشياء تمثل عوامل حاسمة في تفكير الاشتراكية الآن .

وعقب انتهاء حديثى سأل رئيس الاجتماع عما اذا كان هناك من يريد الحديث فلم يتحدث أحد . وفجأة إنبرى أحد الجالسين خلفى (ولم أشأ أن استدير لانظر الى وجهه كى لا احرجه ، قائلا ، « انهم بالطبع لا يريدون أن يتحدثوا .. فالنفظ يخفق حلوقهم » ..
ومع أنه لم تجر أى مناقشة ، فلم يكن هناك في الواقع ما يقال ..
لقد قال هذا الرجل الذى لم ار وجهه كل شيء .

وقضيت في واشنطن ساعة ونصفا مع الرئيس نيكسون . واران الصحفيون بعد ذلك ان يعرفوا ما اذا كان هناك ضغط على اسرائيل لتقديم تنازلات للعرب فأكدت لهم انه لم يحدث أى ضغط . وسألنى احدهم ، « اذا كان الامر كذلك فلماذا جئت الى واشنطن ؟ » فأجبته قائلا ، « لكى أعرف انه ليس هناك ضغط ، فذلك وحده يستحق الحضور » .

وكانت النقطة الجوهرية في محادثاتى مع كيسنجر هى خطوط وقف اطلاق النار في الجنوب . ولم تكن المحادثات سهلة أو باعثة على السرور . وكنت قد أحضرت معى اقتراحا من ست نقاط واذكر أن كيسنجر بقى ليلة بكاملها يناقشها معى وقلت له في أحد المراحل ، « انت تعرف أن ما نملكه هو الروح ، وانت الآن تطالبنى بأن أعود الى بلدى وأحطم هذه الروح . وساعتها لن نكون بحاجة الى أى مساعدة » ..

وقد تم توقيع الاتفاقية بين اسرائيل ومصر في يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٣ عند الكيلو ١٠١ على طريق القاهرة - السويس ووقعها الجنرال اهاروف

ياريف عن اسرائيل واللواء عبد الغنى الجسمى عن مصر . ونصت على ما يلى .

١ - توافق مصر واسرائيل على الالتزام بدقة بوقف اطلاق النار الذى دعا اليه مجلس الامن .

٢ - يوافق الطرفان على ان المحادثات بينهما تبدأ مباشرة بتسوية مسألة العودة الى مواقع ٢٢ أكتوبر في اطار اتفاقية فصل القوات تحت رعاية الامم المتحدة .

٣ - تتلقى مدينة السويس الإمدادات اليومية من الطعام والماء والادوية ، ويتم اخلاء جميع الجرحى من المدنيين في المدينة .

٤ - لن تكون هناك اية عوائق امام مرور الامدادات غير العسكرية الى الضفة الشرقية .

٥ - يتم استبدال نقاط التفتيش الاسرائيلية على طريق القاهرة - السويس بنقاط تابعة للامم المتحدة . وفي نهاية الطريق عند السويس يمكن للضباط الاسرائيليين ان يساهموا مع الامم المتحدة في الاشراف على ان تكون الشحنات الى الضفة الشرقية غير عسكرية .

٦ - فور اقامة نقاط التفتيش التابعة للامم المتحدة على طريق القاهرة - السويس ، يتم تبادل الاسرى ، بما في ذلك الجرحى .

وهكذا تم ، لأول مرة من ربع قرن ، اجراء اتصال مباشر بسيط ، شخصى بين الاسرائيليين والمصريين . فجلسوا في الخيام سويا ، وبحثوا تفاصيل فك الاشتباك .

وعاد اسرانا من مصر ، سواء الذين اسروا في حرب الاستنزاف أو في حرب يوم كيبور .

وقد بكى بعضهم كالاطفال عندما تقابلنا . وقد احضروا معهم العديد من الهدايا .

ولكننا بقينا نجهل كل شيء عن اسرى الحرب في سوريا . وفي كل يوم تقريبا كانت هناك جنازات عسكرية للذين قتلوا في سيناء ثم عثر على جثثهم المتفحمة مؤخراً وتم التعرف عليهم ..
ومما زاد الطين بلة ان المزاج العام في إسرائيل كان سوداويًا ورغم الشعور المتزايد بأن الفصل بين القوات قد يسفر هذه المرة عن سلام حقيقى ..

وانطلقت الصيحات من كل قطاعات الشعب تطالب الحكومة بالاستقالة ، والاتهامات بأن حالة الاستعداد الضعيفة لدى الجيش كانت نتيجة لاختفاء القيادة والاهمال وانعدام الاتصال بين الحكومة والشعب .

وقامت عدة حركات احتجاج ، اختلفت في برامجها ومنطلقاتها ، لكنها كانت تشترك في مطلب واحد هو التغيير وضمت هذه الحركات بعض الاحتياطيين الذين غالبا ما كانوا يعبرون عن ارائهم بتسرع واحيانا بطريقة المتنى .

وكنت اختلف مع الكثير مما قالوه عن الماضى لكن بعض ما قالوه كان صحيحا ..

لكننى على اية حال تحتم على ان استمع الى ما لديهم ، فالتقيت كثير من الشباب المنضمين لهذه الحركات . وحاولت أن اسهل لهم حديث معى وتكون لدى الانطباع بأنهم قد فوجئوا بالفرق بين هذه لرأى التى تستمع اليهم باهتمام وبين الصورة التى كونوها عنى .
وأعتقد انهم ، فى هذا الجو المشحون بالشك والاتهام ، قد فوجئوا أيضا بنفس القدر بما قلته لهم

ولقد كان السخط حقيقيا وكان معظمه تعبيرا طبيعيا عن الغضب ازاء السلسلة القاتلة من الأخطاء التى وقعت ..

ولم تكن استقالتي أو استقالة ديان هي المطلوبة في هذه العاصفة من الاحتجاج ، لقد كان المطلوب ان يزال من على المسرح كل من كان مسؤولا عما حدث وان نبدأ من جديد بأناس جدد ، اناس اصغر سنا أناس لم يوصموا بتهمة تضليل الامة في مسيرتها ..

كانت المسألة رد فعل للموقف المتطرف الذى كنا فيه ، ولهذا كانت المسألة مفهومة رغم انها كانت موجعة ومؤلمة ..

لكن جانبا من هذا الانفجار كان شريرا ، وكان الجانب الاخر ديماجوجيا ، أو كان ببساطة يتخلص في تكوين رصيد ورأسمال سياسى بركوب موجة المعارضة للمأساة وطنية

واستمعت في اول مناقشة سياسية في الكنيست بعد الحرب الى الخطب التى القاها اقطاب المعارضة ، بما في ذلك مناحيم بييجين وشامويل تامير ، اللذين مزقانى اربا ..

كان الكلام مليئا بالالفاظ الضخمة والحركات المسرحية الى حد لم احتمله . وعندما قمت لكى انهى المناقشة قلت لهم ان طبيعة كلماتهم وخطبهم من النوع الذى لن اجيب عليه .

وقلت ، ان استفاضتهم وطلاقتهم في الحديث ذكرتني بما قاله صديق صهيونى عمالى حينما حضر احدى المناقشات التى لم تكن تماثل في خطورتها ما نناقشه الآن وقال تعليقا على كلام أحد المتحدثين بقوله ، « تمنيت فقط لو انه تلغى او تردد مرة واحدة » ..

لقد كان بييجين وتامير يتحدثان عن كارثة حديثة ، عن رجال ماتوا أو أصبحوا معقدين ، عن أشياء رهيبه ، ومع ذلك فقد كان حديثهم متدققا ، لم يتوقفوا فيه حتى ولو لحظة لالتقاط انفاسهم ، واصبت بالاشمئزاز .

كان موسى ديان هو قلب العاصفة .

وقد جاء أول طلب صريح باستقالته ، على ما أذكر ، من احد وزراء الحكومة وهو يعقوب شمشون شايبو وزير العدل ..
ولا أظن أنى سوف أنسى غضبتي عليه لانه اختار تقديم هذا الطلب في ذروة الازمة التى سبقت وقف اطلاق النار الثانى ، ولانه قدم هذا الطلب في اجتماع كان يعلم أن الصحافة سوف تلتقطه منه فيه .

وكانه لم يكتف بذلك ، فقد أبلغنى أنه أخذ يطوف بالمجموعات الموجودة في مطعم الكنيست ليلبغهم بما فعله ..
فطلبت اليه أن يأتى لمقابلتى .. فجاء الى مكتبى وقال لى ، حيث اننى أعلم أنك لم تطلبى من ديان الخروج من الوزارة ، فقد جئت لكى أقدم استقالتى) .

فقلت له ان لدى سؤالين ، ولن أطلب منه البقاء ، لانه جعل من المستحيل على أن أفعل ذلك .

أولا - أردت أن أعرف لماذا اختار هذا اليوم بالذات ؟ فأجابنى قائلا ، حسن . لان هذا هو يوم وقف اطلاق النار .

فقلت له ، هكذا تتصور ؟ ان لدى أخبارا لك مؤداهان القتال مستمر اليوم وقد قتل بعض رجالنا وجرح اخرون .

وليس هذا في الواقع هو اليوم الذى لك أن تتقدم فيه بهذا الطلب الى وزير آخر .

وثانيا - لماذا لا تطالبنى بالاستقالة ؟ فأنا رئيسة الوزراء .
وهنا أجاب شايبو بقوله (أنت لست مسئولة . فأنت لست وزير الدفاع) .

وجاء ديان بعد ذلك الى مكتبى وسألنى مرة ثانية ، (هل تريد منى أن أستقيل ؟ اننى على استعداد لان أفعل ذلك) .

ومرة ثانية قلت له : لا .. فقد كنت أعلم أن تشكيل لجنة تحقيق رسمية أصبح وشيكا .

وهى اللجنة التى شكلت فى ١٨ نوفمبر تحت رئاسة شيمون اجرانات رئيس المحكمة العليا .

وعلى هذا فالى أن تنهى عملها وترفع نتائجها ، فان مبدأ مسئولية الحكومة الجماعية يظل قائما وتظل نفس أهمية المسئولية الوزارية .

وكانت الازمة الحكومية هى آخر ما تحتاجه اسرائيل فى مثل هذا الوقت .

وكنا على أية حال قد أجلنا موعد الانتخابات العامة من ٣١ أكتوبر الى ٣١ ديسمبر (كانون الاول) ، وعندئذ تصبح الامة قادرة على التنفيس عن مشاعرها .

وعلى هذا ، ورغم أن الاستقالة كانت تراودنى ، فقد وجدت أن من الأفضل أن أبقي وقتا قليلا ، وكذلك ديان .

ولقد كان ديان ، بالطبع ، أكثر أعضاء الحكومة تناقضا ، بل وربما أكثرهم تعقيدا .

وكان دائما الرجل الذى ينتزع أقوى استجابة من الجماهير .

وكانت له ، بالطبع ، أخطاؤه التى كانت - كفضائله - كبيرة .

وحتى أكون صريحة ، فان واحدا من الاشياء التى أفخر بها الى حد كبير أننى حافظت طوال خمسة أعوام على حكومة لم تضم ديان فحسب ، بل ضمت عددا من الرجال الذين كانوا يكرهونه ويستاءون منه جدا .

لكننى منذ البداية كونت فكرة جيدة عن المشاكل التى قد أواجهها فى هذا الصدد .

فقد عرفت ديان لسنين طويلة . وكنت اعلم أنه عارض رئاستي للوزارة بعد وفاة أشكول . ولذ فقد كانت الطريقة الوحيدة التي تحتم على العمل بمقتضاها ، هي أن تكون أية مواقف اتخذها مبنية على أساس جوهر كل موضوع ، وأن أثبت للحكومة – ولديان نفسه – أنني لا أضع تقييما للمقترحات بناء على شخصية من يقدمها .

ولا بد أن أقول شيئا لصالح ديان ، وهو أنني عندما لم أكن أؤيد ديان في شيء ما ، فإنه يتقبله بصدر رحب ، رغم أنه لم يكن من السهل عليه أن يعمل مع الناس وأنه كان معتادا على التصرف بأسلوبه الخاص .

وقد أصبحنا في النهاية صديقين حميمين ، ولم تكن هناك مناسبة واحدة شكوت فيها من عدم اخلاصه .
حتى في الامور العسكرية ، فإنه كان يحرص دائما على أن يأتيني أولا وبرفقته رئيس الاركان .
وكنت أقول له أحيانا ، (اننى لن أصوت لصالح هذا الموضوع ، لكن لك الحرية في عرض اقتراحك على الحكومة) .
لكننى ما أن كنت أخالفه في أحد أفكاره ، حتى كان يصرف النظر عنها .

فاذا وضعنا في اعتبارنا ما عرف عن ديان من أنه لا يستطيع العمل كجزء من فريق ، وما عرف عنى انه لا أصل الى حلول وسط بسهولة ، فأننى أعتقد أننا بشكل عام قد نجحنا .

كذلك فإنه ليس صحيحا أنه رجل قاس !
فلقد شاهدته وهو يعود ممزقا من تلك الجنازات المؤلة بعد الحرب ، عندما كانت النساء يدفعن الاطفال في وجهه صارخات

(انت قتلت أباهم) ، وكان النائحون يلوحون بقبضاتهم في وجهة وهم يصفونه بأنه مجرم .

اننى اعرف مشاعرى ، وأعرف كيف شعر ديان . وكان في الايام الاولى من حرب يوم كيبور متشائما الى حد كبير ، وأراد أن يعد الامة لمواجهة تدهور الموقف الى ما هو أسوأ . فدعا الى اجتماع لرؤساء تحرير الصحف لكي يصف لهم الموقف ، وحضر الاجتماع .. وذلك لم يكن بالقطع امرا سهلا عليه .

ولقد منعتة من الاستقالة أثناء الحرب ، لكننى اعتقد أنه ربما كان عليه أن يستقيل مباشرة عقب قيام لجنة أبحاث للتحقيق بنشر تقريرها الاول يوم ٣ ابريل ١٩٧٤ .

وقد برأ هذا التقرير ديان (وبرانى) من أية (مسئولية مباشرة) عن عدم استعداد اسرائيل في يوم كيبور ، لكن التقرير عامل رئيس الاركان ورئيس المخابرات بقسوة الى حد أن داود استقال على الفور .

ولطالما شككت في أن ديان كان يمكن أن يحتفظ بصورته (ذات السحر والبريق) ، أو بعضا منها على الأقل ، لو أنه تضامن مع رفاقه في السلاح آنئذ ، وعلنا .

ولقد قرأ التقرير المبدئى (والجزئى فقط) في مكتبى ، ثم سألنى للمرة الثالثة عما اذا كان عليه أن يستقيل ، فقلت له . (في هذه المرة يجب أن يكون القرار للحزب) .

لكنه كان يسير على منطق خاص به ، ولم أشعر أنه يجب على أن أقدم له النصيحة في مثل هذا الامر الكبير .

أما بالنسبة لى فقد قالت اللجنة عنى ، (انها في صباح يوم كيبور قد قررت بحكمة ، وبادراك حسن وسرعة ، الامر بالتعبئة الشاملة

للاحتياطى . وفقا لتوصية رئيس الاركان ، برغم الاعتبارات السياسية الكبيرة ، فقدمت بذلك خدمة هامة للدفاع عن الدولة) .

وكان الكثيرون من خارج اسرائيل يرون أن الموقف فيها خلال شتاء ٧٣ - ١٩٧٤ كان أكثر اشراقا مما بدا لدى للاسرائيليين أنفسهم .

وقد زارنى في تلك الفترة المرحوم ريتشارد كروسمان ، الذى ارتبط بميلاد الدولة ، ولم يفهم السبب في الكآبة واليأس المسيطرين ، وسألنى عما يحدث .

فسألته ، (ما هو الرد الفعلى الذى يمكن أن يحدث في انجلترا لو أن شيئا مماثلا حدث للبريطانيين ؟) .

وقد فوجئ بسؤالى لدرجة أنه سكب فنجان القهوة .

وقال ، (هل تظنين أن أشياء كهذه لم تحدث لنا ؟ أو أن تشرشل لم يرتكب أخطاء أثناء الحرب ؟ أو أن دانكرك لم تحدث لنا غيرها من النكسات أيضا ؟ .. المسألة أننا لم نأخذ الامور بهذه الطريقة المتوترة) .

لكننى أعتقد اننا مختلفون . وإن كلمة (الصدمة) التى كانت على كل لسان طوال هذا الشتاء ، تصف بكل دقة الاحساس القومى بالخسارة الجسيمة والضرر البالغ ، اللذين كان كروسمان يرى انهما مبالغ فيهما .

الفصل الخامس عشر

نهاية الطريق

ومرت الايام . وظل الاحتياطيون في حالة تعبئة في الجنوب وفي الشمال الذي غمرته الثلوج . ولم ينته اطلاق النار ، وبقي المزاج العام في اسرائيل سوداويا متمللا قلقا . واستمر كيسنجر في مزاولة جهوده من اجل تأمين فصل القوات بين سوريا واسرائيل والحصول على قائمة بالاسرى الاسرائيليين في سوريا . وتحقيق محادثات جنيف بين المصريين والاردنيين وبيننا ؛ نظرا لان السوريين اعلنوا في شهر ديسمبر (كانون الاول) انهم لن يشاركوا فيها . ورغم انه قد بدا على السطح وكأننا اقرب الى السلام من ذي قبل ، فالواقع انه لا انا ولا كثير من الاسرائيليين كنا نعتقد في قرارة انفسنا اننا سوف نخرج من جنيف بمعاهدات سلام في ايدينا ، بل وذهبنا الى هناك دون ان تراودنا اية اوهام او تستبد بنا النشوة . ومع ذلك فقد وافق المصريون والاردنيون على الجلوس معنا في نفس الغرفة . وكان ذلك في حد ذاته شيئا لم يسبق لهم ان وافقوا عليه من قبل .

وبدأت محادثات جنيف في ٢١ ديسمبر (كانون الاول) ، ولم تؤد الى اى نتيجة ، تماما كما كنت اخشى . فلم يكن هناك حوار حقيقى بين المصريين وبيننا . بل على العكس بدا واضحا منذ اللحظة الاولى ان شيئا لم يتغير . فقد رفض الوفد المصرى السماح بوضع مائدته الى جوار مائدتنا ، وكان الجو بعيدا عن ان يوصف بالصداقة . وكان من الواضح ان المصريين يريدون اتفاقية عسكرية ، اما السلام فقد اكتشفنا

مرة اخرى انه ليس هدفهم . ومع ذلك ، ورغم ان الاجتماع لم يخرج
بحل سياسى ، فقد تم بعد عدة ايام ، ومنذ الكيلو ١٠١ ، توقيع اتفاقية
فصل القوات . وبقى الامل يراودنا في ايجاد حل سياسى بشكل من
الاشكال . فمن المؤكد ان المسيح المخلص لم يقطع هذا الطريق الطويل
حتى الكيلو ١٠١ ثم تكاسل عن مواصلته .

وجرت الانتخابات عندنا في ٣١ ديسمبر (كانون الاول) .
واظهرت نتائج التصويت ان البلد لا تريد تغيير الجياد في وسط
الطريق . ورغم اننا خسرنا بعض الاصوات - تماما كما حدث مع
الحزب القومى الدينى - فقد خرج « المعراخ » متقدما باكبر نسبة من
الاصوات . لكن المعارضة للمعراخ اصبحت اكثر قوة بسبب اشتراك كل
الجناح اليمىنى في كتلة واحدة . وهكذا تحتم تشكيل ائتلاف من
جديد ، رغم صعوبة هذه المهمة ، نظرا لان الكتلة الدينية ، التى كانت
شريكننا التقليدى في الائتلاف ، منقسمة على نفسها حول موضوع من
يتولى قيادتها وما هى سياستها في هذا الوقت العصيب .

وكنت قد بدأت اشعر بالاثار النفسية والجسدية لاحداث الشهور
السابقة . وكان الارهاق المميت قد حل بى لدرجة اننى لم اكن على
ثقة من اننى سوف انجح - في مثل هذا الموقف - في تشكيل حكومة ، او
اننى يجب حتى ان احاول ذلك . فلم تكن هناك فقط مشاكل لا داع
لها ، بل كانت هناك ايضا مصاعب في داخل الحزب . وشعرت في
اوائل مارس (آذار) باننى غير قادرة على الاستمرار ، فابلغت الحزب
باننى قد اكتفيت بهذا القدر . لكن الوفود انهمرت على ترجونى ان
اغير رأى . فمازال الاحتمال قائما بان تندلع الحرب ثانية ، حيث انه
لم يتم فصل القوات مع سوريا ، وكان السوريون مستعدين في خرق
وقف اطلاق النار . وقيل لى مرة اخرى ان المعراخ سوف يتفسخ ما لم
ابق في موضعى .

وكان يبدو لي في بعض الاحيان ان كل ما وقع منذ بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر (تشرين الاول) قد وقع في يوم ممتد لا نهاية له . وكنت اريد لهذا اليوم ان ينتهى . وطنفى الضيق على صدرى ازاء انهيار التضامن داخل دوائر الحزب . كذلك بدا وكأن الناس الذين كانوا وزراء في حكومتى ، اولئك الزملاء الذين عملت معهم سنوات ، والذين كانوا شركاء في تشكيل سياسة الحكومة . بدوا غير مستعدين للوقوف في وجه حملة النقد الظالم ، بل والقذف ، التى انهالت على وعلى ديان وجاليلى على اساس ان ثلاثتنا تولينا مهمة اتخاذ قرارات حاسمة ادت الى الحرب ، دون ان نستشير الاخرين . كذلك فقد كرهت ذلك الحديث الذى لا يتسم بالمسؤولية عما يدعى بـ « حكومة المطبخ » التى افترضوا انها قد حلت محل الحكومة الى حد ما وذلك عندما تصرف كهيئة لصنع القرارات . لقد كان من الطبيعى ان ابحث عن النصيحة لدى الناس الذين كنت اكن تقديرا لاحكامهم . لكن هذه المشاورات الرسمية ، على اية حال ، لم يحدث انها في اى وقت او باى اسلوب اخذت شكل القرار الحكومى او حلت محله .

ومضيت ، مع ذلك كله ، خلال شهر مارس (اذار) كله اصارع من اجل تشكيل الحكومة ، رغم ان هذه المهمة بدأت تزداد استحالة ، وخاصة ازاء المطالبة المستمرة بتألف شامل ، وهو الامر الذى كنت ومعظم الحزب نعارضه اكثر من اى وقت مضى . فلم يكن الوقت يسمح باجراء تجارب سياسية ، وضاع كل ايمان لدى بان المعارضة يمكنها ان تصدر احكاما جيدة او تظهر ادراكا طيبا او تبدى اية مرونة ازاء المحاولات التى بدأت اسرائيل تزاولها ، اخيرا ، للوصول الى نوع من التفاهم مع جيراننا . ولم اكن اريد لاعباء الحكومة ان يضاف اليها عنصر قد يرفض التفاوض - عندما يحين الوقت - بسبب موقفه

السلى قلبه ازاء اية تنازلات اقليمية . وحاجة مما يتعلق بالضفة الغربية . وكنت اعلم ان هناك - لاسباب تاريخية - خلافا بين مواقف الناس فيما يحصل بالتنازلات الاقليمية في سبأ مثلا والضفة الغربية . رغم اننى كنت اشعر شخصيا بان معظم الاسرائيليين مستعدون للموسم الى حل وسط فيما يتعلق بالضفة الغربية ايضا . وعلى اية حال فقد رأيت من الضروري ان ادرج في بيان سياسة الحكومة فقرة ندى على انه بالرغم من ان الحكومة مخولة بالتفاوض واتخاذ القرارات بشأن التنازلات الاقليمية مع الاردن ، فانه لا بد قبل توقيع اية اتفاقية في هذا الصدد من الرجوع بشأنها الى الشعب في صورة انتخابات جديدة .

ثم حدث امران ، اولهما ان ديان استقال ، ورغم اننى افنته بالعودة الى الحكومة ، فان الضجة التى اثيرت حوله داخل الحزب جعلت الانشقاق بين صفوفه امرا وشيك الخطر . ودا واصحا انه ليس هناك طريق لايجاد معادلة تسمح بارتضاء الالحاح المتزايد داخل الحرب على ان يتخلى ديان عن وزارة الدفاع . ونفى في نفس الوقت على جناح رافى الذى برأسه داخل ادار المراح . كذلك كان هناك مشاكل اخرى ، فالكتلة الدينية التى ملكت بسطة عليها اساع طوال من اجل تشكيل حكومة وحدة وطنية فررت على حين فحاة . كنتيجة لخلافاتها الداخلية - انها لن تصبح شريكا في ائتلاف سبق وانها لن تنضم الى حكومتى . وكان معنى ذلك تشكيل حكومة اقليمية . ولم يكن ذلك يمثل مشكلة خطيرة بموسمنا ان نحصل على تأييد الاحزاب الصغيرة المختلفة في الكنيسة . اما الموسوع الذى كنت اراد حرجا فهو احتمال انهيار المراح وتمسكه . واستطعت تشكيل حكومة احتل فيها ديان منصب وزير الدفاع . لكن الحملة المضادة له ازدادت عنفا . وتركرت الان على تقرير اجرائات الوقت الذى برأه .

كما سبق ان قلت - من اية مسؤولية مباشرة عن الاخطاء في الاحكام
التي اتخذتها السلطات العسكرية عشية حرب يوم كيبور .
لكن التقرير لم يكن قد تطرق الى موضوع المسؤولية البرلمانية او
الوزارية . وكان ذلك بالضبط هو الموضوع الذى عبر عنه الرأى العام
بقوة داخل الحزب وخارجه . وشعر كثير من الناس في البلد بان
رئيس الاركان قد عومل بطريقة غير عادلة وانه كان من الواجب على
الاقل توجيه نفس القدر من اللوم الذى وجه الى دادو ، الى شخص دبان
بوصفه وزيرا للدفاع . (وارىد في هذا الصدد ، بدون تعليق على تقرير
اجرنات . ان اقول ان سلوك دادو في الحرب ذاتها كان رائعا
ولا يستحق اى لوم) . وتزايد السخط على اسلوب معاملة ديان في هذا
التقرير .

وكلما تحدثت مع زملائي عن الصراع المستمر في الحزب . وكلما
حللت الامور بنفسى . كلما بدأت اشعر بانه ليس في استطاعتى
الاستمرار اكثر من ذلك . ووصلت الى نقطة شعرت معها اننى ما لم
احصل على تأييد الحزب كله (وكانت الاغلبية دائما في صفى) فلن
يعود في مقدورى ان اعمل كرئيسة له بعد ذلك . وحانت اللحظة التى
قلت فيها لنفسى « ها قد وصلت . سوف استقيل وعلى الناس الاخرين
ان يفعلوا ما في استطاعتهم لتشكيل الائتلاف . ان هناك حدا لما
يمكننى احتماله . وقد وصلت الى هذا الحد » .

وبقيت طوال هذه الاسابيع المضنية من المحادثات والمناقشات
والمراة . اتلقى رسائل مؤثرة تحمل لى التشجيع والتأييد من كل انحاء
اسرائيل من اناس لم يسبق لى ان قابلتهم . لكنهم كانوا يقدرون
الظروف التى امر بها . وكانت كل الرسائل تدعونى الى الصمود
والتحمل . وكنت اود بالفعل الا اخذلهم . لكننى ابليت قيادة
الحزب . في ١٠ ابريل (نيسان) ، اننى قد اكتفيت .

وقلت « ان خمسة اعوام فنره كافه . وانه لما يفوف طافتي ان
استمر في حمل هذا العبء . وانا لا انتمى الى اية دائرة او جناح في
داخل الحزب . . . ولس هناك سوى دائرة واحدة استشيرها ، وهى
نفسى . وقرارى في هذه المرة نهائى لا رجعة فيه . واتوسل اليكم الا
تحاولوا اقناعى بالمدول عن رأيى لابه اسباب . فلا فائدة » . وبذلت
بالتبع المحاولات لا قناعى بالرجوع عن قرارى . ولكن دون جدوى .
فقد كنت على وشك ان اتم خمسين عاما من الخدمة العامة ، وكنت
على يقين مطلق من اننى افعل الصواب . ولقد كنت اريد عمل ذلك
من قبل . اما الان فلن بقف امامى شىء . وهذا ما حدث وانتهت
حياتى السياسيه .

وتحتم على مع ذلك ان ابقى رئاسة لحكومته انتقالية لحين تشكيل
حكومة جديدة . واستطعت بحمد الله . قبل ان اترك وظيفتى في ٤
يونيو (حزيران) ان ابلي الكنيسة انه قد تم ابرام اتفاقية لفصل
القوات مع سوريا من خلال المساعى الحسنة للدكتور كيسنجر . وتم
توقيع هذه الاتفاقية في جنيف يوم ٥ يونيو (حزيران) وعاد اسرانا .
ويعجز قلمنى عن وصف المعانى التى جاشت في نفسى وانا احبيهم لدى
عودتهم . رغم ان العدد الذى عاد من الاسر كان اقل مما كنا نأمل .

ثم عدت انا الى بيتى . بلا رجعة هذه المرة . واصبح رئيس
الوزراء واحدا من جيل السابرا - وهو اسحق رابين - الذى ولد في
القدس في نفس العام الذى جئت فيه انا وموريس الى مرجافيا . وهناك
اختلافات عديدة بين جيله وجيلى - اختلافات في الاسلوب وفي المدخل
وفي التجربة . وذلك من طبائع الامور . فاسرائيل بلد النمو التى
يتحرك كل شىء فيها الى الامام . لكن نواحى الاختلاف هذه ليست
هامية قدر اهمية نواحى التشابه .

وسوف يبذل هذا الجيل من السابرا جهده . مثل جيلى .

وسيكافح . ويرنكب اخطاء . وينجر . وهم كمثلنا ملنرمون بتنمية دولة اسرائيل وامنها وبحلم اقامة المجتمع العادل هنا . وهم يعلمون مثلنا . انه من اجل ان يبقى الشعب اليهودى كشعب ، فلا بد ان تكون هناك دولة يهودية يستطيع اليهود فيها ان يعيشوا كيهود . لا على الالام ولا كأقلية وانسى على ثقة من انهم سوف يضيفون رصيذا الى الشعب اليهودى في كل مكان مثلما حاولنا ان نضيف . ولابد لى من ان اضيف عند هذه النقطة شيئا حول ان يكون المرء يهوديا . اننى اعتقد انها ليست مراعاة الشعائر الدينية ومزاوتها . ان كونى يهودية . يعنى . وكان يعنى . ان اكون جزءا من شعب قاسى طويلا وحافظ على هويته .

ولست اعلم ما هى اشكال ممارسة اليهودية التى سوف يزاولها اليهود . في المستقبل . في اسرائيل وغيرها . بعد الف عام من الان . لكننى اعلم ان اسرائيل ليست فقط مجرد دولة صغيرة محاربة بحاول فيها ثلاثة ملايين ان يظلوا على قيد الحياة . بل هى دولة يهودية جاءت الى الوجود لتضم جزءا من بهود العالم . ولتغير التاريخ اليهودى الى الابد .

اما انا . فقد بارك الله حياتى . فقد عشت لارى مولد دولة اسرائيل . ولاراها وهى تستوعب بنجاح حماهير اليهود من كل انحاء العالم . لقد كان تعداد اليهود في هذه البلد عندما جئتها في عام ١٩٢١ يبلغ ٨٠.٠٠٠ . وكان دخول كل يهودى متوقفا على الاذن الذى تمنحه حكومة الانتداب . ونحن الان شعب يبلغ تعدادة ثلاثة ملايين . وصل مليون منهم الى البلاد بعد قيام الدولة تحت ظل قانون العودة الذى اعطى لكل يهودى الحق في الاستيطان هنا . كذلك فانشى اشعر بالامتنان لانى احيا في بلد يعيش في بحر من الكراهية دون ان يتخلى عن امله في السلام .

واخيرا ، فأننى اود ان اقول . انه من وقت ان جئت الى فلسطين امرأة شابة . ونحن مدفوعون للاختيار بين ما هو اكثر خطرا علينا وما هو اقل خطرا . وكم وقعنا تحت اغراء الخضوع للضغوط المختلفة وقبول الاقتراحات التى ان منحتنا هدوءا قليلا لعدة أشهر او سنوات . فأنها تقودنا حتما الى اخطار اكبر . ولطالما واجهنا هذا السؤال ، اى هذه الاشياء اكبر خطرا ؟ . ومازلنا حتى اليوم نواجه هذا الموقف ، بل ربما كان الموقف اكثر خطرا . ان العالم قاس وانانى ومادى . وهو لا يشعر باى حساسية تجاه معاناة الدول الصغرى . بل ان اكثر الحكومات استنارة ، تلك الديمقراطيةات التى يقودها زعماء رائعون ويمثلون شعوبا رائعة . حتى هؤلاء لا يشغلون بالهم بمشاكل العدالة والعلاقات الدولية . وفي هذا الزمان ، الذى تركع فيه الدول الكبرى امام الابتزاز ، وتتخذ فيه القرارات على اساس سياسات الدول العظمى ، فانه لا يمكن ان يكون متوقعا منا دائما ان نأخذ بنصيحة هذه الدول ، ولذا فان علينا ان نمتلك القدرة والشجاعة على رؤية الاشياء على حقيقتها والتصرف بانفسنا على اساس غريزتنا الرئيسية في الحفاظ على انفسنا . ولذا فأننى مازلت اجيب على من يسألوننى « وماذا عن المستقبل ؟ » بقولى ، انى اؤمن باننا سوف نحصل على السلام مع جيراننا ، لكننى على ثقة من ان احدا لن يصنع السلام مع اسرائيل الضعيفة . فلو لم تكن اسرائيل قوية ، فلن يكون هناك سلام .

اما رؤيتى لمستقبلنا ؟ فهى ان نكون دولة يهودية تستمر جماهير اليهود من كل انحاء العالم في الاستيطان والبناء فيها . ان تكون اسرائيل مرتبطة بجهد تعاونى مشترك مع جيرانها وان تظل ديمقراطية مزدهرة ومجتمعها يركز بقوة على العدل والمساواة .

الفهرس

صفحة

	● تقديم
٥	بقلم ممدوح رضا
	● تعليق لمركز الدراسات الصحفية
١٧	بقلم عبد القادر السعدنى
	● قبل أن تقرأ هذا الكتاب
٣١	بقلم عزيز عزمى
	● الفصل الأول
٤٨	طفولتى
	● الفصل الثانى
٦١	مراهقة سياسية
	● الفصل الثالث
٧٧	اننى أختار فلسطين
	● الفصل الرابع
٩١	بداية حياة جديدة
	● الفصل الخامس
١٠٥	رواد ومشاكل
	● الفصل السادس
١٢٤	نحن سنحارب هتلر
	● الفصل السابع
١٤٣	الكفاح ضد البريطانيين

صفحة

١٦٧	الفصل الثامن
١٦٧	لدينا دولتنا
٢٠٠	الفصل التاسع
٢٠٠	وزيرة موسكو
٢١٨	الفصل العاشر
٢١٨	الحق في الوجود
٢٤١	الفصل الحادي عشر
٢٤١	صداقات أفريقية وغيرها !
٣٥٩	الفصل الثاني عشر
٣٥٩	نحن ... بمفردنا !!
٣٨٤	الفصل الثالث عشر
٣٨٤	رئاسة الوزراء
٣١٢	الفصل الرابع عشر
٣١٢	الهزيمة
٣٥٥	الفصل الخامس عشر
٣٥٥	نهاية الطريق

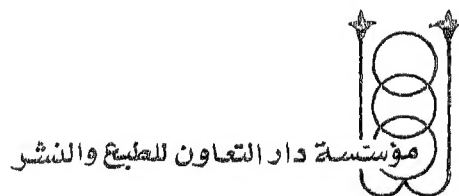
الكتاب
القادر



الصحف التى تصدرها المؤسسة

- جريدة السياسى
- صباح كل أحد
- جريدة تعاون الفلاحين
- صباح كل ثلاثاء
- جريدة تعاون الرياضى
- صباح كل جمعة
- جريدة تعاون الطلبة
- صباح كل سبت
- المجلة الزراعية
- أول كل شهر

رقم الأيداع ٤٧١٩ / ٧٩
الترقيم الدولي ٢ - ٦٩ - ٧٢٥٢ - ٩٧٧



■ مركز الدراسات الصحفية، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر